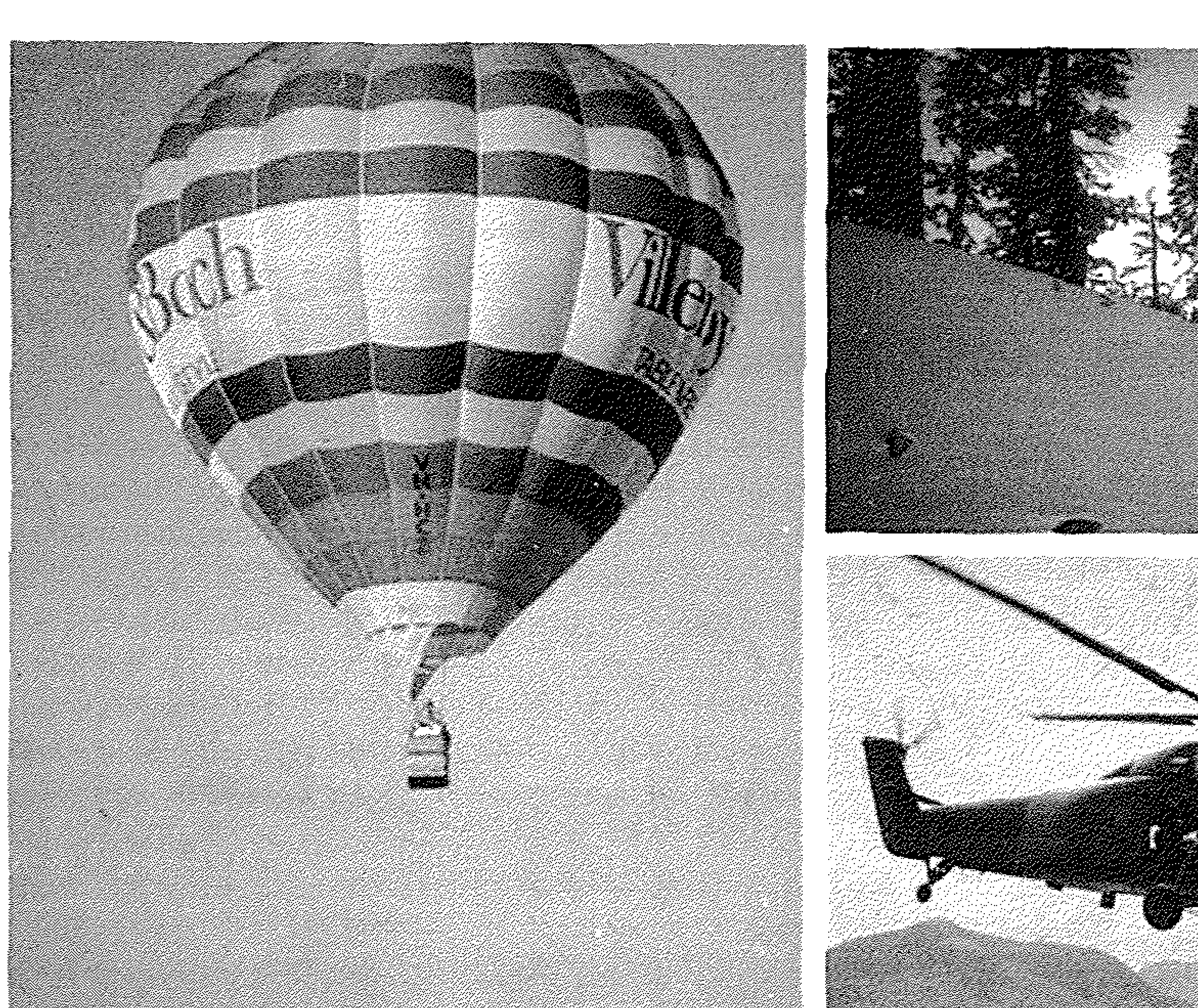
فؤاد شاكر





غرائب وطرائف وعبر

الدار المصرية اللبنانية

منحة من SIDA

غرائب
وطرائف
وعبر

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - ص . ب 2022 برقيا دارشادو - القاهـــرة - ت : 3923525 - 3936743 - فاكس : 3909618

رقم الإيداع : 5337 / 1998 | الترقيم الدولى : 5 - 428 - 270 - 977

تجهيزات فنية : الإسـراء ت : 3143632 | طبع : أمـــون ت : 7944356 - 7944517

الطبعة الأولى : محرم 1419 هـ مايو 1998 م الطبعة الثانية : جماد أول 1422 هـ أغسطس 2001 م

فؤاد شاكر

غرائب
وطرائف
وعبر

الدار المصرية اللبنانية



فهرس

الموضوع

تقديم

دراسة «الإنسان» من أى جانب، وعلى أى مستوى، وتأمل ما يقول وما يفعل، شىء نافع مثمر، وأحيانا.. ممتع. وحينئذ نظفر بسلسلة لا تنقطع ولا تنتهى من الحكايات، والنماذج، والمعانى، والحكم والمشاهد والألوان.. من الواقع، لا من الخيال، لأن كل فرد فى سماته، وصفاته، وقدراته، ونشاطاته، أو إبداعاته، وحتى ضعفه، وإخفاقاته... فرد فريد. وإنها لحكمة بالغة أن يشير الخالق سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى فى سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

هذا المخلوق ـ الإنسان ـ يستخدم فى مواجهة ضغوط ومصاعب الحياة ـ الطبيعية والمفروضة ـ ذكاءه، وإرادته، وجهده، بقدر رغائبه، وأهدافه، وطموحاته، فإن هو أحسن، وأتقن، وأجاد؛ سَعِدَ غالبا، وأسعد.. وما أكثر الذين حققوا ذلك من أشخاص عاديين أو مرموقين، إذ لا يخلو «إنسان» فى مجال ما، من قدرة على السعى أو الإنجاز، والمتعة، أو الإمتاع.. فإن هو زل وضل؛ شقِى وأشقى، وكان ندمه أشد وأبقى. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى.. فإن الذين يظنون أن حقبة من الزمن كانت وضاءة بالخير، مزدهرة بالعدل، متوجة فى تألق بالجلال والمجد يمكن أن تعود كما كانت وبنفس الصورة، والقدر، والقيمة، والعمق، هم مفرطون حقا فى الأمل، بل واهمون... لأن كل شىء فى هذا الوجود لا يعود ولا يتكرر أبدا مرتين متطابقتين، وهذه أيضا قدرة إلهية خلاقة مبدعة معجزة، والأسباب كثيرة، والحجة قائمة نظريا وعلميا، لمن فكر جيدا وتدبر.

إذنْ، فكل ما تأتى به الأيام، بل الساعات واللحظات، فيه جديد، ومن الطرافة أو العبرة مزيد.

وفى المواطن الصعبة، ومواقف الشدة، تظهر قدرة الإنسان ـ رجلا أو امرأة ـ على مواجهة التحدى، ومغالبة الخطر.. ولو بالفكاهة على البداهة.

فى زمن الخليفة المأمون، ادَّعى رجل صنع الخوارق والمعجزات، زاعما أنه من أهل «الكرامات»... فاستدعاه المأمون وسأله: هل تُرينا معجزة؟ فقال: نعم. إنى أطرح لكم حصاة شديدة الصلابة فى ماء، فتذوب فى الحال. فقال بعض الحاضرين: تلك حيلة. نعطيك حصاة من عندنا، واجعلها تذوب. فقال الرجل: عجبا! أنتم لستم أشد دهاء من فرعون، ولا أنا أفضل منزلة من موسى (عليه السلام). إن موسى (عليه السلام) ألقى عصاه أمام فرعون وقومه؛ فصارت ثعبانا، ولم يقل له فرعون: هذه حيلة.. سنعطيك عصا من عندنا!.. فضحك المأمون ونصحه.

وتلك صور شتى ـ فى هذا الكتاب ـ من الحياة المعاصرة، تجمع بين الطرافة والحصافة، والكفاح والنجاح، أو العثار المهلك الضار. والسعيد من استزاد الناس من خيره، والعاقل من اتعظ بغيره.

وتمضى الحياة فى مسارها المقدور، بالناس، والحب، والإبداع، والتحدى.. والأمل.. إنها حقا حفل حافل...!.

فؤاد شاكر

أعجب هروب إلى سقف العالم

فى الأمثال الشعبية الحكيمة مجهولة المصدر: «اللى يعيش ياما يشوف، واللى يمشى يشوف أكثر».

لاشك فى أن أول من قال ذلك.. كان إنسانا حصيفا خبيرا، عاش طويلا، ومشى كثيرا، حتى ولم يكن شاعرا، أو فنانا أديبًا يزهو بلقب أو شهرة، فصارت كلمته هذه مَثَلا تتوارثه الأجيال، يصلح موعظة فى كل زمان ومكان.

وهذا ما حدث مع «جان ـ مارى لوترل» الفرنسى ذى الوجه الذى لفحته الشمس وخضّبه الجليد، من طول ما مشى سنوات وسنوات، يحمل بندقيته ذات المنظار المقرِّب، يرتدى حذاءه السميك (البوت) المبطن بالفراء شتاء، المثقوب للتهوية صيفا، متنقلا ـ بشجاعة، وجراءة، وصبر ـ بين مناطق مجهولة نائية، ولكنها جزء من أرضنا وعالمنا الملىء بالغرائب والطرائف والأعاجيب التى لا تحتاج إلى خيال مؤلف، أو شطحات مختال. وقديما قال الحكماء: الحقيقة أحيانا أغرب من الخيال!.

كان جان ـ مارى لوترل مخرجا سينمائيا فى باريس، ثم فى هوليوود، ثم قرر ـ رغم نجاحه فى عمله ـ أن يتوقف ويكف.. أن يغيِّر مجرى حياته، ونظام معيشته.. فاشترى طاقم سلاح للصيد، واتجه نحو ما يعرف «بالشمال العظيم» قرب المناطق الباردة شمال مقاطعة كيبك بكندا، عاش سنوات فى حرية وانطلاق.. حياة متجول حقيقى بين الغابات، وصائد للفراء، بصحبة أصدقائه من قبائل الهنود (الحمر)، وهم السكان الأصليون لكندا، والولايات المتحدة الأمريكية.

ثم أصدر كتابا طريفا شيقا بعنوان "Wallou"، اخترنا منه هذا الفصل، الذى يجمع بين المغامرة، والمفاجأة، وسحر «الشمال العظيم». . وفيه المعنى أو الدرس الأخلاقى الحضارى فى الختام.

اقتربنا أخيرا من قمة جبل صخرى مرتفع، هرمية الشكل، وإذا بنا نفاجأ بمنظر غريب، مألوف تماما فى مناطق «الشمال العظيم»، ينتصب فى مواجهتنا كسور فى القمة الجبلية يقطع علينا الطريق، وهى بعمق نحو خمسين مترا، والعرض ضعف ذلك، وحائط ضخم من المياه المتدفقة سقوطا فى هذا المهوَى السحيق.

لا مفر إذنْ من الالتفاف حول هذا المشهد المخيف بالتسلق الحذر فوق الصخور، كما تفعل الماعز فى صعود مرتفع. بعد حوالى نصف ساعة من هذه المغامرة الطائشة، سمعت نداء صديقى الهندى «روكى» الذى سبقنى بمسافة بعيدة. صاح فى دهشة:

ـ انظر! . . . . انظر!

رأيته يشير بأصبعه نحو السماء. رفعت رأسى، فرأيت عجبا: فوق صخرة منحدرة يجثم كوخ كبير من الخشب المستدير يقف وحيدا فى هذا العلو الشاهق فى صمت مطبق. بدا سقفه مختفيا تحت أكداس من فروع الأشجار، يواريه ساتر من خشب الحور (من أشجار كبيرة من نوع الصفصاف). صاح صديقى:

ـ البيت ! هناك ! ها هو يا جونى. . هناك!؛ فصرخت بدورى:

ـ ماذا دهاك! وما معنى هناك. . هناك! ماذا تريد أن تقول؟ وهل تعرف شيئا؟ أنت ما جئت إلى هنا إلا الآن؟!.

لم يجب. اقتربت من «روكى» الذى تحول من الدهشة إلى تمثال صلد. إما أنه بيت أو كوخ، فهو حقا يبدو كذلك! لكن المدهش أن يكون فى هذا المكان!. لماذا أقيم فى هذا المرتفع الشاهق؟ لا شعوريا راودتنى الإجابة. . . لكن

الصمت الرهيب الذى يغلف الموقع، فوق تلك القمة العالية التى يقع عندها الكوخ صدمنى بنوع من التحدى.

أمضينا أكثر من نصف ساعة لكى نقترب منه. وصلنا إليه أخيرا عبر ممر ضيق غير ممهد، ملىء بالأحجار والصخور المتراكمة، خاصة فى مسافة الأمتار المؤدية إليه. حقا، إن مجرد النظر إليه من أسفل يوحى بأنه كوخ بسيط بلا شك، لكنه يبدو غير ذلك تماما عند مواجهته. أول ما يثير الانتباه.. ضخامته، واتساعه بالنسبة لهذا النوع من الأبنية. شىء غير عادى تلك العوارض الخشبية (الدعامات)، وكتل جذوع الأشجار التى تصنع الهيكل، وتبدو عليها بوضوح شدة المتانة والصلابة غير المعهودة. طوله نحو أربعة عشر، أو خمسة عشر مترا، وعرضه بين سبعة وثمانية أمتار، وارتفاعه يربو على خمسة أمتار، تحيط به - بكثافة - أشجار الصنوبر الضخمة، التى تمتد فروعها فوق سقفه المائل بشدة، فتظلله، وكأنها تحمى وتخفى هذا الكنز الغريب بأغصانها الطويلة الممتدة.

لما كان المسكن جزءا من موقع متوار خلف غابة صنوبريات تنبسط من تحته، فهو محجوب تماما عن الأنظار، فكان المنظر الذى شاهدناه عن قرب بين القمم الجبلية المجاورة الفسيحة مثيرا للدهشة. إنه «عش النسر» حقا!.

اقتربْت، وطرقْت - بشدة - ما يشبه البوابة. لا إجابة!. مضت فترة من الصمت.. فبدأنا ندور حول البناء.

الانطباع الأول أنه فى غاية المتانة، تحيط به حوائط وحفر قصيرة سميكة، مليئة بالتراب، والصخور الملتصق بها نباتات كثيفة، يعجب المتأمل لها من فكرة إقامتها لتحميه من قسوة البرد، وتعزل عنه الصقيع، فضلا عن حمايته من الحرارة الشديدة.

كنا فى منتصف أكتوبر، والشمس فى تلك الأيام الأخيرة التى تعقب الصيف الهندى تهيئ لظهور بشائر الثلوج. وهكذا.. فإن الماء المتساقط نقطة

بنقطة من السقف المائل ينزلق بعيدا عن الكوخ بنحو متر، يسيل بهدوء خلف الحفر ويحفظها من البَلل والرطوبة.

بعد أن أنهينا دورتنا، وقد غمرتنا الدهشة الدافعة إلى حب الاستطلاع، وجدنا أنفسنا من جديد أمام ما يُحتمل أنها بوابة، تحجبها النباتات النامية المتشابكة، خاصة الصفصاف. استخدمنا «البلطة» فى إزالة الأدغال الملتفَّة، فَظَهرت من ورائها ممرات طويلة عريضة تكثر بها أشجار الأَرز، ثم لاح لنا باب ضخم مهيب.

دفعنا الباب بقوة، فانفتح دائرا ببطء على محوره، مُحْدِثًا صريرا يفصح عن مفصلاته الحديدية الصدئة، وأخشابه العتيقة النخرة.. فارتعد جسمى كله، وأحسست وكأن رأسى تسقط فى هاوية بلا قرار. ثم، ويا للهول! توقف الباب فجأة عن الحركة. يا له من استقبال سيئ!. داخل رأسى سمعت طنين أجراس مختلطة مضطربة. ومن حولى كأن الظلمات المرعبة تتكاثف، فلا يصدر عنها سوى السكون الرهيب. مضت لحظة، وكأنها دهر. سمعت أخيرا صوتا يصرخ مناديا باسمى!. إنه قادم من أعلى !. وإذ كنت على حافة فقدان الوعى، فقد بذلت جهدا كبيرا لكى أرفع رأسى نحو الاتجاه القادم منه هذا العويل... ولكن من العجب أننى ما كدت أفتح عينى، حتى شعرت برموشهما متثاقلة، وكأنها التصقت بمادة صمغية لزجة.. مسحتهما بكف يدى، فازداد الأمر سوءا. كانت يدى ملطخة بما يشبه الزيت.

ثم علا الصراخ:

ـ وماذا بعد؟.. أجبنى.. ماذا بك يا جونى؟.. هل تسمعنى؟

ـ نعم.. أسمعك..! أين أنا؟.. أخبرنى أيها العجوز.. يا إلهى.... أنا لا أعرف شيئا..!.. أف لك!.. ألا تريد أن تفهمنى؟!..

وفجأة يسقط ضوء شديد على كتفى، ثم سمعت روكى، وكأننى فى حلم. إنه يضحك عاليًا فى قهقهة صاخبة.

ـ مسكين يا جونى!.

ـ ماذا دهاك؟!.. ماذا حدث؟.. تكلم يا رجل!.

ـ إنك غارق لأذنيك! أنت مدهون بالزبد يا صديقى الوسيم!.

نعم مدهون بالزبد، ووجهك ممتلئ به!.

ـ يالك من أحمق!.. وجهى ممتلئ بماذا أيها الأحمق؟!.

ـ أكيد من خيوط العنكبوت!.... لقد سقطت فى قبو يا مسكين!.

ألقى الهندى نحوى مصباحه الكهربائى (البطارية) قائلا:

ـ خذ، وانظر إلى نفسك!.

سقط المصباح إلى جوارى. التقطته، وأخذت أنظر حولى!. إن ما رأيته يستحيل من قبل توقعه. داخلنى إحساس بأننى فى كوخ صياد أسماك، ملىء بكل أنواع الشباك. وفى نفس الوقت، لاحظت أن سقوطى انتهى ـ لحسن حظى ـ فوق كومة من الأغطية.. ومن حولى تتدلى ـ بكثرة ـ خيوط العنكبوت، مصطبغة بلون قاتم، فتصنع ساترا معتما لزجا.

فجأة ـ وكأننى فى كابوس مزعج ـ لاح لى وجه روكى. اقترب نحوى يدفع عن نفسه خيوط العنكبوت المتراكمة.

ـ قل لى إذنْ.. كيف سلكت طريقك لكى تصل إلى هنا؟ هل تعرف..؟

ـ عن طريق السلم!.

ـ آه... أما أنا، فقد تحاشيت السلم!، فوقعت أنت فى الفخ الذى تركوه مكشوفا للمغفلين أمثالك، المستعجلين دائما!.

إن القبو واسع بشكل ملفت للنظر. خمسة أو ستة أمتار من كل جهة، وبارتفاع ستة أو سبعة أمتار!. لاشك فى أن روكى رجل حصيف.. فقد اختبر المكان بسرعة منذ البداية جيدا؛ فأوضح لى كيف أن الحوائط مقواة ومدعمة

جيدا، والقبو أيضا محكم تماما.. ليس به أى تهدم أو انبعاج، والأرضية مسواة بعناية شديدة، ليس بها أية نتوءات، رغم أنها من الطين المحروق.

فى أحد الأركان، أسفل حائط، وتحت طبقة من التراب الأصفر اللون، اكتشفنا قطعة من نسيج أجولة كتانية وأدوات متنوعة: مطارق، قصعات، بكرات، مقاييس من الحبال، مساحج (مسطرين يستخدم فى البناء)، أربطة، طسوت، معاول... ثم صعدت عن طريق مرقاة مدرجة، متابعا روكى خطوة بخطوة، الذى أسرع متجها نحو الدور الأرضى.. فلما بلغناه، ظللتُ فى قلق واضطراب لبضع لحظات، ثم انتبهت؛ فلم أجد روكى، وكأنه تلاشى!.

- روكى....؟

- ماذا....؟.

- أين أنت؟.

- هنا. تعال هنا أيها السهيان!...

تسلل شعاع من الضوء مخترقا الظلام، ثم آخر، ثم مجموعة أخرى من الأشعة المتقاطعة، تجمعت متشابكة أمامى، بينما كنت أخطو متحسسا طريقا نحو صديقى. فى داخلى يغمرنى شعور بأننى سأجد نفسى فجأة داخل برج قلعة، حيث قد هَبَّ الشهداء متحررين بعد سنوات من رقادهم فى الظلام، وتلك الشرارات من الأشعة ما هى إلا أثر وضاء من عبورهم.

فتح روكى النوافذ.. إنها ضيقة للغاية، لدرجة أنها تشبه - حقيقةً - فتحات إطلاق الرماح أو الرصاص من أسوار القلاع، وكل واحدة منها مسدودة بأكياس مغبرةً من الجلد، مملوءة بالرمل والحصى، وأطرافها (للنوافذ) العليا محكمة الإغلاق بسيور (أحزمة) من الجلد، تتدلى من الداخل. ويكفى للسماح بدخول الهواء، أو ضوء النهار، أن تُشَد تلك السيور، فتنزلق الأكياس بعيدا.. أفلح رفيقى الهندى فى فك وثاق الكثير من تلك الأكياس. كل حائط يحتوى على أربع نوافذ، عدا الحائط الذى فى الواجهة، فإنه يحتوى على ست. وعندما رُفعتْ السواتر عنها، أحسسنا - لوفرة الضوء - أن كشافات إنارة ساطعة غمرتنا.

على غير اتفاق، شرعنا على الفور فى استكشاف المكان. فى ركن منزو من القاعة الفسيحة ـ محصور بين ستة أعمدة كبيرة وقوية، ترتفع الأرضية إلى السقف ـ رأينا عددا من قطع الفراء الأصلية معلقة على ارتفاع يغطى نصف الحائط العلوى. إنها متلاصقة، وكل قطعة مربوطة الجوانب بالتى تجاورها فى مساحة واسعة، وتحتها خلف الأعمدة مرتفع يعلو إلى نصف الحائط السفلى، مغطى بقطع فراء أصلية أخرى ملتصقة الحواف بشرائط جلدية، تكون مفرشا طوله نحو أربعة أمتار، وعرضه نحو ثلاثة، فهو إذنْ سرير مفرط الاتساع، ترقد فوقه - بلا نظام - كومة من قطع الفراء المتراكمة. إنها كتلة من فراء الدببة، والأيائل، والحائطان الآخران على جانبى المخدع تغطيهما ـ ابتداء من المنتصف إلى السقف ـ قطع كبيرة من جلود الدببة السوداء والبيضاء، وفراء ذئاب، أجزاء منها ممزقة ويابسة. وبعيدا بعض الشىء.. كتل من جذوع الأشجار المتجاورة، لابد أنها بمثابة حاجز.

على ضوء بطاريتى اكتشفت فرن طهى من الأخشاب. وبدافع احترام المكان، مسحت برفق التراب من فوق سطحه. لمحت بابه ملقى على الأرض، ويرقد بجواره عدد كبير من أجزاء مواسير (أنابيب).

كم يا ترى عدد السنين التى مضت منذ أن تخطى آخر إنسان بقدميه عتبة هذا المسكن؟. من العسير الإجابة عن ذلك!. ربما خمسون سنة.. على الأقل!. وكيف تسنى لأحد ـ أو جماعة ـ فى ذلك العصر بناء «عش الصقر» هذا الذى لايصدق، بدعاماته الضخمة المهيبة، وكتل وجذوع أشجار الأرز السميكة، التى ما زالت تتحدى الزمن، وهى جاثمة فوق هذا المنحدر الصخرى بأعلى قمة الجبل؟!.

لابد أننى كنت ـ لدهشتى البالغة ـ أحدث نفسى بصوت عال، لأن «روكى» صاح بى من أعلى الكوخ بأنه شخصيا يقدر أنه بُنى فى القرن الماضى. ثم أردت تفسيرا؛ فقال إنه يقصد بذلك مائة سنة، وبجهد رجل واحد.

- ماذا؟.. رجل واحد؟!.. إنك تَسخر بلا شك، أو تهذى!.

- ولو !.. إننى جاد تماما ! إنه رجل واحد.. وبالتأكيد!.

ضغط «روكى» على كلماته، تعبيرا عن اعتقاده الواثق. إذن فهو جاد لا يمزح. ثم أضاف: لابد أن هذا الرجل كان ضخما، عملاقا. ولكى يثبت لى صحة استنتاجه وإقناعى، لفت نظرى إلى ارتفاع الباب، وأيضا إلى فتحات «النوافذ»، أو بالأحرى المنافذ. من بين الثمانية عشرة - وهو مجموعها - سبع فقط متوسطة الارتفاع، والإحدى عشرة الأخرى على ارتفاع نحو مترين من سطح الأرضية.. فما إذن عَمَلُ تلك النوافذ أو الفتحات من ارتفاع مترين، ما لم تكن للرؤية؟.

- - إذن، فهذا الرجل كان ضخما بالتأكيد!.

- موافق!.. موافق!.

أدهشنى الباب حقا، وجعلنى فى حيرة.. فارتفاعه لا يقل عن مرتين ونصف، ولكن لماذا هو شديد الضيق بشكل غير عادى؟

أدرك صديقى الهندى حيرتى؛ فقال:

- إنه مرتفع، حتى يتمكن ذاك الرجل من عبوره بلا انحناء، إذا كان يضع أحمالا فوق رأسه، مثل جوال كبير، أو نصف ذبيحة.. أما إنه ضيق، فهذا تعرفه بالخبرة يا جونى!.. فمن أجل الحيطة والحذر!.

وبينما كان روكى يواصل بحثه واستكشافه، عدتُ تلقائيا إلى الركن الذى به الفرن. إننى فى حاجة إلى التأمل والتفكير. ومن ناحية أخرى.. فإن الركن بالذات يبدو لى أكثر حيوية من غيره. نعم «حيوية» بمعنى الكلمة، وإنه لكذلك. ما إن بدأت أشغل ذهنى بهذه الفكرة، حتى انْفلت فأر بسرعة من بين ساقى! فرفعت صوتى:

- مرحبا بالضيف!.

طوال الوقت الذى كنت أناجى فيه نفسى، لم أكف عن طرح الأسئلة، وأهمها هذا «الرجل الكبير» كما يسميه روكى، هل كان له مخبأ؟. طرقتُ الأرضية لا شعوريا عدة مرات بكعب حذائى طرقات قوية، على أمل التقاط أية إشارة ضوئية ولو ضعيفة، أستشف منها شيئا.. ولكن عبثا. هل من الممكن أن يكون فى السقف؟.. لا، ففى ذلك مخاطرة كبيرة، بسبب الرطوبة والبلل.. فالسقف يمكن أن يتداعى، وتسرُّب الماء أمر محتمل. من الصعب التكهن، وهذا يحيرنى.. أين المخبأ؟.

مكثت فترة طويلة بجوار الفرن، أفكر فيما يجوز، وما لا يجوز. وقفت إلى جواره متأملاً لحظة. وفجأة راودتنى فكرة: لماذا لا أحرك جزءا منه قليلا؟. حاولت معايرته (معرفة قياساته وكتلته). عجبا!، إنه يبدو لى ثقيلا. أرجله متباعدة جدا. وقفت إزاءه متفحصا.

ارتكزت بصدرى فوق السطح العلوى للفرن، واضعا ذراعاى متقاطعين تحته، وقربت وجهى من الفتحة حتى خدّاى بحافتها اللزجة. سحبت يدى، وأدخلتها فى الفتحة، وبأطراف أصابعى نزعت غطاء الموقد، ثم رفعته نحوى بشدة، فطاش ساقطا على فخذى، ثم انزلق تاركا جرحا فى ساقى. قفزت لا شعوريا إلى الخلف، لكن صوت سقوط الغطاء المعدنى على الأرض لفت نظرى إلى شىء.. وقفت متحيرا، بل متغيظا!.

أخذت أحك الأرضية - حيث سقط الغطاء - بحذائى البوت السميك؛ فانزاح التراب كاشفا عن لوح سميك من الحديد، باتساع يقرب من اتساع الفرن.

ارتكزت على ركبتى، وبكل قوتى - مستعينا بسكين كبير معى - أفلحت فى رفع هذا اللوح، فظهر لى على الفور ما يشبه الحاجز المتشابك، مكونا من أسياخ صلبة سميكة مبرومة مرصوصة بعناية، ومثبتة بدقة. أدركت لأول وهلة أنها دعامة قوية، يرتكز عليها اللوح أو الغطاء الحديدى، تزيد من إحكامه وصلابته.

الحذر واجب! . . .

فككت باحتراس واحدا من تلك الأسياخ بطرف السكين، لكنه ـ لمقاومته الشديدة ـ انبعج أثناء استخلاصه للخارج. زاد حب استطلاعى، فواصلت استخراج بقية الأسياخ.

أمامى الآن فتحة مستطيلة. انحنيت فوقها لأنظر، لعلى أرى شيئا، فهبَّت موجة من رائحة الرطوبة العطنة. واصلت مهمتى والسكين فى يدى، والمصباح الكاشف بجوارى. رأيت على مسافة قريبة حاجزا آخر مطابقا تماما للحاجز الأول، وفى نفس حجمه. شرعت فى فكه مثل الأول، وإذا بنصل السكين يدخل رأسيا بين كتلتين من جذوع الأشجار، وأحسست أنه انزلق حتى المقبض إلى فراغ. بحذر شديد زحزحت كتلتى الخشب، ثم نظرت متفحصا، فدهشت إذ تبينت ما يشبه القبر على عمق كبير، جدرانه من ألواح خشب الأرز الرقيقة، منتصبة رأسيا، ومغطاة بقطع كبيرة من الجلد المدبوغ.

من المؤكد أن «الرجل الكبير» يرقد هنا، مع الاعتراف بأنه أجاد صنع وترتيب كل هذه الأمور.

فى قاع الحفرة تراصت ـ فيما يشبه جنود الحراسة ـ أعداد كثيرة من المعلبات المحفوظة، من بينها صندوقان من الكرتون، مكتوب عليهما بوضوح: «٢٠ ـ خرطوشة ـ لى انفيلد ـ بريطانيا»، وأربعة صناديق أخرى من المعدن لم تفتح، كتب عليها: «رنجة البلطيق»، بجوارها وعاء من الصلب، مملوء إلى ثلاثة أرباعه بعملة ذهبية، معظمها إنجليزية. وفى جانب، ستة أجولة كبيرة من القماش السميك، متخمة حتى الفوهة، ومنتفخة حتى تكاد تنفجر، مربوطة بأحزمة متينة من الجلد، وكأنها معا وحدة، أو مجموعة واحدة متكاملة.

لم أستطع مقاومة الرغبة العارمة فى فتحها ـ أو جوال واحد منها على الأقل ـ لمجرد النظر. . . مددت يدى نحو أحدها بلا اختيار، وفككت رباطه، ثم فتحته برفق. . إنه ملىء بتراب الذهب (أو الذهب المسحوق). أيضا الذهب؟!.

لأول مرة فى حياتى أشعر بتلك النشوة اللذيذة!. دسست يداى فى داخل الجوال بسعادة لا حدود لها، ثم سحبتهما تلقائيا، وقبضتا كفَّاى مملوءتان. مازلت لا أصدق عيناى. وبينما انسال مسحوق الذهب من بين كفى كالماء، تاركا ذراته اللامعة البراقة فى ضوء المصباح علي سطح يدى من الداخل والخارج، شعرت بقشعريرة تسرى كتيار الكهرباء من قمة رأسى إلى إخمص قدماى.

وماذا فى الخمسة أجولة الأخرى؟.. نفس المسحوق.. الأصفر... البراق!.

طوال هذا الوقت، كنت أسمع ـ لاهيا عنه ـ من بعيد صوت صديقى، يغمغم بكلمات مصاحبة لتحركاته القلقة داخل المسكن.

ـ أخيرا؟! ماذا تفعل؟ هل تصنع عَلَفا؟.

ـ مهمة كبيرة، هنا فى الداخل. مواد بالجملة.. مواد كثيرة.. ثرثر صديقى بكلمات لم أفهم معناها. أما أنا، فقد أخرجت من الحفرة كل العُلب، واحدة واحدة، والأوانى والأوعية المختلفة، إلى أن ظهرت لى ألواح رقيقة من الخشب وشرائح من الجلد فى القاع، فأدركت أن هذه نهايته «الخزانة» أو المخبأ. مَن كان يظن ذلك، أو يصور خياله أن يحدث ذلك؟. أضاء النور فوقى.

ـ جونى؟.

ـ نعم؟.

ـ تعال، وانظر!.

ـ ها أنا قادم!.

خرجت أتبعه. وقف شاخصا عند ما يشبه قبوا مستديرا عميقا وضيقا، لا يزيد عن ارتفاع رأسه، يملأه التراب والعنكبوت، وأكوام من أشياء غريبة: مناخل، حبال، معاول، شواكيش، مناشير، أغطية وقبعات قرمزية، جرادل منبعجة، بكرات دوارة، قصعات مملوءة بالمسامير، أحذية طويلة الرقبة (بوت)

مقواة بخيوط من الحديد الرفيع، بجوارها جوالان مكتوب عليهما أيضا بخط واضح وبحروف كبيرة باهتة: «ديناميت ـ خطر». قال روكى:

ـ هذا يشبه ما فى القبو الأول!. انظر!. نفس المواد تقريبا. فى رأيى أن «الرجل الكبير» لم يكن مجرد صياد وحسب!. من المحتمل أنه جاء إلى هنا بحثاً عن الذهب، ومن باب الحذر، أحضر المواد والأدوات مضاعفة.

ـ باحث منقب؟!.

ـ بالضبط.

شرح لى صديقى الهندى أنه فى ذاك الوقت البعيد، كان هنا فى الشمال الكندى عدد من هؤلاء المنقِّبين، وكثير من المناجم التى لم تُستغل مطلقا. وفى تقديره أنه ماتزال توجد ـ إلى الآن ـ كميات ضخمة من الذهب المطمور فى الأرض، لكن لأسباب كثيرة.. استخراجها صعب ومكلف. وأحد تلك الأسباب ـ بلا جدال ـ قسوة الطقس المفرطة.

كانت المرة الأولى التى أشاهد فيها أمام عينى معدات وأدوات باحث عن الذهب. أنا الذى قضيت شبابى فى قراءة القصص والروايات، وتعاملت فنيا مع خيالها عندما كبرت. أحسست بشعور مختلف. سألت روكى:

ـ ولكن أين كان يبحث هذا الرجل «العفريت» عن المعدن الثمين؟

بالتأكيد فى أسفل الجبل مع السيول...

ـ ليس بالضرورة!. لابد أن «الرجل الكبير» قد اكتشف عرق ذهب فوق الجبل على الجانب الآخر من البحيرة.. وهو وحده الذى كان يعرف موقعه. ومن المحتمل أنه كان لا يأتيه إلا فى كل ربيع، ولا يجىء مطلقا فى الخريف، حيث يأتى الهنود يطرقون المكان!.

صحبتُ روكى إلى الحفرة التى أخرجت منها العلب، وجلست على ركبتى عند حافتها. وأخذنا نركز الإضاءة بمصباحينا داخلها، ونختبر كل شبر فيها، ثم قلت متعجبا:

ـ حسنا! . هل ترى جيدا؟! هنا كان مخبأه الحصين.

ـ ولماذا لم تنبش القاع، وتعرف ما تحته؟.

ـ لماذا؟ لأن الأرض تحته! . إن ما تراه هناك فى القاع يا روكى هو الأرضية! .

لم يجب روكى، بل تركنى قليلا، ثم عاد ومعه جاروف، وقال:

ـ خذ . هيا . . سوف ترى جيدا ما يكون! .

ـ أُوكيه! .

نزلت ـ على غير اقتناع ـ ومعى الجاروف، وروكى يرقبنى بلهفة. بدأت فى نزع بعض ألواح الأرضية الخشبية، وفجأة انزلق الجاروف غائرا إلى نحو منتصفه، فكانت دهشتنا أن رأينا حفرة أخرى.

ـ معك حق يا صديقى. قل لى ماذا أفعل إذن؟! .

لم ينبس روكى بكلمة، وانحنى نحوى، مسلطا ضوء مصباحه فوق رأسى. فى هذه المرة ظهر فى القاع صندوق مستطيل الشكل من الحديد الأبيض، طول ضلعه نحو نصف متر. إنه مغلق بإحكام. ومن عجب أنه يشبه الصناديق التى كانت جداتنا تضع فيه أدوات الخياطة.

فى ذهول مطبق، رفعت رأسى إلى صديقى فى نظرات متسائلة. .

كان جامدا بلا حراك. كانت الدهشة البالغة تبدو على وجهه. انحنيت لألتقط الصندوق. إنه ثقيل بعض الشىء. بحذر شديد جدا ـ دون أن أعرف ما بداخله ـ رفعته بتأثر بالغ، ليتسلمه روكى.

انقضى وقت طويل قبل أن نتمكن من نزع غطائه، استعانةً بنصل السكين، لالتحامه بالصدأ. أفلحنا أخيرا فى فتحه، وكانت المفاجأة المدهشة أننا وجدنا بداخله كتابا كبيرا، ملفوفا جيدا بجلد الماعز الناعم المدبوغ.

مسحت يدى بردائى لأنظفها مما علق بها من تراب، ثم نزعت اللفافة بمنتهى الحذر، وصرخت:

ـ ياه!.. انـظر!. إنه إنجيل!.

فتحت الكتاب الثمين. حواف الصفحات مصفرة قليلا، وملتصقة بعض الشيء. أعلى الصفحة الأولى مكتوب هذا التاريخ: ١٨٦٠، وتحته مباشرة مسجل بخط اليد «سان بطرسبورج». إلى أسفل قليلا، فى وسط الصفحة، مكتوب بخط جميل جدا، وبأحرف كبيرة اسم: «إيفان كارازانوف».

ظلت المشاعر العنيفة العميقة التى غمرتنى فى تلك اللحظة وأنا قابع على ركبتى عند حافة المقبرة، وحيدا فى هذا الجو الغريب، والإنجيل العجيب فى يدى فى هذا المكان النائى شديد التطرف والارتفاع بأقصى الشمال الكندى. ظلت تلك المشاعر الانفعالية تلازمنى لسنوات طويلة فيما بعد.

لم أستطع أن أرفع نظرى لفترة غير قصيرة، وأنا مشدود بكل كيانى، سابحا بخيالى وأفكارى مع تلك الصفحة من الكتاب. ثم سألنى روكى، الذى احترم صمتى الطويل، ولكنه كان قلقا متحيرا:

ـ هلا قرأت لى ما هو مكتوب؟.

ـ نعم... نعم!.

قرأت المكتوب بصوت عال هذه المرة. وما إن فرغت من تلاوة المقطع الأول من اسم «كرازا...»، حتى هبَّت فى الخارج فجأة عاصفة مروعة، رغم أن الجو كان هادئا تماما حتى تلك اللحظة، وارتفع صوتها الهادر بدرجة لا تصدَّق، ولم نكن نتوقعها. وفى خلال ثوان معدودات، اهتز الكوخ، حتى خُيل إلينا أنه سينهار حتما فوقنا توًّا. إن المبنى المكون هيكله من جذوع أشجار الأرز المتينة يئن، ويصرّ (يحدث صوتا كالصفير الحزين) ويطقطق من كل أجزائه، كما لو أن كتل الجذوع الخشبية، والعوارض (الدعامات) على وشك أن تتداعى وتتفكك.

فزعت. . . وظللت جالسا على ركبتى بلا حراك. لم أستطع أن أرفع عينى لأنظر إلى روكى. بدأ زئير الريح يتضخم ويعلو ثانية بعد ثانية، إلى أن صار مكثفا بدرجة تكاد تصم الأذن، وكأنه صوت عويل مزمجر مرعب، قادم من أعماق القبر، أو من ليل الزمن، حيث أننا عبثنا بالمكان، وانتهكنا حُرمته.

مضت دقائق حسبت أنها لن تنتهى. ثم بدأت هذه السلسلة من الظواهر تخبو وتتلاشى فجأة مثلما بدأت، ثم تبعها داخل المسكن هدوء شامل كامل مخيف لا يطاق، أثار الفزع من جديد داخلنا وحولنا.

زادت ضربات قلبى، حتى كاد أن يتوقف، واستمرت رعشتى. نعم!. فى هذا اليوم ـ وليغفر لى الله ـ أقسم أننى سمعت صراخ الموتى!.

ظهر أمامى خيال روكى أعلى فتحة البوابة، وهو قادم من الخارج.

ـ أين كنت؟.

لم يجبنى، حتى انتهى واقفا إلى جوارى. وبنبرة واثقة، وبصوت لم أعهده فيه أبدا من قبل، قال:

ـ يبدو أننى سمعت وقع خطوات بالخارج!.

ـ خطوات أقدام؟!.

ـ نعم. . وقريبة جدا. . دُرت حول المكان. . لم أر شيئًا. ربما كانت الريح. . هذا كل ما فى الأمر!.

كان صوته محشرجا، وعلى وجهه مسحة التهيب، مثل الملاكم عندما يسمع صوت جرس بدء الجولة!. قلت مهدئا:

ـ هيا. . . كل هذا من وهم الخيال!، وربما من الإرهاق الشديد. .

ـ لا. لا أظن ذلك يا جونى!.

ثم قال بصوت خافت، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

ـ أنا متأكد يا جونى!، متأكد!.

إن وجهه الهادئ ـ عادة ـ بدأ يتقلص فى تشنج. ثبت عينيه المفزوعتين بشدة فى عينى لحظات، ثم قال بصوت جاد مرتعد:

ـ جونى.. إنها «روح» الرجل الكبير!.

آثرت ألا أجيب. اكتفيت بهز رأسى فى هدوء، ربما كان ما يظنه هو الصواب!.

قلبت بسرعة صفحات الإنجيل. فوجئت - مندهشا - بصورتين فوتوغرافيتين فى منتصف صفحاته: إحداهما لرجل طويل القامة جدا، ملامحه جميلة، له شارب، نظرته صافية نبيلة. إنه واقف بجوار نافذة تحيطها ستائر ثمينة بيضاء. يرتدى زى الاحتفالات الكبرى للضباط، ويده مرتكزة على مقبض سيف معلق فى جانبه. إن مظهره فخم، يدل على رتبة عالية.

الصورة الأخرى بيضاوية، كأنها منزوعة من ميدالية كبيرة الحجم. إنها تمثل ـ ويا للعجب ـ النصف العلوى لامرأة بارعة الجمال، ينسدل من فوق رأسها وشاح أبيض غاية فى الرقة والأناقة. إنها بلا جدال على درجة عالية من الحسن والنبل.

تأملت الصورتين بإعجاب شديد... إن وجه المرأة محاط بدائرة من قلم رصاص، كما لو أن أحداً أراد أن يُبرز جمالها البديع. همس صديقى الهندى فى أذنى قائلا: «رجل وسيم، وامرأة جميلة ملعونة»!.

تحت صورة المرأة اسم: «ساندرا»، والتاريخ: ١٨٩٠، وهو أيضا محاط بدائرة من قلم. أعطيت روكى صورة المرأة ليتأملها، واحتفظت بصورة الرجل أتفحصها بدقة. نعم، (شرائط الكتف) من الذهب أو الفضة، تنم عن مرتبة عالية جدا. تحت الصورة نفس الاسم المكتوب على غلاف الإنجيل: «إيفان كارازانوف ـ ١٨٨٥».

لكن مفاجأة أخرى كانت فى انتظارنا: هناك فى أقصى قاع الحفرة، وبطولها تقريبا، يوجد نموذج مركب ملفوف بعناية كبيرة داخل قماش سميك. إنه ثقيل جدًا، ولم أستطع إخراجه إلا بمساعدة روكى.

وضعنا النموذج فوق سطح الفرن، لكى نتأمله جيدا عن قرب. رائع مدهش حقا. أما عن روكى، فإنه وقف مبهورًا، مثل طفل يتلقى أول (دراجة) فى حياته يوم عيد ميلاده!.

يمثل النموذج سفينة حربية. طوله متر ونصف. الأبراج، والمدافع وحبال الربط، والجسور، والممرات، منحوتة بدقة، بل منقوشة نقشا بديعا بمهارة فائقة. على يمين السفينة وميسرتها منحوت هذه الكلمة «بوتمكين». لابد أن «الرجل الكبير» كان ضابطا على تلك السفينة الشهيرة فى التاريخ. لماذا إذن فر هاربا إلى الشمال الكندى العظيم؟!.

أمضينا فترة فى صمت تام، وكل منا غارق فى أفكاره، نتأمل ـ جالسين فوق جذع شجرة ـ «بوتمكين» الشهيرة المدهشة.

أمسكت بصورة المرأة، وأنا أقول لروكى:

ـ فى رأيى أن «الرجل الكبير» لم يأت إلى هنا وحده!. فماذا ترى؟.

ـ محتمل... محتمل!.

ـ اسمع منى.. ليس هذا «محتملا»، بل هو مؤكد!. لماذا هذا السرير الكبير جدا؟ المتسع جدا؟، ثم إنه ـ على أية حال ـ إذا أردت رأيى... - والمنطق يقول ذلك ـ لا يستطيع كائن بشرى أن يستمر فى البقاء هنا بمفرده لعشرات السنين فى مثل هذه الوحدة، وهذا الطقس الرهيب. ولأنه رجل أبيض، غير متقدم فى السن، صدقنى، فإن هذه السيدة «ساندرا» جاءت معه. ولهذا السبب وحده استطاعا معا أن يتحملا ويعيشا حياتهما.

ـ ربما... ولم لا؟. يجب أن يكون الحق معك!، لأنه هنا يجب أن توجد امرأة، وإلا يكون الوضع مستحيلا!.

ـ نعم، صدقنى. هنا كانت حياة شخصين، واستمرت بعد أن هربا معا من بلدهما البعيد روسيا. وأية حياة كانت يا روكى حينذاك هنا فى تلك المناطق الضائعة من المعمورة؟!. وإذا وضعنا أيضا فى الاعتبار المستوى الاجتماعى الرفيع الذى انحدر منه كل منهما... على أية حال، فإن كل ما تبقى لهذين الكائنين غير العاديين من ثروتهما القيمة، هو أنهما يرقدان منذ قرن من الزمان جنبا إلى جنب فى أعماق قبر مدفون تحت هذا الفرن، فوق قمة شاهقة، لا يكاد يدركها إنسان.

ثم سألته:

ـ كم من السنين ـ فى رأيك ـ استطاع هذا الرجل وتلك المرأة أن يعيشاها هنا؟.

أطلق الهندى زفرة عميقة، وهرش مؤخرة رأسه، وكأنه يفكر بشدة، ثم أطال النظر إلى الأرض، ونهض، وراح يختبر الحوائط ببطء، وقطع الصخور الداخلة فى البناء، وجزء السقف الذى يعلو الفرن، ثم قال: إن الرجل عاش هنا ـ على الأقل ـ ستين سنة.

ـ بهذا القدر؟!.

ـ بالتأكيد!..

ـ وصاحبته؟..

ـ أربعين سنة فقط.

إنها حياة فى غاية القسوة للمرأة البيضاء.. وحتى بالنسبة للهندية.

قفزتْ فى رأسى فكرة، أردت أن يشاركنى فيها. اقترحت ببساطة أن نُعيد وضع كل الأشياء وممتلكات «الرجل الكبير» فى مكانها بالحفر الثلاث، تماما على نفس الهيئة التى كانت عليها. فى الحقيقة، فكرت فى أننا لا نملك حق

حيازتها، ولا حتى الذهب أيضا . . ليس لنا أن نسلمه للشرطة. أليست هذه مقبرة لها حُرمتها، ولا يجب أن تغتُصب؟. هذا ما قدرته وطرحته على زميلى؛ فوافق عليه.

ـ أنت محق يا جونى. إن هذه التذكارات جميعها لهما وحدهما . . ليست لنا. ومن الواجب احترام روح «الرجل الكبير»، وروح ساندرا. لا يجب مطلقا أن نخيب ما كان من آمالهما.

قبل أن نبدأ فى وضع كل شىء فى مكانه، حرص روكى على التأكد من أن الأشياء الثمينة التى كانت حول نموذج السفينة صحيحة، ومثلما كانت. انتهزت فرصة انشغاله بهذه المهمة، لأكتب قائمة دقيقة بالموجودات. وكتبت فى مفكرتى الخاصة الأسماء والتواريخ المسجلة على الصورتين الفوتوغرافيتين، وتلك المدونة على صفحة من الإنجيل ذى الغطاء الأحمر.

الآن، أصبح كل شىء فى موضعه فى الأعماق. جلست القرفصاء فى قاع الحفرة، بعد أن فرغت من تصفيفها، ؛ فشعرت فجأة أننى عاجز عن الحركة، إذ دار فى ذهنى أننا بما قررناه لن نرى بعد الآن مطلقا تلك الأشياء. لم أستطع أن أحول عينى عن أجولة الذهب. . والتحف، وفى أعماقى يتردد سؤال محير: هل نحن على وشك ارتكاب حماقة، سوف ألوم نفسى عليها مدى الحياة؟!.

انحنى روكى أعلى فتحة الحفرة، منتظرا ـ فى صبر ـ أن أطلب منه مناولتى أول الأسياخ المدعمة للغطاء الحديدى. أمسك كل منا عن الكلام. ونفسى تحدثنى: هل يفكر هو فيما أفكر أنا فيه؟ محتمل. . . !.

إلى أن شعرت فجأة بيد الهندى تربت على كتفى برفق. رفعت عينى نحوه، وإذا بوجهه يكتسى بمسحة من العذوبة اللانهائية، تعكس مهابة جليلة باهرة. قرأت شعوره الداخلى، وصمته المطبق دل على استنكار أخرس. قلت:

ـ نعم يا روكى. .

ـ لا يا جونى! لا. .

قالها بصوت رقيق عاتب. .

ـ لا. . ماذا؟.

ـ يا جونى. . يجب احترام ذكراهما، وأن نترك للأرواح ما يخصها، حتى تكون سعيدة فى العالم الآخر!.

ما إن تركت مكانى بقاع الحفرة، حتى بدأ صديقى يضع بنفسه أول الأسياخ الحديدية. لقد أدرك حالتى النفسية والفكرية المضطربة المشوشة، فتولى هو أداء تلك المهمة، حسما للأمر. . .

بعد الفراغ من ترتيب كل شىء على النحو السابق، سوينا الأرض، وكأنه لم يحدث أى تغيير، ثم أعدنا الفرن إلى ما كان عليه. وطوال تلك العملية. .لم ينطق أحدنا بكلمة واحدة. واستمر الصمت الضاغط الرهيب سائدا لفترة بعدها.

ـ أخبرنى يا روكى. . لماذا لم تحدثنى مطلقا من قبل عن هذا الكوخ؟.

أنت كنت تعرف أنه موجود هنا. . أليس كذلك؟.

ـ ياه!. . هنا، وفى كثير من المواقع بالشمال الكندى. . نعم. . . بالتأكيد كوخ. . نعم «ماكى» كما نسميه نحن. . !. كنت أعرف أن رجلا أبيض هناك، وربما كانت معه امرأة.

ثم توقف عن الكلام، كأنه يفتش فى أعماق ذكرياته.

ـ ماذا إذن؟. . هيا، تكلم بالتفصيل. . !.

ذكر لى أنه منذ زمن بعيد ـ يرجع إلى القرن الماضى ـ والهنود (الحمر) من القبائل القريبة من المنطقة، كانوا يشيرون إلى وجود زوجين من البيض يعيشان فى معزل منذ سنوات بالشمال العظيم. وبمرور الوقت لم يعد أحد يعتقد أن هذا صحيح. . فلما انتقلت الحكاية من أب لابن، أصبحت أسطورة لا تكاد تُذكر الناس إلا نادرا بين العجائز!.

«إن جاءكم فاسق بنبأ..» ، أو بالإعلانات!

لماذا يفضل البعض تقديم الظن السيئ على الحسن؟.. والأسوأ: لماذا، وكيف يُسرع البعض بنقل كل ما يُسمع، ويخوض فى أقدار الناس وأعراضهم قبل أن يتثبت ويمحِّص، إن كان يعنيه حقا ما يسمع؟. والأشد سوءا وخبثا: لماذا، وكيف، ومتى يحلو للبعض «توليف» إشاعات كاذبة خاطئة، تنال من سمعة شرفاء وأبرياء، وإن كانت لا تنقص من قيمتهم وكرامتهم..؟!، فقيمة المرء وكرامته فى نفسه، وفى رأسه: ما يقول وما يفعل، ما يسلك أو يترك، ما يُعطى أو يأخذ.

ما أكثر الإشاعات، وما أقبحها، أو على الأقل... ما أبعدها أحيانا عن الواقع والحقيقة!. وإشاعة: من شاع شَيْعُوعة، وذاع وانتشر.

إن سوء الاستيعاب والفهم من أسباب الذيوع والانتشار الخاطئ. وسرعة التلقى بدون تعقل أو تدبر سبب آخر. وضعف الشخصية واضطراب النفس مع ادعاء المعرفة سبب ثالث. وحب النميمة لتجريح الآخرين سبب رابع. والأنانية البغيضة التى تبغى الانتصار لنفسها بالحق وبالباطل سبب خامس. والفراغ أولا وأخيرا «يشيع» مع كل تلك الأسباب، وغيرها، لأن المشغول الممتلئ لا يشغل نفسه وفكره بعبث أو خبث.. والناس طبائع وصنائع.

«جان ـ نويل كابفرير» أستاذ جامعى ومؤسس مركز دراسة الإشاعات فى باريس، ومؤلف كتاب: «إشاعات»، وفيه ما يستحق من تأملات، لمن يريد أن يكف عن التفاهات، سنعرض بعضها على شكل تساؤلات...

* بداية: لماذا مركز لدراسة الإشاعات؟، وهل يهتم الناس بدراستها والتحقق منها؟.

** إن الإشاعات كانتشار الأخبار وأنباء الحوادث، فهى جزء من نشاط وحركة المجتمع. والعقلاء الذين يريدون معرفة الحقائق ومصادرها كثيرون. إن هذا المركز تلقى فى خلال أول عامين من إنشائه أكثر من عشرة آلاف مكالمة تليفونية، يستفسر أصحابها عن صحة إشاعات تسرى بين الناس، وهل هى صحيحة أم لا. أكثر من ستين اتصالا تليفونيا عن إشاعة واحدة، ألا يعنى هذا شيئًا؟.

ونتتبع نحن الإشاعة، ونحاول التوصل إلى مصدرها. ونبحث: كيف ولماذا «تجرى» وتنتشر؟، مستخدمين فى ذلك أدوات علمى: النفس والاجتماع، ونسأل الناس ونحاورهم. عندما تصدر إشاعة مثلا عن شخصية عامة مشهورة، نسأل الناس: ما هى فكرتهم عنه، أو عنها؟، كيف ينظرون إليه، ونبحث كيف يسلك ويعيش. . . . الخ.

* هل يمكن السيطرة على الإشاعة؟ هل يطلب أحد مواجهة إشاعة وإيقافها؟

** هذا يتوقف على مستوى الإشاعة ذاتها ومداها. المواجهة المثالية تتحقق عندما تكون الإشاعة مجرد تلميحات غير مدوية، بمعنى أنه لا يعرفها سوى أشخاص قلائل. ويمكن اتخاذ إجراءات أو ترتيبات تمنع من تحولها إلى إشاعة. وكثيرون جدا يتصلون بنا لهذا الغرض.

* وتكذيب الإشاعة، هل يخنقها؟.

** تكذيب الإشاعة ليس أفضل الأسلحة لقتلها. وربما على العكس، قد يكسبها قوة. . لسبب بسيط: أن الناس يحبون تصديق الإشاعات، وأن التكذيب يحفزهم إلى الميل نحو تصديقها، ويَعْلَم من لم يكن يعلم.

* ألا يكفى إطلاق إشاعة مضادة؟.

** الإشاعة المضادة ليست إشاعة. مثلا هناك إشاعة تسرى بأن المخرج التليفزيونى (×) رئيس عصابة. الإشاعة المضادة: المخرج التليفزيونى (×) ليس رئيس عصابة، وهذا كلام لا معنى له ولا تأثير. وإذا كان هذا المخرج بالفعل سيئ السمعة، قبيح السلوك والأخلاق، فإن الناس حين تسمع الإشاعة المضادة عنه، تؤكد أنه هو مصدرها.

* فى عصر التليفزيون، والإذاعات ، والقنوات الفضائية، والصحف العديدة، والمجلات... أى الإعلام المكثف والمتلاحق من شتى المصادر، مازالت الإشاعات تُبث، وتنتشر ، وتجد أُذنا صاغية!.

** كان الظن قديما أن الإشاعات والأكاذيب تنتشر، لنقص أو غياب الإعلام المناسب، وسرعة التعرف على الحقائق، أى بسبب قصور فى الوسائل التكنولوجية. المنطق يقول: إن الإنسان العاقل الرشيد أولى به أن يستمع فقط إلى مصادر المعلومات المنضبطة الموثَّقة، وليس إلى الإشاعات العشوائية التى لا يُعرف مصدرها.. لكن للأسف.. تعبير «معلومات منضبطة موثقة» كالعملة، له وجهان، لكنهما متناقضان: فإن معناه يحتمل «التحقق والانضباط»، ويحتمل أيضا «التنقيح وإخفاء التصريح». وهناك أيضا المعلومات المشوهة والمبتورة والمحشوة بقصد معين. وكثير من الناس فى كل الدول والمجتمعات يعتقد أن التليفزيون والإذاعة والصحف لا تقول كل شئ. ويتأكد هذا الاعتقاد وينتشر فى الدول التى تشتد فيها الرقابة الإعلامية.

لقد أظهرت دراسة طريفة وقيمة أيام الاتحاد السوفيتى (قبل زواله) أن ٩٥٪ من الذين شملتهم الدراسة ـ وهم فى مناصب ومستويات ثقافية عالية ـ يصدقون الإشاعات، أكثر من تصديقهم للبيانات والتصريحات الرسمية!.

* لماذا تنتشر الإشاعات بهذه السرعة والحماس؟.

** الأسباب نفسية وشخصية. إن معرفة الإشاعة مبكرا، معناه معرفة أشياء، وربما أسرار لا يعرفها الآخرون. وهذا فى ذاته نوع من التميز (ولو كان على أساس واهم).. فالناس فى أعماقهم يؤمنون بأن الكثير من الحقائق محجوب عنهم، فيعشقون الإشاعات، خاصة ما يتعلق بالسلطة، برجال

السياسة، بالمشاهير، بأفراد العصابات والسفاحين... ومعروف من زمن قديم دور الإشاعات فى الصراعات السياسية والحزبية، وفى أوقات الانتخابات. هناك أوقات حرجة يحسبها المتنافسون السياسيون بمهارة ودقة، يُطلقون فيها إشاعات مغرضة ضد خصومهم، يكون لها تأثير فعال مباشر، بحيث لا يجد الخصم الوقت المناسب لدحْضها، أو احتوائها لصالحه.

* أليس فى تكرار الإشاعة، وانتقالها من شخص إلى آخر، وهكذا.. تدعيم لها وقوة؟.

** فى الواقع، يتناقل الناس الإشاعة بالدوران حولها. ولكى يُضْفون عليها الصدق والثقة، يضيفون إليها، أو يسبقونها بكلمات، مثل: «قال لى صديق - أو من مصدر ثقة - فى منصب كبير..»، أو «سمعت من أستاذ جامعى له صلة بـ.......»، أو «حدثنى فلان عن (×) المشهور المعروف بـ....»[1].

إن الإشاعة محاولة لإثبات القدرة على الإقناع. فإذا أبدى المستمع لها مقاومة أو رفضا، بذل المتحدث بها جهدا للتغلب على هذه المقاومة أو الرفض. إذن، فهى إرادة الغلبة والانتصار للرأى. هى الدافع عند المتحدث بالإشاعة، أو الرافض لها. ومن العسير على المرء أن يتقبل بسرعة - وبلا اكتراث - أن من يُخاطِب، ومَنْ يستمع إليه لا يصدق كلامه.

من ناحية أخرى.. فإن الإشاعة مرتبطة بالبيئة أو المجتمع وظروفه، وبتوقيت أو فترة زمنية معينة. فى مجتمعات مثلا كألمانيا وفرنسا، يهتم الناس كثيرا بالأمور الصحية[2]. والإشاعة تهيئ نوعا من الهدوء النفسى، أو قبول

(١) ونحن بدورنا نضيف: عندما نسمع فى نشرات الأخبار، أو نقرأ فى الصحف تعبيرات مثل: «وقال مصدر مطلع...»، أو «وعلمنا من مصادر وثيقة...»، أو «وصرح المراقبون...»، أو «ويرجح الخبر أن...»، عند سماع ذلك أو قراءته، ألا يؤكد ذلك عند الناس الميل إلى تصديق النبأ المجهول المصدر وبالتالى الإشاعات؟!، فمن هو ذلك المصدر المطلع، والمراقب ماذا راقب؟ ومن ومتى؟!.

(٢) البرامج والموضوعات الصحية فى التليفزيون الفرنسى على رأس قائمة المواد المشاهدة فى الإحصاءات، وتسبق أشهر الأفلام والتمثيليات التى بها كبار النجوم، وذلك لاهتمامهم الشديد بالأطفال وصحتهم، وأيضا لوجود عدد كبير من المسنين ومشكلاتهم الصحية.

الواقع. مثلا: إذا تواترت إشاعة بأن الشخصية المرموقة أو الفنان المشهور (أو الفنانة) مصاب بمرض كذا الخطير، ويُخفى الإعلان عنه، فإن مستمع الإشاعة يقول فى قرارة نفسه: «إنه هو، رغم ثرائه، أو شهرته، أو منصبة، وليس أنا.. الحمد لله».. وكذلك الحال إذا كانت الإشاعة تتعلق بكارثة، أو فضيحة حدثت له (أو لها).

* وهل الإعلانات مجال لإطلاق الإشاعات الكاذبة؟.

** نعم.. فكثير من الأطفال بالذات يعتقد أن محتوى الصور الإعلانية المتلاحقة، سريعة الإيقاع، وشديدة الجاذبية، المتعلقة بمُنتج ما، هى صحيحة تماما، والكلام المصاحب لها صادق كل الصدق. وقد لا يكون كذلك، بل قد يكون مضرا (كما ثبت فى بعض الحالات). ويؤمن الصغار بأن لهم الحق فى الحصول على هذا المنتج، أيا كان، وربما لا يفيدهم، وربما ليسوا فى حاجة إليه. إن الإشاعات الإعلانية لها تأثير كبير وخطير، خاصة لدى الصغار.

فى الوسط الإعلانى تُستخدم أساليب (تكتيكات) حاذقة وذكية، ترتكز على استغلال الإشاعة المثيرة التى تصيب المنافس فى مَقْتل. وقد يكفى مثلا أن يشيع بين الناس أن منتج كذا يسبب دواراً (صداعا)، أو تلفا فى الجلد أو الملابس، أو هو من إنتاج شركة تهريب أموال أو تجارة مخدرات، أو يصيب بالضعف الجنسى، أو يؤثر فى الإنجاب....

إن كل من يحمل إشاعة، يسمعها المستمع إليه لأول مرة، يتلقى «مكافأة» تُريحه وتُرضيه: أن يسمع ممن يُصغى إليه تعبيرا مثل «إنك حصيف، ما كنتُ أعلم ذلك.. لقد أرشدتنى.. آه.. هذا مدهش .....».

إذن، فانتقال الإشاعة هو «صفقة متبادلة»: فى مقابل إعطاء معلومة، يحصل الناقل على إعجاب المتلقى واحتفائه به. وهذا الأسلوبُ أو (الميكانيزم) هو الذى يفسر: لماذا وعند أى حد يتوقف سريان وانتشار الإشاعة... وهذا بالطبع عندما يعرفها الجميع .. كل الناس!.

ومع ذلك . . فبعض الإشاعات يتوقف أو يختفى هنا، لكنه يظهر ويسرى هناك، فى مدينة أو منطقة أخرى. وقد يكون للإشاعة الواحدة «دورة» تنتشر فيها، ثم تتوقف، ثم تعود سيرتها الأولى. وعندما تتبعنا بالدراسة إشاعة معينة، ووجدناها اختفت من مدينة، وثبت أنها مفتَعَلة كاذبة، ثم ظهرت فى مدينة أخرى، وسألناهم: لماذا تصدقونها، وقد تحققنا فى مدينة كذا من عدم صحتها؟؛ قالوا: «ربما كانت غير صحيحة هناك، لكنها صادقة وحقيقية هنا»!. ويدهشنى أحيانا ثقة الناس فى الإشاعة، والتسليم بصحتها على الفور، وعدم محاولة التحقق من مصادرها.

* والصحف . . تقول فى كتابك: لا تأخذ الأمر أحيانا مأخذ الجد، فتساعد على نشر إشاعات (ولا تقول إنها مفتعلة) دون أن تتحقق من صحتها، أو الرجوع إلى المصدر.

** إليكم هذه الواقعة النموذجية: منذ سنوات سرى مسرى النار فى الهشيم (أى بسرعة، كالنار فى الورق الجاف) خبر حادثة، وكانت صادقة مائة فى المائة، وتلقفه رواد مجموعة من المطاعم الباريسية فى ليلة واحدة، ونشرته جريدة «لوموند» المشهورة فى اليوم التالى: بينما كان أبوان يتناولان طعام العشاء مع أصدقاء لهما فى مطعم فاخر بالمدينة، تلقيا مكالمة تليفونية من ابنهما فى البيت الذى يقع بالحى الراقى، يخبرهما أنه قتل لتوه شخصا كان يتجول فى الظلام بالبيت. فلما أسرع الوالدان إلى منزلهما، وجدا جثة مطروحة على أرضية حجرة الاستقبال. إن ابنهما قتل لصاً مقنَّعا، فلما كشفا القناع، ظهر أنه ابن الأسرة التى كانت تستضيفهما على العشاء!.

إنها صورة أو شكل من أشكال الصيغة المأساوية الكلاسيكية، التى فيها يقتل الأب ـ أو الأم ـ ابنه، دون أن يعلم أنه الابن (أو الابنة)، وهى تتكرر مرارا فى الأدب. وماذا يعنِى هذا؟. إن الإنسان قد يفعل الشر، وهو يظن أنه الخير، وإنه لا يجب أن يُقدم المرء على القتل فى أى الظروف، لأنه يقتل إنسانا شبيها به، إن لم يكن ابنه حقا، أو ابنته.

وتقول هذه الإشاعة أيضاـ أو تهدف إلى القول ـ بأن «الجريمة» فى كل مكان ومستوى اجتماعى، وأن القاتل يمكن أن يكون من طائفة العلية أو الأثرياء، وداخل الأسر المبجلة. إنها تعبير عن القلق، وعن السخط إزاء النتائج المؤلمة البشعة، عندما يجعل المرء من نفسه قاضيا، يصدر حُكما وينفذه، ويقتص لنفسه بنفسه، بحجة الدفاع عن الكرامة، وعن النفس.

إن دور الصحافة دقيق وحساس للغاية. ولنطرح مثالا: لنتخيل أن عَلَما من الشخصيات الأعلام، أو نجما من المشاهير أصيب بمرض خطير. هذا حدث، أو خبر، سيتلقفه نوعان أو نمطان من الصحافيين: أحدهما سيتكلم عنه فى مجالسه الخاصة، ولكنه سيمتنع عن نشرة. والآخر سوف يكتب: «لا صحة لما يشاع (أو يقال) من إصابة.. بمرض كذا»، فهو يكذِّب شيئا لم يسبق النشر عنه مطلقا.. وهذا ـ فى الحق ـ مكر شديد.. ونفس الشئ للذى يكتب: «من حق نجوم المجتمع الاحتفاظ بالصمت إزاء أمورهم الشخصية..». إنه تلميح إلى وجود، أو وقوع شئ ما، له خطره، ومازال سرا. وهنا يبدأ تكوين الإشاعة. وهذا أمر جد خطير، لأنه من بين عشرة آلاف ستسرى بينهم الإشاعة، ثلاثة آلاف على الأقل سيقولون: «انظروا.. هذا الكلام المنشور يؤكد صحة الإشاعة».

* هل يمكن معرفة مصدر الإشاعة؟.

** فى بعض الحالات.. نعم.. حدث ذات مرة أن اتصل تليفونيا شخص بأحد البنوك يسأل قسم الاستثمار: هل ستشترى شركة كوكاكولا أسهم شركة ريشار؟. ربما كان سؤالا بريئا، وربما كان مدسوسا عن قصد من شركة منافسة، لكن هذه المكالمة التليفونية العابرة كانت سببا فى انطلاق إشاعة، أثرت بشدة على قيمة الأسهم فى البورصة. وهى طريقة معروفة فى نشر الإشاعات.

وهناك الإشاعات التى تتخطى حدود الدولة، وتصبح «عالمية». منذ سنوات ظهرت فى ستراسبورج إشاعة أن رجلا أسود أكل ذراع لص اقتحم مسكنه. ونفس الإشاعة ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى ألمانيا، وغيرها. ومنذ سنوات أيضا سرت إشاعة ـ لا أساس لها من الصحة ـ فى فرنسا،

ونشرتها إحدى كبريات الصحف تحت عنوان (مانشيت) كبير: عن وجود عدسات للعين لاصقة، تسبب العمى فى الحال. وسرعان ما ظهرت الإشاعة، وشاعت فى أستراليا، وسويسرا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية.

* ولماذا بهذه السرعة؟.

** لأن وسائل الإعلام الكبرى فى كثير من الدول تتردد كثيرا، بل وتحجم عن الحديث أو الإشارة إلى أمراض الشخصيات المعروفة، وتعتبر هذا مرمى لا يجب اقتحامه، فتنشط حوله الإشاعات بديلا عن وسائل الإعلام. وغالبا ما تتمسح الإشاعة من هذه بأحد كبار الأطباء، لإضفاء الثقة على معلوماتها: «سمعت من - أو عن - الأستاذ الدكتور (×) المشهور، أن فلانا يعانى من مرض كذا...»، أو «صديقى القريب (أو النسيب) من الدكتور خبير أمراض كذا، علم منه أن فلانة.......». هناك عادة صلة بين موضوع الإشاعة، وبين المصدر الذى يُتَّخذ متكأً للوثوق بها.. فإذا كانت تتعلق مثلا بحادثة قتل، أو تهريب، أو شبكة دعارة، يقال فى أول الإشاعة: «علمت، أو حدثنى ضابط كبير بالشرطة أن....».

وغالبا، كلما كانت الشخصية التى تدور حولها إشاعات.. شخصية كبيرة، ولها موقعها، أو مكانتها فى المجتمع، وشهرتها، ومنغلقة على نفسها، أو تحيط نفسها بالغموض، ولا تفسح مجالا مطلوبا - بل محتما - فى التعرف عليها بوضوح وثقة، والتآلف معها؛ فإنها لن تسلم من الحديث عنها بالحق وبالباطل، بالصدق وبالكذب.

نعم.. إن الغموض فى الأعالى، وعند القمم كالضباب، والظلمات عند السفح. وفى الظلام يمكن أن يحدث كل شئ، وأن يدور همساً أى شيء!.

سجون وشجون

لا يخلو مجتمع من جريمة. تلك ظاهرة إنسانية معروفة، حتى من قبل أن يُخلَق الإنسان: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»؟، هكذا قالت الملائكة عن خليفة الله فى الأرض.

ومع تطور الحضارات، تغيرت أساليب مواجهة الجرائم وعقاب المجرمين والمفسدين فى الأرض: من الصلب، والحرق، والخوزقة، والدفن حيا، وصب الزيت المغلى، وتقطيع الأجزاء الحية من الجسم، ونزع الجلد، والرق، والسخرة.. إلى الإعدام السريع، والأشغال الشاقة، والسجن، والحبس، والعقوبات المالية والشخصية (كالحرمان من الحقوق السياسية، أو الوظيفية، أو التعاملية...).

ولكل مجتمع تشريعاته التى تصدر عن فلسفته أو نظرته إلى الجريمة والعقاب، وأساليب تنفيذ الجريمة والقصاص من مرتكبها، وردع الآخرين، وكبت نوازع الشر والعدوان فيهم، وقاية لهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه، ووضعاً فى الاعتبار تشريعات ونظم، وإجراءات المحاكمة، وإصدار الأحكام.

فى النصف الثانى من القرن العشرين، ومع تزايد المطالبة بالمحافظة على حقوق الإنسان، حتى ولو كان يقضى فترة عقوبة، أو كان محتجَزًا رهن التحقيق والمحاكمة، ظهرت فى بعض الدول أساليب فى معاملة و«تهذيب» المعاقبين، بعضها يجعل من السجن مكان احتجاز وإقامة أشبه بالفندق (باعتبار أن القصد هو تقييد الحرية فقط)، وبعضها يغالى فى الضبط والربط، أى

استخدام نظام صارم لا يهين الجسم، ولكن يحفظ للحياة داخل السجن قدرا كبيرا من الهدوء والرهبة. وهذان مثالان من بين عشرات النماذج والأساليب المستحدثة... ثم نماذج من بلاد أخرى.

فى الولايات المتحدة[1]: تطبق ٣٥ ولاية حكم الإعدام، وألغتها ١٥ ولاية. وفى كل يوم تستقبل السجون الأمريكية نحو عشرة آلاف نزيل يدخلونها لأول مرة. وفيها يعيش باستمرار نحو مليونين من المحكوم عليهم فى مختلف الجرائم. والتليفزيون، والراديو، والصحف، والكتب، وممارسة الألعاب الرياضية، والهوايات الفنية، والنوم على الأَسِرَّة، وزيارات الأهل، والدراسة، والتدخين... هذه كلها حقوق متاحة ومألوفة داخل السجون. وبينما يغمض المسئولون أحيانا أعينهم عن عمليات «التصفية» الجسدية للمسجونين المشاغبين الخطرين بتسليط بعضهم على بعض، فهناك السجون النموذجية، ويسمونها أحيانا «المختلطة»، حيث تتلاشى فيها القيود إلى أدنى حد..

وكما يقول مدير إحدى تلك المؤسسات: «من الطبيعى أن الرجال والنساء محتاج بعضهم إلى البعض، فالاختلاط بين الجنسين أمر ضرورى فى نظامنا العقابى، حتى لا يظلم القوى الضعيف، لذلك.. يتناول الرجال والنساء وجباتهم معا فى قاعات الطعام، أو فى محاضرات التثقيف والتوعية والتهذيب النفسى أو الدراسة. أما العلاقات «الخاصة»، فممنوعة تماما، باستثناء «قبلات» الصداقة والترحيب العابرة.. ومسموح للزوجات بالاختلاء بأزواجهن فى حجرة خاصة لفترة محدودة. وأثمر أحد تلك اللقاءات ميلاد طفلة. كما يسمح للمسجونين حسنى السلوك، والمحكوم عليهم بعقوبات خفيفة أن يخرجوا لبعض الوقت إلى المدينة، والعودة ثانية إلى السجن، تقديرا لحسن سلوكهم، وتشجيعا للآخرين على الاقتداء بهم.

---

(١) حجم أموال التعامل فى «الجريمة» بكل أنواعها فى الولايات المتحدة نحو مائة مليار - نعم مليار - دولار فى السنة. وبالطبع لا تدفع عنها ضرائب. والأرباح التى يحققها الجنس والدعارة وحدهما تفوق أرباح الحديد والصلب والنحاس والألومنيوم معا.

ولما كان تعاطى المخدرات شائعا داخل السجون، فقد ثبت أن نزلاء السجون المختلطة أقل من غيرهم تعاطيًا لتلك السموم.. بل إن أحد النزلاء أصيب باضطراب نفسى، فأذن له بالخروج لقضاء ليلة ـ على حسابه طبعا ـ بملهى ليلى، والعودة فى الصباح التالى.. منتعشا!.

والملابس فى هذه النوعية من «السجون» عادية، والنساء ـ وهن يقمن فى جناح منفصل عن الرجال ـ مسموح لهن بارتداء ما يخترن من أزياء، طويلة، أو قصيرة، أو أقل من القصيرة، وأيضا وضع مساحيق، وألوان الزينة والعطور، وتزيين الغرفة ـ مثل الرجال ـ بالصور واللوحات والستائر.

وسور السجن لا يزيد ارتفاعه عن متر ونصف من الأسلاك غير الشائكة. والتجول فى حدائق السجن متاح فى أى وقت، حتى قبيل الغروب، فرادى، أو ثنائى من نزيل ونزيلة، أو مجموعة «أصدقاء» من نزلاء ونزيلات.. ورجال الحراسة والحارسات عليهم المراقبة فقط.. من بعيد!.. ومع ذلك، ليس من المتوقع أن تدخل هذه السجون النموذجية ـ جدا ـ فى إعلانات الشركات السياحية تحت عنوان: إجازة سعيدة فى سجن (....) الثلاثة نجوم... مجانا. وربما كانت هذه النظرة العقابية سديدة رشيدة.. فالحرية شىء ثمين لا يستهان ـ عند الأحرار ـ بقيمته وآثاره. وقديما، عندما كانت العناية بزرع القيم والركائز الأخلاقية التربوية جزءا أساسيا من مناهج التعليم، لتنمو وتثمر سياجاً داخل النفس والضمير، يحول فيما بعد بين المرء واقتراف الجرائم، أو حتى التفكير فيها، كانوا يعلموننا صغارا نشيداً، ظل عالقا بالذاكرة حتى اليوم، بعد نحو ستين سنة، وكنا نردده وننشده ملحنا، ونصوره رسما فى لوحات طفولية ساذجة، وفيه:

قد كان عندى بلبل	فى «قفص من ذهب»
وكان يشدو دائما	بكل لحن مطرب
ولم أكن أمنعه	من مأكل أو مشرب

ففر منى ونأى بدون أدنى سبب
وقال لى: حريتى لا تشترى.. بالذهب

ليت هذا «البلبل» الحر، يبكى أو ينوح على من يبيع حريته.. بتراب الذهب.

جرى الذهب أنهارا فى اليابان.. وفى أشكال مختلفة: أرصدة الأفراد والمؤسسات الصناعية والإنتاجية العملاقة، والبنوك الضخمة المتخمة، والمشروعات الهائلة حجما وعددا، وهى الدولة التى خرجت من الحرب العالمية الثانية مهزومة منكوبة مستسلمة. ومن بين ضجيج آلات الصناعة، وشعارات الأفكار المستحدثة الوافدة، وإبهار الدعايات المغرية المغرقة، ورنين ذهب الثروات الصاعدة المتصارعة، توالى ظهور رؤوس فاسدة مفسدة، أدينت بالرشوة والتزوير والسرقة، وسوء استغلال المنصب أو الوظيفة، من وزراء وأقطاب أحزاب وسياسة، وبنوك ومؤسسات، وجرائمهم بالملايين.. عشرات ومئات الملايين، تتناسب مع «حجم» اليابان فى أسواق الصناعة والتجارة والمال فى عالم اليوم.. وتوارت قيم أسرية واجتماعية، عاش عليها شعب كان فريدا فى فلسفته وحكمته وحكومته من آلاف السنين.. فكان مصير هؤلاء الفاسدين: السجن.

والسجن فى اليابان مؤسسة عقابية، لها أيضا نظامها المتميز.. فعند دخول المحكوم عليه لقضاء مدة العقوبة، يشرح له بالتفصيل نظام «الإقامة» فى السجن. والويل له كل الويل لو خالف ـ ولو عن غير قصد ـ شيئا منه، ولو بعد سنة، أو ثلاث، أو عشر. أولا: النظافة الكاملة، والترتيب وفقا للنظام العام. ومعنى ذلك أن السرير فى عنبر النوم يكون مع الاستيقاظ المبكر من النوم ـ مباشرة ـ مرتبا منسقا. والدولاب الصغير خلفه مرتب ونظيف، والرف المزدوج فوقه لامع منسق، وفوطة الوجه متدلية تحت الرف، مفرودة جيدا. لاشيء مطلقا على الأرض أو الحائط، ولو كان خدشا بقلم. ونظافة الجسم لها أيضا قواعدها.

التعليمات مكتوبة فى كل مكان يمر به السجناء واضحة بأربع عشرة لغة. توضح مثلا كيف يبدأ السجين النوم، وعلى أى جنب، ولو خالف يعاقب. إذا كان مسموحا له فى الصباح بغسل الوجه، فلابد أن يكون الوجه فقط، وإذا زاد أو نسى، ووضع نقطة ماء على رأسه؛ يعاقب. وفى وقت الاستحمام عليه أن يجلس القرفصاء فى طابور الانتظار بشكل معين، وإذا خالف أو اهتز؛ يعاقب. فى أثناء تناول الطعام بالقاعة المخصصة لذلك.. الدخول بنظام محدد، وكذلك الجلوس والخروج. وإذا جلس، يغمض عينيه، ولا يفتحهما إلا مع إشارة صوتية ليأكل فى زمن محدد. فى ورشة العمل: يفعل نفس الشيء. وإذا نظر إلى عين الحارس، يعاقب (حارسان فقط فى الورشة، غير مسلحين، وبها يعمل مائة وعشرة مساجين). والكلام: غير مسموح به على الإطلاق، ولو همسا، لا فى عنبر النوم، ولا فى ورشة العمل، ولا فى دورات المياه، فقط لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة ـ ولا صخب ـ بعد وجبة العشاء، عقب غروب الشمس. التدخين ممنوع تماما، وكذلك أى طعام أو شراب غير المخصص. ولذلك.. فسجون اليابان هادئة، وطوال النهار صامتة.

معروف فى اليابان، أن المرء ـ أو المرأة ـ بمجرد وضع القيد الحديدى فى يده، حتى ولو كان رهن التحقيق أو المحاكمة، فإنه يدخل عالما آخر، يختلف عن عالمه الذى جاء منه... فقانون السجون هناك يرجع إلى عام ١٩٠٨، ويطبق بكل حزم وصرامة. وفلسفته باختصار: «نقل الشخص كلية من مألوف الحياة التى اعتادها، بلا عقاب جسدى، إلا عند الضرورة... فالسجن هو احتباس العقل ـ مصدر التفكير فى الجريمة والشر ـ وليس الجسم». ويترك القانون لإدارات المؤسسات العقابية تنفيذ نصوصه ـ فى إطار تلك الفلسفة ـ حسب ما يرونه، تبعا لظروف سجونهم، وأحوال نزلائها... أى يعطيهم حرية فى التنفيذ، ولكن بشرط: الصرامة، والحزم.

وما جزاء من يرتكب محظورا؟، كأن يحلق فى عين الجاويش، أو يتحرك حركة غير مطلوبة أثناء جلوسه بالورشة، أو انتظاراً للاستحمام، أو حتى

«هرش» جلده على مائدة الطعام (ليست هذه مبالغة، بل حدث بالفعل)، أو نفخ تأففا أمام الحارس. . ما جزاؤه؟.

الخطأ الأول الذى يرتكبه المسجون، عقابه وضع القيد فى يده، وربط ذراعيه إلى الجسم بحزام من الجلد يلتف حول الصدر والظهر؛ فلا يستطيع تحريكهما، وذلك لمدة يومين كاملين (ولا يهم إذا استطاع أن يأكل على هذا النحو، أو لم يستطع، وعلى هذه الصورة أيضا يقضى حاجته فى دورة المياه من فتحة بسرواله). أما العزل، فهو الحبس الانفرادى بقيد، أو بدون قيد، لفترة قد تطول أياما، وقد تمتد إلى شهر أو شهرين متتابعين، ولكن دائما فى صمت مطبق، حتى ولو كلف بعمل يدوى لمدة ثمانى ساعات يوميا وهو جالس - لا يتحرك - فى زنزانته، وهى من الأسمنت، غير مطلية الحوائط، كما فى عنابر النوم العادية. والعقاب الأشد: الحبس الانفرادى، مقيد اليدين والذراعين عدة أيام داخل «القفص» كما يسمونه، وهو كشك من الخشب بلا نوافذ، يكاد يصيب بالجنون. وليس نادرا أن تُزهق أرواح بعض المسجونين - وإن كانوا قلائل جدا - أو يزهقونها هم بأنفسهم، للخلاص من هذا النظام المؤلم.

وفى يوليو عام ١٩٩٦، رفع والدا «يوشيمى ساكاموتو» شكوى إلى القضاء، يطلبان من الحكومة تعويضا قدره ما يعادل ٥٥٠ ألف دولار أمريكى، لأن ابنهما الذى عوقب بالسجن بسبب قيادته السيارة وهو مخمور، توفى أثناء تنفيذ العقوبة.

والقانون اليابانى يبيح لسلطة التحقيق مع المشتبه فيهم، اعتقالهم لمدة قد تصل إلى ثلاثة وعشرين يوما. وأثناء هذه الفترة. . . توجه إلى المشتبه فيه الأسئلة، ليجيب عنها كتابة فى العادة. وإذا لم يستجب بسهولة، يعنف بالكلام، أو يُمنع عنه الطعام والماء، أو يُطلب منه الوقوف فى وضع معين لمدة ساعات. . فإذا لم تُفلح معه طريقة من هذه؛ يستخدم العنف؛ وفى ٩٩,٩٪ من الحالات يكون الاعتراف. وأحكام محاكم الدرجة الأولى هى الغالبة التنفيذ،

فالاستئناف لا يقرر إعادة النظر، إلا بمعدل ٢٪ من القضايا فقط، ولذلك.. لا قضايا متراكمة بالسنوات، ولا مط فى الإجراءات، ولا تكدس فى السجون، لأن اختراق - أو مخالفة - القانون فى اليابان أمر مرعب. ومع ذلك.. تشير الإحصاءات إلى أن ٤٥٪، من المسجونين، يعودون إلى ارتكاب جرائم بعد الإفراج عنهم!.

لكن، من المؤكد - من واقع الإحصاءات - أن النظام المتبع داخل السجون اليابانية يخفض من أعداد مرتكبى الجرائم.. فبالمقارنة: لا يوجد فى سجون اليابان تجمهر للمسجونين، أو تذمر، أو إضراب، أو احتكاك بالإدارة، كما يحدث فى بلاد أخرى. وبلغ عدد المسجونين فى الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٥ فقط ٤٦ ألفا، أى بمتوسط ٤٧ لكل مائة ألف مواطن، مقابل ٤١٥ سجينا فى الولايات المتحدة (لكل مائة ألف)، و٧٥ فى ألمانيا[1].

والنصيحة الواجبة بعد ذلك: حذار من مخالفة القانون.. فى اليابان.

فى سويسرا...

جربوا نظام السجون النموذجية. فى مدينة ساليز مائة وعشرون سجينا «نموذجيا»، مع كل منهم مفتاح باب زنزانته، ودراجته، أو الموتوسيكل الخاص به فى الجراج.. كل صباح يخرج واحد منهم يقود سيارة بدون حارس، ويذهب إلى مكتب البريد لإحضار الرسائل. وفى الشتاء يسمح لهم بالانتقال - بلا حراسة - ومعهم زحافاتهم للتزلق فى ساحة النادى المجاورة للسجن، تحت مسئولية رئيس المجموعة، وهو واحد منهم. وفى العودة يصحبهم سكان المدينة فى سياراتهم إلى السجن!. العجيب أن سجينا حكم عليه بالسجن المؤبد، قضى ثمانى سنوات فى أحد السجون العادية، ثم نقل إلى هذا السجن النموذجى. وبعد فترة قصيرة، طلب إعادته إلى السجن الأول، لأنه «لم يتحمل المعيشة فى هذا السجن.. النموذجى»!.

(١) حسب إحصاء عام ١٩٩٣، بلغ عدد الذين تم التحقيق معهم فى الجرائم المختلفة فى الولايات المتحدة نحو عشرة ملايين شخص.

فى الدانمارك...

يسمح السجن النموذجى بإقامة السجينة فى زنزانة واحدة مع سجين تختاره. ويتم التعارف و«الوفاق» بينهما، وبشرط واحد: لا يسمح لها بتغيير مرافقها إلا مرتين فقط، طوال الفترة المحكوم عليها بها. والمساجين «العزاب» مخصص لهم ثمانى حجرات، يستطيع أى منهم اصطحاب «زميلة» ـ أى سجينة ـ فى غرفة منها، ويعلق على الباب لافتة تقول: «الغرفة مشغولة.. رجاء عدم الإزعاج».. والمواليد ترعاهم إدارة السجن.

فى بريطانيا...

السجن النموذجى يضم ملاعب مكشوفة، وأخرى مغطاة لكل الألعاب.. ومتاح للجميع ممارسة الهوايات الفنية، كالرسم والنحت والتصوير، وتعرض الأعمال الفنية فى معرض بالمدينة (ويْلاند). وداخل السجن يتجول الرجال والنساء بحرية، وفى «الزنزانات العائلية» التى يمكن حجزها لبعض الوقت. فى السجن بنك، وكافيتريا، وسوبر ماركت، ولا حراس بالداخل... الأسوار مراقبة فقط بالكاميرات التليفزيونية.

فى اليونان...

أبواب السجن النموذجى مفتوحة. ويتولى المسجونون رعاية قطيع من الأغنام بالمرعى المحيط بالسجن، ولهم ـ إن أرادوا ـ المبيت بجوار الحظائر فى أماكن مجهزة لذلك. وبقية المساجين يتولون زراعة الخضر والفاكهة، والإشراف على المزروعات بالكامل. ويعتمد السجن تماما على إنتاج اللحوم والخضروات والفاكهة من مزارع السجن، ويرسل الفائض إلى السجون الأخرى. وملحق بإدارة السجن مهندس زراعى، وخبير حدائق، لإرشاد المزارعين، أى المساجين. ومسموح لهؤلاء بالخروج إلى المقهى المجاور للسجن، لقضاء بعض الوقت. ولم يقع حادث واحد داخل السجن. ومحاولات الهروب من السجن نادرة... بل إن أحد المسجونين لسنوات طويلة «حزين»، لأنه على وشك الخروج من السجن، لانتهاء فترة العقوبة.

في بلجيكا...

يترك للسجين بالسجن النموذجي حرية إحضار الأثاث الذى يريده، والمفروشات، والستائر، واللوحات التى يعلقها على الحائط، أو التماثيل، ونباتات الزينة، وأقفاص الطيور.. وحرية ارتداء الزى الذى يختاره، وممارسة هواياته الفنية أو الأدبية والرياضية. وتحت تصرف المساجين كابينة تليفون للاتصال بالخارج، وكافيتريا. ويختار «النزلاء» كل يوم قائمة الطعام التى يرغبونها..

فى النهاية تقول التقارير: حوادث الشغب داخل هذه السجون معدومة، والانفعالات الحادة نادرة، ومحاولات الهرب لا تكاد تُذكر، والكل مستريح: السجين، والسجَّان، فلا مجال هنا لترديد القول المأثور: أشد الناس قلقا فى السجن.. السجان..!.

أمير يتمنى أن يُشنق

وبمناسبة الحديث عن السجون والمعتقلات وتنفيذ الأحكام. . ربما يذكر جيل أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين (فترة الحرب العالمية الثانية) بعض ما تعلمناه فى المدارس الابتدائية، يوم أن كان للمدرسة هيبة، وجلال، وطلاوة، وقيمة.

مثلا: كان أستاذ اللغة العربية، الشيخ أحمد ـ رحمه الله، وكل من علم وربَّى ـ أستاذا مربيا، قبل أن يكون معلما، منحه الله بسطة فى العلم والجسم، فكنَّا صغارا نخشى أثر غضبه خشيتنا من الموت، ونحب درسه حبنا للعبادة. وبينما كنا نتحاشى تماما لقاءه فى طرقات المدينة (بنى سويف)، مهابة واحتراما، كنا نحرص كل الحرص على حضور فترة «الهوايات» لمدة ساعة كاملة بالمدرسة، بعد انتهاء حصص الدروس اليومية. . فيعلمنا جماليات الخط العربى، وحلاوة تذوق الشعر، وفن الخطابة، وأحكام التلاوة، وبلاغة التعبير.

وكان بالمدرسة ـ واسمها فاروق الأول الابتدائية ـ تدريب على هوايات أخرى متنوعة مع الأساتذة المتخصصين ـ بالمجان ـ مثل: العلوم، والجغرافيا، والتاريخ، والتصوير، والصحافة، و«شيء» اسمه الموسيقى، والرسم، والفلاحة فى حديقة خاصة بالتلاميذ، غير الحديقة المزهرة التى يطل عليها مكتب الناظر، وغيرها حديقة ثالثة فى الجانب الآخر من المدرسة. أما الألعاب الرياضية، فلها ملاعب كاملة مجهزة لكرة القدم، والسلة، والطائرة، وملعب مغطى (جمينيزيوم) به كل أجهزة ألعاب الجمباز، ومسرح كامل، يسع أكثر من

خمسمائة متفرج لهواة التمثيل، بستائره من القطيفة القرمزية، الموشاة بالزخارف المذهبة، وعليه يقام الحفل السنوى للمدرسة. أما قاعة السينما، فهى مثل أى دار عرض سينمائى، بمقاعدها المدرجة، وشاشتها الكبيرة، تنظِّم فيها للتلاميذ عروض تثقيفية وتعليمية وفنية - كلها بالمجان - يتولى الشرح عليها أساتذة المدرسة المتخصصون، كل فى مادته، وذلك فى الفسحة الكبيرة بعد تناول الغداء فى مطعم المدرسة (وجبة كاملة) - بخلاف وجبة الإفطار فى الفسحة الصغيرة - وهو مطعم يسع كل التلاميذ معا، وعددهم نحو السبعمائة. كم كانت المصروفات مقابل ذلك كله؟ عشرين جنيها!.

وما علاقة ذلك بالسجون والشنق والخنق؟.

على يد الأستاذ الشيخ أحمد - رحمه الله - تعلَّمنا، وحفظنا وتذوقنا حلاوة أول قصيدة من الشعر، فى بداية المرحلة الابتدائية!. ولم تمح الأيام والسنين من الذاكرة كثيرا من أبياتها، ولا مشهد الأستاذ الشيخ وهو يشرح المعنى، ويفسر الكلمات، ويتغنى بالأبيات ويبهرنا - نحن الصغار - بأشياء نسمعها ونتأثر بها لأول مرة: كالبيت، والشطرة، والقافية، وموسيقى النظم، وإبداع المعانى والصور.. ثم نردد ما يقول، ونقلد ما يُلقى، ونعود فرحين إلى البيت «نختال» أمام الأهل بإنشاد القصيدة، وتقليد المعلم المربى فى الإلقاء، والوقفات والإشارات.. فلما كبرنا فى السن، وكبرت معه معارفنا، علمنا أن هذه القصيدة بعينها يعتبرها أساتذة الأدب والشعر «من أعظم المراثى، ولم يسمع بمثلها»، ولها قصة.

كانت المنازعات والحروب بين الملوك والأمراء والولاة فى أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة شرقا وغربا، لا تكاد تخمد أو تهدأ - للأسف - حتى بين أبناء الأسرة الواحدة الحاكمة، والأسباب كثيرة.. لا مجال هنا للحديث عنها، إلا أن عواقبها دائما كانت سيئة مهينة.

فى عام ٢٣٨هـ، كانت الحرب قائمة فى المشرق الإسلامى بين الأمير عز

الدولة، وابن عمه الأمير عضد الدولة. وكان لعز الدولة وزير يدعى: أبو طاهر محمد بن بقية، فظفر عضد الدولة بهذا الوزير، فألقاه إلى الأفيال، فقتلته. ولم يكتف بذلك... بل صلبه، إمعانا فى التشفى، (وهذا كله ليس من الإسلام فى شىء، بل إنه ينهى عنه، ويحرمه). وكان عُمر الوزير حينذاك بضعًا وخمسين سنة.

حزن عليه صديقه أبو الحسن الأنبارى فى بغداد، ونظم هذه القصيدة العجيبة، التى قلب بها مقصد عضد الدولة رأساً على عَقب، ونقل مشهد الوزير المطلوب من بشاعة الهزيمة والقتل والإهانة بعد الموت، إلى مشهد مبهر من البطولة والكبرياء والكرم والسمو.. حتى أن عضد الدولة ـ الذى قتله وصلبه ـ لما سمعها؛ تمنى «أن لو كان هو المصلوب، وقيلت فيه تلك القصيدة».. يقول الأنبارى مخاطبا أبا طاهر:

علو فى الحياة وفى المماتِ؟ ... لحق تلك إحدى المعجزاتِ

كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات[1]

كأنك واقف فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء ... كمدهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يَضُم علاك من بعد الوفاة

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات[2]

لعظَمك فى النفوس تَبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثِقات[3]

وتوقَد حولك النيران ليلا ... كذلك كنت أيام الحياة

وتلك قضية فيها تأسٍّ ... تباعد عنك تعبير العِداة[4]

(١) نداك: عطائك وكرمك ـ الصلات: الوصل بالجود والسخاء.

(٢) أصاروا: جعلوا ـ السافِيات: الريح التى تسفى التراب، وتذروه، أى: تنشره.

(٣) يشير إلى الحراس من جنود عضد الدولة الذين يمنعون أحدا من إنزاله أو اختطاف جثمانه.

(٤) تأسى: تعزى ومواساة ـ العداة: الأعداء.

ركبتَ مطية من قبل زيد — علاها فى السنين الماضيات[1]
ولم أر قبل جذْعك قَط جذعا — تمكَّن من عناق المُكْرَمات[2]
أسأت إلى النوائب، فاستثارت — فأنت قتيلُ ثأر النائبات[3]
وكنتَ تُجيرنا من صرْف دهر — فعاد مطالبا لك بالتِّرات
وصَيَّر دهرك الإحسان فيه — إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعدا فلما — مضيتَ تفرقوا بالمحسنات
عليك باطن لك فى فؤادى — يجفَّف بالدموع الجاريات[4]
ولو أنى قَدرتِ على قيام — بفرضك والحقوق الواجبات:
ملأتُ الأرض من نظم القوافى — ونُحْت بها خلاف النائحات
ولكنى أُصَبِّر عنك نفسى — مخافة .أن أُعَد من الجناة
ومالك تُربة. فأقول تُسقَى — لأنك نَصْب هَطْل الهاطلات[5]
عليك تحية الرحمن تَتْرى — برحَمَات غَوادٍ رائحات[6]

(١) مطية: دابة للركوب.

(٢) جعل الشاعر عمود الصلب كالمكرمات (بفتح الراء). أى أفضل أنواع الخيل، فهو جالس على أعناقها، أو هو يعانقها بكل جسمه.

(٣) إنه يبرئ القتيل من كل عيب، أو عمل مشين، لأنه كان يكافح المصائب والشرور، فثارت هذه لنفسها فقتلته.

(٤) إن الدموع التى تبلل عادة تجفف هنا نزيف القلب وتبرد حرقته.

(٥) تربة: قبر - تسقى: أى بالدموع - نصب: قائم منتصب - هطل الهاطلات: معرض لغسيل الأمطار.

(٦) تترى: (بفتح الراء) أى تتنزل متتابعة مستمرة - غداة: آتية.

صاحبة العيون الجريئة

رحم الله أخى فى العروبة والوطن (عبد الحليم حافظ)، وغفر لنا وله. فقد أوْقعنى فى حيرة حين استمعت إلى صوته الشجى الرخيم وهو ينادى أو يناجى «أبو عيون جريئة». وهو بالطبع يقصد «أم عيون جريئة»، وإلا فالمسألة لا تصح ولا تليق..!.

وسبب الحَيرة، أننى توقفت عند وصف العين بأنها «جريئة».. فالجرأة (بضم الجيم) هى الإقدام، والشجاعة الزائدة.. فكيف تُقدم العين وتتشجع؟، ثم إن صح مجازا أو تجاوزا - لأن الشجاعة سلوك، أو صفة لإرادة وعزم - فهل تدخل فى دائرة الحُسن وجمال العين؟. إن العين - فى الأنثى - قد يقال لها: جميلة، أو ساحرة (مبالغة فى الجمال الفاتن)، أو جذابة (تعبيرا عن تأثيرها فى النفس، ولفْت النظر)، أو يقال إنها: كحيلة، أو حوراء(شديدة البياض والسواد)، أو ناعسة (فيها حياء ودلال)، والحياء يبرز جمال العين والوجه، وهو من ألزم صفات المرأة، على عكس الجرأة التى هى صنو «البجاحة».. ويقال عين قَريرة (أى: راضية، هانئة، سعيدة)، وعين دامعة، أو دامية، أو متّقدة (وفى القاموس: دموع السرور باردة، ودموع الحزن حارة...)[1].. وعين منكسرة (إما حياءً، وإما خجلا).. وعين براقة.. وعين ساهرة، وأخرى نائمة.. وعين تنظر شذراً (أى النظر بمؤخر العين، تعبيرا عن الإعراض، أو البغض، أو الاستياء).. كقول النابغة يصف عيونا:

ينظُرن شذراً إلى من جاء من عرض ... بأوجه منكرات الرِّق أحرار

---

(١) وبعد ألف سنة.. يؤكد لنا علماء اليوم الأجلاء أن عناصر ومكونات دموع الفرح تختلف بعض الشىء عن مكونات وعناصر دموع الحزن!.

أما «العيون الجريئة».. هل تعنى مخيفة؟ سخيفة؟ خبيثة؟ متبجحة؟.. إنه أمر محير.. وهل نقول أيضا: أنف شجاع، أو متهور؟.. لندَع ما يحير إلى ما يُدهش..

هذه سيدة جريئة.. حقا جريئة.. ليست بالعيون، أو الحواجب، أو الشفاة.. وإنما بالإرادة، والعزيمة، والفعل.. وباسم الحب.. نعم.. والحب - كما قالوا - يصنع معجزات.. لكن ما صنعته «نادين فوجور»، ليس معجزة، وإنما مغامرة جريئة تفوق خيال الحكايات، والأغانى، والمسلسلات. إنها أحبت، فتزوجت، فسعدت، فأنجبت. وعاشت سنوات قلائل فى نشوة حب الزوج «ميشيل»، الذى غمر قلبها وعقلها بالعاطفة الملتهبة، وملأ جيوبها بالنقود.. المسروقة..

قديما - كما فى الحكايات - كان العاشق الولهان يقف ليلا تحت نافذة الحبيبة الأثيرة حبيسة البيت، يغنى لها، ويدندن حتى تخرج إليه، فيخطفها، وينطلق بها فوق حصان أبيض، لينعما سويا بالحب والعيش فى هناء.. فإن كان بدويا، وقف على باب خيمتها فى الصحراء الجرداء، وصاح ينشدها قصيدة عصماء، فإما أن تخرج ويظفر بها، أو يفاجأ بخروج أبيها ليقول له ثائرا زاجرا:

«جئت تطلب نارا، أم جئت تشعل الخيمة نارا؟!».

اليوم - وكما حدث - الزوجة العاشقة هى التى «تخطف» زوجها حبيس السجن، تحلِّق فوقه بطائرة هيليكوبتر، فيصعد إليها، فتنتشله، وتنطلق به فى صحوة النهار، وعلى رؤوس الأشهاد.. والحراس..

كيف؟.

إن «ميشيل» محكوم عليه بالسجن لسنوات طويلة فى عدة قضايا سرقة، وبالإكراه. وهو إذ حاول الهروب من السجن أكثر من مرة، فقد وُضع تحت رقابة مشددة، وينقل باستمرار من سجن عتيد إلى سجن حصين، حتى لا

يَهْرب، أو يُهَرَّب. ولما كان فى غرامه وسجنه وهروبه ما يثير وما يستحق أن يُروى - رغم إجرامه، ورغم «تجريم» مغامرة زوجته - فقد أصدرت «نادين» كتابا بعنوان «ابنة الهواء»، لقى رواجا لسببين رئيسيين: لأن أساس المغامرة هو «عاطفة الحب»، وليس أسلوب الاختطاف ذاته، وإن كان فيه جرأة وغرابة، خاصة من سيدة. والسبب الثانى: أن الناس - عادة - لا يتصورون أن «الحب» الحقيقى الخالص يدخل فى دائرة أو محيط الجريمة والمجرمين، فيكون من العسير على البعض أن يفصل بين الجانب الإنسانى الفطرى، والسلوك المرذول المكتَسب، وأنهم يأخذون المذنب ومن حوله بالتجريم.

هذه بعض جوانب المغامرة الجريئة فى سطور، كما روتها نادين فوجور..

- كيف المفر؟..

هكذا سألنى زوجى بغيظ وحسرة عند زيارته بالسجن، بعد أن أُخبِرتُ أنه لا يستقر فترة طويلة فى مكان واحد، لنقله بانتظام من سجن إلى آخر. من هنا كانت فكرة استخدام الهواء الجوى، بدلا من الاختطاف الأرضى.

ذات يوم.. وقع بصرى على عنوان أصفر اللون فى أسفل مجلة أسبوعية، مكتوب فيه بخط كبير واضح: «أسرع لكى تصبح طيار هيليكوبتر». توقفت نظرتى طويلا عند هذا الإعلان، قرأتُه عشرات المرات، وقفزت إلى ذهنى فكرة: لماذا لا تكون هذه هى الوسيلة التى يهرب بها ميشيل؟ لماذا لا أتدرب أنا، لأتولى قيادة الطائرة بنفسى؟..

وداخلنى الخوف: كيف أجرؤ على قيادة شىء يطير، وطائرة مروحية (هيليكوبتر)، وأنا التى لا أستطيع تغيير عجلة سيارة؟!، أنا التى أُصاب بالدوار إذا استخدمتُ المصعد إلى الأدوار العالية؟!. إنها فكرة طائشة صعبة التحقيق.. ومع ذلك.. ظلت تطاردنى، وتشغل ذهنى ليل نهار، حتى أمسكتُ بالتليفون، واتصلتُ بمطار الطائرات المروحية خارج العاصمة باريس. بعد يومين استقبلنى بالمطار أحد الطيارين. إنه فى نحو الأربعين، قوى البنية،

يتكلم بثقة الخبير بمهنته، وله ابتسامة توحى بالاطمئنان، تدل على حسن تعامله المستمر مع الناس. طرحتُ عليه بعض الأسئلة، فأجاب عنها ببشاشة.

ولكن من خلال حديثه وإيقاع صوته، أحسست أنه فى قرارة نفسه يظن أننى غير جادة فى رغبتى أن أتعلم وأتدرب. أفهمنى أنه لكى أصبح ملّاحة جوية أقود طائرة هيليكوبتر، لابد من إحضار أربع صور شخصية، وصحيفة الحالة المدنية (خالية من أحكام جنائية سابقة)، وإجراء كشف طبى دقيق، والتدريب الجوى لمدة أربعين ساعة على الأقل، والنجاح فى امتحان تحريرى لبعض المواد، ثم نصحنى فى النهاية بقراءة مجموعة من الكتب، تتناول موضوعات عن الطيران والملاحة الجوية، فإذا راقت لى فكرة هذه المغامرة بقيادة الهيليكوبتر، فإنه ينتظر عودتى إليه بعد اتخاذ القرار.

فى مساء اليوم نفسه، اشتريت مجموعة الكتب التى دون لى قائمة بأسمائها. سهرت معها معظم الليل. وفى الصباح التالى بدأت فى إعداد الأوراق الرسمية المطلوبة للالتحاق بالتدريب. وبعد يومين اثنين أخذت طريقى مرة أخرى إلى المطار. كان القائد الذى قابلته فى المرة السابقة غائبا. قابلنى ملّاح هيليكوبتر آخر، أصغر منه سنا. حاولت أن أغير قليلا من شخصيتى وسلوكى: أن أبدو فى مظهر الفتاة المرفهة المدللة الأنيقة التى لا تهتم بالمال، المتحررة من الكبت والقيود النفسية، والتى تستمتع بكل ساعات حياتها.. وقلت له:

- لا يجب الاتصال بى فى البيت، لأن والداى سينزعجان كثيرا - رغم حبهما الشديد لى، وتدليلهما - إذا علما أننى سأغامر بالدخول فى هذه التجربة.

ابتسم الطيار الشاب باقتضاب، ثم سألنى عما إذا كنت مارست القيادة من قبل..

ـ لا . .

ـ مطلقا؟ . .

ـ مطلقا.

ـ ولا طائرة أخرى؟.

ـ أبدا. . إننى مبتدئة. ولكن، لماذا؟ هل هذا يعنى مشكلة؟.

ـ لا . . لكنك تدهشينني. . أولا: لأن الذين يبدأون معنا يكون معهم عادة شهادة ممارسة الطيران. وثانيا: لأنه نادرا ما تأتينا فتاة أو سيدة تريد التدريب على قيادة هيليكوبتر. .

أجبته فى لهجة جادة، وبكل ثقة:

ـ أنا شخصيا لم أفكر فى ذلك من قبل. . إننى فجأة سألت نفسى: إذا كنت أُجيد ركوب الخيل، وقيادة اليخت (وهذا طبعا غير صحيح) والسيارة والدراجة البخارية (الموتوسيكل)، فلماذا لا تكون أيضا الهيليكوبتر، وأزور مناطق عديدة، فأستمتع بالمشاهدة من الفضاء؟.

هز الرجل كتفيه إعجابا، أو شكا، أو دهشة، لست أدرى. . ثم طلب منى أن أصحبه، فمررنا بعدد من المكاتب، وطرقات أفضت بنا فى النهاية إلى عنبر (حظيرة) يعمل بها ميكانيكيان، ثم خرجنا إلى ممر تربض فى طرفه طائرة هيليكوبتر صغيرة بيضاء اللون، وطائرة أخرى مختلفة الشكل قليلا خلفه.

ـ سأريك الآن «الُويت ـ ٢»، و «بِل ـ ٤٧».

اقترب من الطائرة وأنا أتبعه. درنا حولها. إنها أول مرة أرى فيها هيليكوبتر عن قرب. وأخذ هو يشرح لى الأجزاء الرئيسية: جسمها، المحرك، سارية المروحة العلوية، الذيل بأجزائه، الأسلاك. . . . ثم طلب منى الصعود إلى مقصورة القيادة، قائلا:

ـ إنه وقت نموذجى للاحتفال باقتحامك الفضاء. . انظرى إلى السماء

الصحو الصافية.. (لكننى فجأة شعرت بالفزع، وتخلت عنى ثقتى بنفسى).

- ولكن.. لم أستعد نفسيا لذلك.. كما أننى أخشى أن أتأخر عن ارتباطاتى.

- لا تخافى، فلن نستغرق أكثر من عشر دقائق.

- وأظن أن النقود التى معى الآن لا تكفى..

- لا ضير.. ادفعى فى المرة القادمة. هيا.. هيا اربطى حزام المقعد من فضلك.

تناولت الأربطة بحذر، ولم أُحكم - لجهلى - ربط حزام الوسط، ثم ناولنى غطاء الرأس، وبه سماعة صوتية، وتكلم لكى أسمع من جهاز اللاسلكى المتصل بسمَّاعة الخوذة:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة.. هل تسمعيننى جيدا؟.

هززت رأسى، علامة على الإيجاب.

- إذنْ سوف نُقْلِع..

بمجرد أن ارتفعت الهيليكوبتر عن أرض المطار، شعرت أن جسمى يهتز، وتكاد قدماى تنفصلان عنى. وتحولت المناظر من حولى إلى صور مُبهمة، وأنا أتذوق لأول مرة (طعم) المغامرة، أو طعم الهواء الذى سوف أخترقه.

فى زيارتى التالية لميشيل فى السجن، لم يصدق، أو لعله لم يفهم ما أخبرته به عن التدريب... فمن خلال الحاجز الزجاجى الفاصل بيننا، سألنى بالإشارة، بعد أن ظل صامتا متحيرا لبضع ثوان:

- من ذا الذى سيكون ملاح هيليكوبتر؟.

أشرت إليه، وأنا أضرب يدى على صدرى، وأهمس بشفتى: أنا..

انتظمت فى التدريب ليومين كل أسبوع. تآلفتُ شيئا فشيئا مع الطائرة. لم

تعد لوحة القيادة بمفاتيحها ومؤشراتها وأجهزتها سرا مرعبا كما كانت فى البداية. عرفت كل شىء بالتفصيل. إنها شديدة الحساسية، والتعامل معها يحتاج إلى مجرد اللمس بوعى ودقة، وإلا حدثت مشاكل، وربما كارثة.

لم يكن التدريب سهلا فى مراحلة الأولى. أعصابى دائما مشدودة، والرعب يغْمرنى وأنا أنظر إلى المؤشرات والأرقام العديدة التى تتحرك أمامى؛ فأفقد التوازن الصحيح.. وياللهول عند الإقلاع وعند الهبوط. وبعد الهبوط دائما كنت أشعر بالغثيان، وأننى على وشك التقيؤ.. لكننى فى كل تدريب جديد، حرصت على أن أكون واعية بالأخطاء السابقة، وأصححها فى هذه المرة. وتنشأ مشاكل جديدة، وأخطاء جديدة، فأعود إلى البيت، وأخلو إلى نفسى بعد نوم طفلاى، وأنفرد بكتاب «المرشد التعليمى للطيار الخاص».

بعد الانتهاء من نحو خمس عشرة «حصة» تدريبية، أخبرتُ ميشيل فى زيارة أننى الآن أقترب من إجادة القيادة، لكن «مهمتى» التى من أجلها اقتحمت هذا المجال الغريب، تتطلب، ليس فقط الإجادة، وإنما أكثر من ذلك.. الامتياز المتكامل والمتفوق، تحسبا لمواجهة أية ظروف طارئة فى فناء السجن عند الهبوط، ثم الإقلاع، أو أثناء الهرب بالطائرة ومعى ميشيل.

عند مرحلة معينة من التدريب، لابد من وقفة للمتدرب مع نفسه، ليسألها قبل أن يتخذ قراره النهائى الحاسم: هل يواصل حتى النهاية، أم يكتفى ويعود بسلام من حيث أتى؟... إننى أمارس شئون حياتى على نحو هادئ جيد، وأؤدى واجباتى كأم أفضل ما يجب أن تكون. وزياراتى لزوجى المحبوب منتظمة، وبلا متاعب.. ثم هذه المغامرة التدريبية بالطائرة المروحية، تمضى سلسة بلا مشاكل، فلماذا أتوقف؟ وكيف أتراجع عن تحقيق الهدف، رغم مخاطره؟!.

بعد أن حلقنا فوق المطار أكثر من خمسين مرة، قال لى مدربى الشاب، بعد أن توقفت دعامات الطائرة فوق حشائش أرضية المهبط:

ـ الآن أصبح الأمر كله فى يدك.. سأتركك فى الطائرة، لتؤدى أنت وحدك دورة كاملة فوق المطار، ثم تهبطى بسلام..

قبل أن أُجيب على هذا الاقتراح المهيب المفاجئ، فتح الباب جهة اليسار، وقبْل أن يقفز إلى الأرض، وضع مكانه على مقعده بطارية كبيرة الحجم، ليساعد ثقلها على حفظ التوازن مع وزن جسمى الخفيف. وانصرف قبل أن يسمع رأيى بالقبول أو الرفض، وجرى بعيدا عن مجال دوران أذرع المروحة.. إن المحرك مازال يعمل، وصوته الصاخب يهز جسم الطائرة. بعد لحظات، احتكَّت الدعامات السفلية بحشائش الأرضية، إيذانا بالإقلاع.

تسبب اضطرابى فى عدم التحكم جيدا فى التشغيل، فأقلعت الطائرة تقريبا من تلقاء نفسها، إذ كان دورى ثانويا، مكتفية بالخطوات العامة.. التحويل للأمام، نقل السرعة، الوضع للارتفاع.. قفزت طائرتى الـ «بل» وكأنها تنفر غاضبة معترضة. كان لابد من إحكام السيطرة فى المناورة بالصعود، لكن يبدو أن الطائرة مقتنعة بأنها كفرس من غير فارس.. سرعة الارتفاع أربعون عقدة؟.. ثم ها هى تقفز إلى ستين.. الدوران الأول.. الوضع منبسط.. ثم الدوران الثانى.. الارتفاع أعلى كثيرا مما يجب، والسرعة أكبر كثيرا مما ينبغى.. وحدثَتْنى نفسى: مَن منا نحن الاثنين، الهيليكوبتر أم أنا، الذى يتولى المناورة والتشغيل.. ثم راودنى خاطر: ماذا لو اتجهت الآن إلى سجن «سانتيه» الحصين العتيد (حيث يوجد ميشيل)؟.

وأخيرا، لمستُ بالطائرة الأرض. وسرعان ما أقبل مدربى يقفز إلى الطائرة، ثم يفتح الباب وهو يصرخ بصوت يعلو على صوت المحرك:

ـ برافو.. فى القريب العاجل ستصبحين ملاحة رائعة.

بعد ذلك كان التدريب الميكانيكى، لمعرفة عمل وصيانة كل الأجزاء الآلية.. الكل يرحب بى، ويعلمنى بإتقان، وبروح طيبة، عدا رئيس الشركة، الذى يعتقد أن وجود امرأة على مقعد قيادة هيليكوبتر تماما كوجود بعوضة داخل علبة كافيار.

ثم دخلتُ فى المرحلة التالية: التعرف على الأماكن من الجو. فى عصر يوم من التدريب، تفحصت جيدا المبانى المحيطة بسجن «سانتيه». إنها تتكون من خمس أو ست وحدات منفصلة، بارتفاع عشرة طوابق لكل منها. ثلاثة منها متوازية مع بناية السجن، ولا أهمية لها بالنسبة لى. اقتربت من الوحدات الداخلية: إنها عمودية، وتبعد نحو خمسين مترا عن هدفى. هبطتُ بالطائرة فوق السجن، إلى ارتفاع الدور السادس من المبانى المجاورة، وشاهدت تحتى مباشرة الفناء الداخلى الذى اختاره ميشيل موقعا «لاختطافه».

أمضيت دقائق طويلة، وأنا أرقب جيدا تفاصيل الموقع: البوابات، والأسوار، والحوائط الطوبية ذات اللون الأحمر كالدم، المدخنتين الكبيرتين المنتصبتين نحو السماء كالمدفعين، وأبراج المراقبة. تأملت ذلك فى حرص شديد على تسجيل الصور وتفاصيلها فى الذاكرة، حتى تصبح جزءا لا ينفصل عن مخيلتى. بعد عدة دورات هادئة فوق الموقع، وفى ارتفاعات مختلفة، شعرت أننى أنجزت مهمة مرهقة صعبة.

انتقل التدريب بعد ذلك إلى الطائرة «ألُويت ـ ٢»، ومحركها التوربينى أقوى وأنسب للهدف الذى أسعى إليه، وقيادتها أكثر نعومة وسلاسة من الطائرة الأولى. وبالضرورة.. تكاليف التدريب عليها تزيد كثيرا.

إن ساعة التدريب الواحدة تتكلف ١٢٠٠ فرنك (نحو ٧٥٠ج.م)، فكان لا بديل عن بيع بضائع متجرى «١٠٠٠ صنف» بأى ثمن. بعضها بيع جملة لمخزن فى باريس، والباقى لمتجر فى «سوق الكانتو» المعروف بأسعاره الرخيصة. وذهبتْ حصيلة البيع كلها إلى تغطية نفقات التدريب. لا ضير.. فقد أسعدنى الحظ بانتهاء التدريب بعد خمسة أشهر متوالية، ثم انتقلتُ إلى مطار آخر لتحسين القيادة والخبرة. وبعد مضى عام، حصلت على شهادة (رخصة) قيادة طائرة هيليكوبتر.

فى يوليو ١٩٨٥، بعد عديد من التنقلات بين السجون، عاد ميشيل إلى

«سانتيه». بعد أربعة أشهر من الزيارات المتتابعة، انتهينا - سرا - إلى وضع خطة الهروب بالتفصيل والمراجعة، وحفظناها جيدا.

وعلى الرغم من حرصى الشديد على تهريب زوجى بمفردى، إلا أننا معا وجدنا من الضرورة الاستعانة بشخص ثالث: فإننى سأكون مشغولة اليدين والعينين والقدمين فى قيادة الطائرة، فيكون من المستحيل أن أُدلى له الحبل المزدوج، الذى سيصعد بسرعة عليه (كالسلم)، ويدلف إلى داخل الطائرة. اقترح ميشيل بعض الأسماء الصديقة، ولكن لكل منهم مشكلته... فكان لا مفر من الانتظار طوال الشتاء، ثم الربيع، حتى جاء أخيرا صديقه «دانيل».

كانت خطة ميشيل بسيطة للغاية، على الأقل فوق الورق: تقتضى أن يتم الهرب فى ساعة الفسحة، بين ٩,٤٥، و١٠,٤٥ صباحا، فى فناء السجن، بإدلاء أداة الصعود، من الطائرة الهيليكوبتر. وفناء الفسحة يقع بين مبنى الجناح الأول والثالث، المتصلين معا من أعلى بجسر (كوبرى). وكان من المتفق عليه أن يتسلق إلى سطح المبنى المائل المغطى بالقرميد الأحمر، فيتلقف الحبل السلم المتدلى الذى يصعد به إلى الطائرة.

أخطر مراحل الخطة تكمن فى المنطقة التى سيتسلقها من الجسر إلى السطح، إذ ربما يشاهده جندى الحراسة الواقف فى برج المراقبة. من باب الحيطة سنلقى إليه من الطائرة أدوات تساعده على الانتقال السريع عبر الواجهة من نافذة حديدية من نوافذ الزنزانات إلى نافذة: حبل سميك ينتهى بخطاف يتشبث بإحكام فى سياج النافذة، وعصا صيد متداخلة الأجزاء، تنفرد إلى مترين ونصف، لاستخدامها فى رفع الحبل عاليا بطول المسافة بين الطوابق. المهم، العمل بسرعة فائقة، إذ بالرغم من اختيارنا لزاوية بين المبنيين، بعيدة عن الرؤية المباشرة من الداخل نسبيا، إلا أن اثنين على الأقل من الحراس الأربعة بالأبراج سيشاهدان اقتراب الهيليكوبتر.

اتفقنا على أن تكون المدخنة الحديدية البيضاء البارزة من أعلى السطح، هى نقطة اللقاء، لكننى خشيت على ميشيل:

ـ إن السطح مغطى بطبقة من قطع الزجاج المدببة الحادة والخطرة.

ـ توجد دعامة معدنية، سأمشى بحرص فوقها.

ـ وإذا انزلقت؟.

ـ سأسقط إلى الأرض.. ثم نظر إلىّ مبتسما، وقال: لا تخافى، فلن أسقط.

قضيت أياما طويلة أستكشف وحدى معالم المنطقة المحيطة بالسجن، سيرا على الأقدام، وأمضيت ساعات لعدة أيام فى المدينة الجامعية القريبة، التى قررت أن أهبط فيها، ومعى ميشيل. وبينما كنت أفحص حديقة المدينة الجامعية وما حولها، اكتشفتُ معبرا ضيقا يُفضى إلى الطريق الدائرى السريع. مشيت فيه أستطلعه، فوجدته يؤدى إلى طريق يعود إلى باريس، أو الاختفاء فى الضواحى. فى جانب منه يمكن وضع سيارة، وبعد مسافة غير بعيدة.. سيارة أخرى للانتقال من الأولى إلى الثانية، للتشويش على المطاردين، وبعد ذلك تصير الأمور إلى الحظ الحسن، أو.....

عندما اقترب موعد التنفيذ ـ بعد فترة انطويت فيها على نفسى ـ قررت أن أصحب معى «دانيل»، ليشاهد مثلى من أعلى المواقع، ويرصدها جيدا عن قرب.

ـ انظر جيدا إلى هذا الرافع (الونش) البرتقالى اللون، وأيضا تلك المدخنة الحديدية البيضاء. إنها معلَمنا المتفق عليه.

ـ يجب أن ننفذ الخطة يوم أحد.. ففى هذا اليوم تقل الحركة، ويكون حراس الأبراج أقل تحفزا.

ـ وأقل عددا....

وتم الاتفاق على يوم التنفيذ: ١١ مايو، ثم تأجل اضطرارا إلى يوم ٢٦ مايو ١٩٨٦. كان ميشيل مستعدا ومتهيئا.. فهو مواظب على تدريبات رياضية منذ أسابيع، لإعداد جسمه، وأعاد مرارا التمرين على الحركات والأوضاع التى

سيمارسها يوم الصفر. وفى رسالة تلقيتها منه بأسلوب كله تورية لا يفهمها غيرى، أشار إلى شىء لم نضعه فى الخطة، ولم يسبق لنا الكلام عنه: الأسلحة. إنه يقترح أسلحة خفيفة، لكننى رفضت - فى البداية - الفكرة من أساسها.

بعد مناقشة طويلة، بالإشارة والتعبير بالأيدى والشفاة (مثل البانتوميم) أثناء الزيارات بالسجن، اتفقنا على أن يكون بالهيليكوبتر - للطوارئ - مدفع صغير رشاش، وفى الحقيبة التى ستُلقى إليه فى الفناء وبها الحبال والأدوات الأساسية البسيطة، مسدس صغير.

وبقِيتْ مسألة: كيف يعرف الطرفان (نادين وميشيل) أن كلا منهما بدأ يتخذ موقعه، وشرع فى التنفيذ فى اللحظة المتفق عليها؟، بمعنى: كيف يعرف ميشيل أن زوجته بدأت تنفيذ الخطة فى الموعد المحدد، وهى فى طريقها إليه، وكيف تتعرف نادين - الزوجة - على ميشيل من بين الموجودين فى الفناء بالسجن وهى فى الجو، وأنه حاضر بالفعل، وليس غائبا لسبب ما؟.

تطلب ذلك ثلاثة ترتيبات: أولا، زيارة ميشيل بالسجن يوم الجمعة السابق مباشرة على تنفيذ الخطة، لأن وجوده بالسجن فى هذا اليوم معناه أنه لن يُرَحَّل إلى سجن آخر - إن تقرر ذلك - إلا بعد يومى العطلة، أى بعد يوم الأحد (يوم التنفيذ). ثانيا: أن يرتدى ميشيل صباح ذلك اليوم للخروج فى فترة الرياضة الصباحية زيا مميزا (أحمر مقلم بأزرق، وشرابا مميزا أيضا). ثالثا: الاستعانة «بسنِّيد»، أى شخص مساعد تم اختياره لمهمته كالآتى: أن يقف فى شرفة صديقه بالدور السادس بالعمارة المواجهة لفناء السجن، وعندما يشاهد ميشيل بزيه المميز فى الفناء، يتصل فورا بنادين تليفونيا بالمطار، ويبلغها «بكلمة السر» أى الرمز المتفق عليه، فتقلع بالطائرة ومعها دانيل، وبعدها يعطى «السنيد» إشارة بمنديل أحمر اللون، يفهم منه ميشيل أن «الموكب» قد تحرك.

تقول:

وجاء يوم التنفيذ: ٢٦ مايو..

ارتعاشة الرهبة فى الصباح الباكر، ونشوة تخيل الفوز، وحلاوته، ورعْدة الخوف من الفشل وعواقبه. أعددت جيدا الحقائب المطلوبة، وتحت زى ملاح الطائرة لبست رداء نسائيا وردى اللون، وأنا أرتجف قليلا من الخوف وعدم التركيز. وفى الحمام، بللت شعر رأسى، وجمعته بعناية ملفوفا تحت غطاء الرأس (بيريه الطيار)، ولم أضع مساحيق زينة (ماكياج)، فبدوت كأننى رجل، وهذا هو المطلوب. فى السابعة تماما، دق جرس الباب. إنه دانيل:

ـ جاهزة؟.

ـ هيا بنا..

توجهنا أولا إلى المدينة الجامعية، للتأكد من أن السيارة التى وضعناها بالقرب منها بالأمس مازالت فى مكانها. قطعنا الطريق فى صمت.. نظراتنا معلقة بالمسار، وأفكارنا لا تكف عن الحوار، وكلها عندى تدور حول الهيليكوبتر، والرداء الأحمر المخطط، وميشيل.

انعطفنا بالسيارة للدخول فى الطريق السريع الغربى. وطوال المسافة من البيت إلى المطار، لم نتبادل سوى بضع كلمات. من المؤكد أن دانيل يحسب الدقائق، وهو يدرك تماما أننى أعد الثوانى..

عندما خرجت من نفق «سان كلو» طالعتنا السماء بزرقة جميلة، وصفاء رائع. إنه فأل حسن، ولكن على أرضية الطريق تبدو بوضوح بقع داكنة. قلت لدانيل:

ـ هل تعرف أن السماء فى الربيع أقل صفاءً منها فى الشتاء؟.

لم يجب .. فقلت:

ـ بسبب غبار التلوث..

قاطعنى قائلا فى حزم، دون أن يلتفت نحوى:

ـ أسرعى. الوقت يجرى..

عندما وصلنا إلى بوابة المطار، كانت الساعة العاشرة تماما. نزلتُ مسرعة من السيارة، وقلبى يكاد يقفز إلى حلقومى، وهو يرقص من الفرحة. لا أستقر على حال، أو فى مكان. أسرعت إلى مقصورة (كابينة) التليفون. انتظرت فى لهفة.. عشر ثوان، عشرون، ثلاثون ثانية.. دق الجرس. التقطت السماعة. إنه هو... المساعد المراقب (الناضورجى) بالطابق السادس:

ـ ألو؟

ـ إنه هناك.

ـ ونحن هنا أيضا. إننا متأخرون خمس دقائق، ولكن كل شىء سيمضى بسهولة، ثم خاطبت دانيل:

ـ هيا سريعا إلى المرْبض.

ـ لكننى لا أرى الألويت (الهيليكوبتر).

تلفتُّ أبحث بنظرات مضطربة. لا أراها..

أحسست أن العرق يسيل بغزارة بطول ظهرى. جريت.. قابلت طياراً شابا، سبق أن تعارفنا. تصنعت الهدوء والسيطرة على مشاعرى القلقة.. وأنا أسأله:

ـ هل المدير فى مكتبه؟

ـ لم يصل بعد..

ـ هذا محير.. فالمفروض أننى سأطير اليوم.

ـ أنا أعلم ذلك.. فأنت موضوعة على الجدول. وإذا أردت، يمكنك التوجه مباشرة إلى الهيليكو (اختصار هيليكوبتر). إنها فى الحظيرة (الهانجر).

ـ فى الحظيرة؟.. هلا تكرمت بمساعدتى؟..

هز رأسه مبتسما، ثم تقدمنى. فى الحظيرة شاهدت ثلاثة ميكانيكيين يدورون متفحصين حول الطائرات. ساعدونا فى دفع الألويت إلى الخارج.

لمحت دانيل ـ الذى كان منتظرا خارج الحظيرة ـ يقف ضجرا مستاء، وهو يستند إلى سياج حديدى، يخفى عينيه بنظارة كبيرة سوداء. أشار نحوه أحد الرجال الثلاثة قائلا:

ـ هل سيصاحبك هذا؟..

لم أفهم القصد من السؤال المباغت، فأسرعت بتحويل الإجابة إلى دعابة:

ـ إنه يظن أن باقترابه من الشمس بالطيران معى سيتحول إلى اللون البرونزى.

وبإشارة طبيعية.. ناديتُ دانيل، بدون ذكر اسمه، لكى يعاوننا فى دفع الطائرة.. فاقترب من ذيلها، ودفعها بكوعه، وكأنه غير مكترث.. فقال أحد الرجال فى دهشة:

ـ أهو خائف أن يبدد «طاقته»، أم ماذا؟!.

كيف أشرح لهذا الميكانيكى أن دانيل قوى متين، لكنه حريص على ألا يترك أى بصمات على الطائرة؟.. جربوا تشغيل اللاسلكى، لكنه كان معطلا.

حاولت التخلص من الطيار الشاب، بعد أن انتهت خدمته «الأخوية».

ـ إن الوقت يضيع، وساعة طيرانى بدأت بالفعل منذ قليل.

ـ هل ستطيرين فوق باريس؟

ـ نعم.

ـ لأمر ضرورى؟.

ـ أبدا.. أبدا..

حاولت أن أرسم على وجهى ابتسامة، وقد نفد صبرى. إذا لم نقلع خلال خمس دقائق، فالخطة بالقطع ستفشل..

- لا يهم. . لن نطير فوق باريس. .

- إذا ظللت فوق منطقة المطار يكون أفضل لك.

- شكرا. . إلى لقاء قريب.

ما إن أغلقت باب الهيليكو، حتى بدأت فورا فى تشغيلها، ولما تأكدت من انضباط أجزائها، وأجهزتها، واتزانها، تهيأت للإقلاع، مع حرصى الشديد على تعويض الوقت الضائع. بذلت كل جهدى للإقلاع والطيران بما أستطيع من مهارة ورشاقة، فمن أجل هذه «الطلعة» تعلمتُ، وتدربتُ، وتعبت، وأنفقت، وربما تكون هذه آخر مرة أقود فيها طائرة. .

حلقنا فوق الحقول. تبينت بسهولة معالم الطريق السريع. اختلطت أفكارى ومشاعرى عندما جال بخاطرى سؤال مخيف: ماذا لو فشلْت؟. لأول مرة يتملكنى الرعب، لكن النظر إلى نهر السين هدأنى بعض الشىء. . ثم التفكير فى أننى أمضى إلى إنقاذ زوجى. . فبعد ربع ساعة سيكون إلى جوارى، بلا عوائق، ولا حراس، ولا حاجز يفصل بيننا.

اقتربنا من باريس، ها هى تحتنا.

التفتُّ نحو دانيل:

- كم الساعة؟

- تجاوزت العاشرة والنصف.

- حسنا.

حتى الآن، تبدو باريس كلوحة رسام سيريالى، مبهمة المعالم. . ثم شيئا فشيئا أخذتْ تتضح، وتتحد أشكال البنايات ، وألوانها، وكذلك الشوارع. تلفتُّ يمنة ويسرة، أنظر فى كل اتجاه، وأفحص المواقع، ثم توقفت على ارتفاع خمسين مترا من أسطح المبانى. الروافع (الأوناش) منتشرة فى كل مكان: حمراء، وزرقاء، وخضراء.

استدرت نحو دانيل صائحة:

ـ الونش. . دانيل. . ابحث عن الونش.

تحركت بالطائرة فوق البيوت، وضجيجها يصم الأذُن. انتابنى جنون. فى باريس آلاف الأوناش. كيف نميز من بينها الونش الذى نقصده؟. تفرس دانيل من جانبه ووجهه ملتصق بغطاء المقصورة المتكور الشفاف. إنها العاشرة وأربعون دقيقة. بعد خمس دقائق فقط يكون الوقت المتاح قد تبدد. صرخت:

ـ سجن سانتيه. يا إلهى. سانتيه. أهذه محطة قطار أُسْترليتز؟ مستحيل. .

انزلقتْ نظراتى تحت الهيليكو. التفت نحو اليسار، وحملقت مذعورة أتفحص المواقع. وفجأة، لمحته عاليا فوق الأوناش الأخرى بلونه البرتقالى. .

ـ ها هو. .

فى نفس اللحظة لمحه دانيل. اندفعتُ نحوه، وهدير المحرك يَصْخب بشدة. ها هو السجن هناك أمامنا. العاشرة وأربع وأربعون دقيقة. شاهدت كوكبة من رجال الشرطة بزيهم الرسمى. رفع خمسة منهم رؤوسهم، ينظرون نحونا فى دهشة. هذا هو الفناء الرئيسى، الذى طالما عبرتُه مشيا على الأقدام أثناء الزيارات. وأخيرا، الفناء المثلث هدفنا.

هبطتُ إلى ارتفاع خمسة عشر مترا من سطح السجن فى وضع ثابت بالجو. نظرت تحتى، فرأيت على الفور ميشيل بردائه الأحمر المخطط بالأزرق، مميزا عن الآخرين جميعا. وَارَبَ دانيل باب الهيليكو، وألقى بالحقيبة فى الفناء. دار ميشيل حول نفسه، ثم التقطها. وهنا ربت دانيل على كتفى، قائلا:

ـ هيا بنا. .

حركت عجلة القيادة نحو ملليمترين، فسارت آلويث ببطء، محافظة على اتزانها. . وراعيتُ ألا تتوغل بعيدا. . تركنا الفناء خلفنا، فإذا ببرج المراقبة، وفيه الحارس إلى يميننا. أمسك دانيل بالمدفع الرشاش م ـ ١٦. تقدمت ببطء نحو سطح بناية الجناح الثالث، وتجاوزت المدخنة الحديدية البيضاء. إننى أحَرصُ ما أكون على تجنب المخاطر والدخول فى مشاكل. فضلت الدوران

١٨٠ درجة إلى اليمين. أحسست كأننى أتحرك بالطائرة فى مساحة منديل الجيب!.

غمرنى فزع رهيب. ها نحن مرة أخرى فى مواجهة فناء المسجونين المعزولين. المدخنة الصغرى. برج حارس المراقبة الآن على يسارنا. بدا على الرجل الاضطراب. إننا لا نبعد عنه أكثر من عشرين مترا. لاح فى خاطرى أننا ـ بالنسبة له ـ كالفراشة التائهة التى تدور حول مصباح مضىء. تلفَّتَ فى حيرة وارتباك فى كل اتجاه، ثم أمسك بسماعة تليفون، وتكلم، ثم وضعها، ونظر محملقا إلينا..

اتخذتُ وضعا ثابتا فوق السطح على ارتفاع خمسة أمتار منه، لكن كان من العسير علىَّ التحكم فى الثبات، فالطائرة تهتز وتتحرك، أحيانا إلى الأمام، وأحيانا إلى الخلف. إننى أناور بأطراف أصابع يدى وقدمى. شعرت بآلام فى كليتى وبطنى.. نهض دانيل من مقعده، فتح الباب، ثم وجه سلاحه الرشاش نحو الحارس، الذى وقف ساكنا فى ذهول، ثم فجأة، سقط على أرضية البرج الخشبى. هل هو فى وضع الانبطاح؟ هل أصيب بإغماء؟.

على عمق خمسة عشر مترا تجمع السجناء فى طرف الفناء، يتابعون المشهد. لا أرى من بينهم ميشيل. إنه بلا شك يتسلق الآن الحبل. إن وضع الطائرة لا يتيح لى رؤية ميشيل وهو يصعد إلى سطح البناء بالجناح البنائى الثالث أمامى. وعلى بعد نحو خمسة عشر مترا، رأيت سجينا يدخن سيجارة: ينفث من فمه دخانا، ثم يضع ذراعيه متعانقين على صدره، ثم ينفث دخانا، ويضع ذراعيه متعانقين على صدره... ثم يشير بذراعيه (منبسطين)إلى الإمام: إنه يعنى ميشيل بالتأكيد. قلت فى نفسى: إذا توقف هذا السجين عن تكرار تلك الحركة، فلابد أن يكون حدث شىء لزوجى.

استمر الرجل ينفث ويشير، ينفث و.... والهيليكو تثير ضجيجا هادرا كصوت الجحيم.. شعرت أن قدمى اليمنى متشنجة، فهى ترتعش تلقائيا بلا توقف. ظل الرجل يتابع تكرار حركته، ثم توقف فجأة. وهنا صاح دانيل:

ـ ها هو . .

لمحت كتفين ورأسًا أعرفها جيدا: أخيرا يلوح وجه ميشيل ضاحكا بشدة ضحكة هيستيرية. صرخت:

ـ إننا مجانين. حقا إننا مجانين، لكنه أجمل يوم فى حياتى. أحبك يا ميشيل. أحبك. أنا هنا . .

إنه فوق السطح، متكور، لتشبثه بقرميده المائل. خفضت ارتفاع الطائرة مترا، مع التحرك قليلا إلى اليمين بحرص شديد. مد دانيل ذراعه، والتقط ميشيل من كتفه، ثم طرحه على المقعد، وهو لا يكف عن الضحك، ناظرا إلىّ، ثم ضرب بقبضة يده جدار المقصورة المتكور، من شدة الانفعال، وأشار بالانطلاق . . .

ارتفعت بالطائرة، وضغطت على مقابض القيادة، لتصحيح خلل التوازن، الذى نتج عن وجود ميشيل فى الجانب الأيسر. رمقته بنظرة، فإذا هو جالس باسترخاء ينظر إلى السماء. أثناء ارتفاعنا أخرج المسدس الذى معه، وأخذ الرشاش، وألقى بهما إلى فناء السجن، فسقطا مهشمين . . إنهما من البلاستيك. صفق السجناء بشدة، وعلت صيحاتهم المدوية، حتى إننا سمعناها تغطى على هدير الطائرة وصفيرها الحاد.

فى المقعد الخلفى جلس دانيل يضحك مقهقها. غيرتُ الاتجاه. لوَّح ميشيل بذراعيه، وحرك رأسه وقدميه، كأنه يرقص طربا، وصاح:

ـ أحبك يا ناد. أنتِ رائعة. (قال الجملة الأخيرة بالإسبانية) . . حلقت كلماته فى سماء صافية مدهشة . .

اقتربنا من المدينة الجامعية. قلت لميشيل:

ـ قف يا ميشيل، فعند الهبوط أخشى يا زوجى الحبيب أن تفقد الهيليكو التوازن، كما أفتقده أنا الآن من الفرحة بلقائك . .

اتخذتُ وضع الهبوط. نحو مائة من الطلاب والطالبات يتجولون فوق حشائش المكان الذى سنهبط إليه. نظروا نحونا في دهشة.. فلما زاد اقترابنا، أسرعوا مبتعدين كعصافير تنتفض مذعورة.

وقفتُ بالطائرة على ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض، ثم بذلت جهدى لأهبط برفق قدر المستطاع. عندما لامَسَت الدعامات السفلية سطح الحشائش، أوقفتُ المحرك، فقفز دانيل أولا، ثم بدا متحيرا.. فصرخ فيه ميشيل:

- إلى السيارة. أدر محركها، إلى أن نلحق بك!.

أمسك ميشيل بيدى، وطفقنا نجرى أمام الطلاب المذهولين... وميشيل يصيح طربا:

- ناد (أى نادين).. لقد نجحنا..!.

مازالت أذرع مروحة الطائرة تدور، ونحن نجرى نحو السيارة المنتظرة على مقربة، مفتوحة الأبواب. ما إن قفزنا داخلها، حتى انطلق بها دانيل، قبل أن نغلق أبوابها. وما إن استقر بنا المقام، حتى احتضننى ميشيل، وتعانقنا طويلا، طويلا.. ثم وضع يده فوق قلبى سريع النبض. أغمضت عينى. فى غمرة النشوة البهيجة، أحسست بوطأة الأيام المقبلة: مع بداية الهروب القلق..!

وبعد أربعة أشهر من الهرب والاختفاء، أُلقى القبض على ميشيل فوجور، بعد إصابته فى رأسه أثناء عملية سطو. ظل فى غيبوبة كاملة مدة أسبوع، واستمر ينزف فترة طويلة.

حوكمت نادين... والعقوبة: أربعة وعشرون شهرا فى السجن، منها تسعة مع إيقاف التنفيذ، بتهمة التآمر، والمساعدة على هروب سجين. فى ٢٢ مارس ١٩٨٧ ولدت طفلا فى السجن. أما الزوج المحبوب، فقد نال أربعة عشر عاما، عقوبة على الهرب والسرقة، تضاف إلى سنوات الأحكام السابقة، ليصبح الإفراج عنه فى عام ٢٠١٧، مالم يَحْظ بمغامرات أخرى، وسنوات إضافية أطول..!.

رئيس غرفة العمليات الخاصة.. لص!

يميل الناس - أو معظمهم - إلى سماع الإشاعات، وحكايات المغامرات، والجاسوسية، وما خفى عنهم وراء الأحداث، وحول مشاهير الشخصيات، كأن هذا طُبع فيهم، وقليلا ما يحاولون بذل أى جهد للتحرى أو التروى، لفصل الحق عن الباطل، وتبيُّن الصدق من الزيف..

وفى شتى الدول اليوم، جهات رسمية وإدارات، مهمتها تتبع ما يظهر من إشاعات ضارة مقلقة، وتقصى مصادرها، وإبلاَغ السلطات العليا فى الدولة، لاتخاذ ما تراه بشأنها، بما يحفظ على الناس الهدوء والاستقرار والأمن.

هناك جانب آخر، لا يقل أهمية، وقد يكون فى بعض الظروف والأوقات أشد خطرا، وهو: حماية الدولة والمجتمع مما يدبَّر ضدهما فى الخفاء، فى الداخل والخارج، وممن يريدون بهما شرا، ولو على المدى البعيد.. إن حماية الدولة والمجتمع عمل عظيم جليل، يقوم به رجال - ونساء أيضا - شجعان أذكياء، يعملون ليل نهار، ويتعرضون حقا للأخطار، وتزداد مهامهم خطرا وصعوبة مع تطور التكنولوجيا ومفرزاتها، ومع تطور وسرعة وسائل الاتصال والمواصلات، ومع كثرة تنقل الناس بين العواصم والمدن والقارات، ومع التنافس المتصاعد المستمر - ويكاد أحيانا يبلغ درجة المعارك المستترة - فى مجالات متعددة: سياسية، واقتصادية، وصناعية، وتجارية، وسكانية، وفكرية.. فضلاعن أهمها وأقدمها: المجال الحربى الحيوى الذى تضطلع به الجيوش والقوات المسلحة. ومما يزيد أولئك الذين يعملون - سرا عادة - فى حماية المجتمع

والدولة، إجلالا وتقديرا، أنهم يحرزون نجاحات وانتصارات تبلغ أحيانا مستوى البطولة، ولكنها تظل سرا دفينا، لا يعلم بها أحد سوى القلائل فى محيطهم، أو بالمناصب العليا بالدولة التى يعنيها أمر هؤلاء وأداؤهم.. فهم أبطال مجهولون،وحراس أمن مستترون، وحتى بعد انتهاء خدمتهم، فإنهم لا يتكلمون..

القليل النادر الذى يصدر عن تلك الأعمال، تُكشف أسراره بعد سنين من وقوعها وسنين، ويُقبل عليها الناس بشغف،كتابة أو سينمائيا، لأن الواقع فيها أغرب وأبدع من الخيال، ولأنها تلمس غريزة فطرية فى الإنسان، وهى حب المعرفة، ونزع حجاب المجهول، ولأنها - وهو المهم - تُظهر تفوق فكر على فكر، وحيلة على حيلة، ومقاومة على مغامرة، وحق على باطل. أليس أمرا شريفا عظيما مبهرا أن تقول «العين الساهرة» لليد المتلصصة:

- حسبك. نحن هنا واعون، لا نغفل ولا ننام؟!.. وهذا مثال.

الفرقة السابعة بالشرطة الفرنسية مهمتها: مكافحة الجاسوسية فى الداخل، وجمع المعلومات الدقيقة التى تمس مصالح الدولة، أو إعانة السلطات العليا على اتخاذ القرارات السليمة المناسبة. أطْلَقوا على رجالها وكل العاملين والعاملات بها: «المقاتلون فى الظلام». كانت بدايتها على يد ضابط شرطة كبير، يدعى: «لو روىْ فينْفيل». مجال نشاط الفرقة: جمع المعلومات «الموثقة» يوما بيوم، ووضع تقرير عنها، لرفعه إلى من يعنيهم الأمر من كبار المسئولين، حتى رئيس الجمهورية. وكل الدول فى التقدير والتعامل سواء، ففى السياسة: لا حب، ولا كراهية، وإنما هى مصلحة الوطن وحمايته. وأصدقاء اليوم، قد يُعادون فى الغد، والعكس صحيح.

بعد سنوات من انتهاء خدمته، أصدر «فينْفيل» كتابا عن بعض أعمال تلك الفرقة السابعة، لقى رواجا كبيرا، وأظهر حقائق وأساليب مدهشة، وكشف عن الأخطار الشديدة التى يتعرض لها هؤلاء، «المقاتلون فى الظلام»، وأن خطأ

واحدا فى أداء عملهم، لابد أن يُعرض المسئولين فى الدولة ـ ورئيسها ـ لحرج وملامة من دول أخرى، لكنه فى الوقت نفسه عمل جرىء مفيد، لابد منه.

وتستعين الفرقة بالخبراء والفنيين والأكفاء على أعلى مستوى، ولها معامل ثابتة أو متحركة (فى سيارات مجهزة جيدا، لكنها غير مميزة عن سيارات شركات النقل)، وفيها تُفَض الرسائل والطرود المتعلقة بالسفارات الموضوعة تحت المراقبة، أو الأشخاص المراقَبين، والسياسيين المطرودين من بلادهم، أو أعضاء الوفود القادمين لأعمال أو مؤتمرات، وتدور حولهم الشبهات. . . . وبعد تصويرمحتويات الرسائل أو الحقائب الدبلوماسية أو الطرود، تعاد إلى حالتها تماما خلال فترة زمنية صغيرة محسوبة بالدقائق، حتى ولو كانت مُحكمة الأختام، والعلامات السرية، والأقفال. ولنتْركه يحكى عن بعض الوقائع.

قبل عامين من مصرعه، اقترح الرئيس الأمريكى جون كينيدى عقد مؤتمر دولى لتنمية التجارة العالمية، وتخفيض حقوق الجمارك. حضر هذا المؤتمر ثلاث وسبعون دولة غير شيوعية، وكان افتتاحه فى جنيف، فى مايو ١٩٦٤.

فى ذلك الوقت.. كنتُ مازلت مقتنعا بأن فرقتنا السابعة لاتُقهر، وأننا محاطون برعاية السماء، وأن الجماعة التى أرأسها لا تُهزم، ولا تُنال بسوء، كما أنها أتت من الأعمال والإنجازات ما تحسدها عليه فرق الخدمات الخاصة للدول الأخرى.

كان هذا المؤتمر الدولى نقطة ارتكاز وتحول بالنسبة لمستقبل أوروبا النقدى، خاصة أن الفرنك الفرنسى حينذاك كان فى حالة ضعف وهزال، وكان وزراء المال الأوروبيون يضغطون على الرئيس الفرنسى الجنرال دو جول لتخفيض قيمة الفرنك.

بالتأكيد. . . كانت واشنطن تعمل ضدنا. ودو جول الذى أعلن انسحاب فرنسا من حلف شمال الأطلنطى، كان ينظر إلى أمريكا من علٍ (أى من أعلى)، ويحاول تجميع دول أوروبا خلفه، مرتكزا فى السياسة النقدية على

الذهب، لا على الدولار، ليكون للعملة مرجع ثابت واضح القياس والدلالة.. فكان اليانكى (كلمة تحمل شيئا من السخرية، ويُقصد بها الأمريكيون) يطلقون على مسعى الجنرال «لَمْسة جولية».

هكذا، كان الإعداد لمؤتمر مصيرى كهذا، ليس فقط مجرد مؤتمر قمة، خاصة فى الكواليس (أى خارج نطاق الجلسات العلنية) على مستوى فرق الخدمات السرية. إن كل رئيس وفد إلى المؤتمر يتوق إلى معرفة ما ينويه أو يُضْمره رؤساء الوفود الأخرى، لكى يفاوض على أفضل الشروط المناسبة له. إنها الورقة الخفية التى يحاول كل مشارك فى اللعبة ـ أو منافس ـ أن يتعرف عليها. وبدون ذلك.. يكون الجلوس على مائدة المفاوضات ذات الغطاء الأخضر من غير معرفة ما يدور فى أدمغة الآخرين، يكون أشبه بعملية انتحارية.

وقُبيل الإعداد النهائى لعقد المؤتمر، اجتهدتْ أجهزة المخابرات، والفرق المعنية الأخرى فى جمع المعلومات من عواصم الدول المشتركة فى المؤتمر، طبقا للوسائل التقليدية فى الحصول على المعلومات، ووُضع دبلوماسيون أجانب ممن يقيمون فى باريس تحت استراق السمع (من خلال الأجهزة التليفونية)، وهى وسيلة ـ فى تقديرى ـ لا تُجدى، لأن الدبلوماسيين حذرون، ولا تفلت منهم أسرار عبر التليفون، وربما تعمدوا التحدث بمعلومات مضلِّلة عكس الحقيقة، وما يُضمرون.

إن التقارير الواردة من الملحقين بسفاراتنا فى الخارج، ومن مراسلينا المبجلين، لا تكشف شيئا، ولا توضح استنارة على الإطلاق. حاولنا ـ بلا جدوى ـ التنصُّت على خطوط تليفونات بعض الدبلوماسيين الذين يتعاملون بالرموز (الشفرة)، حيث كانت تتغير باستمرار، ومعقدة، وتحتاج فى تحليلها إلى وقت طويل.

لم أجد أمامى ـ قبل انعقاد المؤتمر بثمانية أيام ـ سوى العمل الساخن وبسرعة، خاصة بعد أن تقرر عقد اجتماعات تمهيدية للوفود فى مدينة «كان» الفرنسية.

حضر الوزراء ـ رؤساء الوفود ـ إلى «كان»، وفى صحبة كل منهم عدد كبير من المساعدين، والمستشارين، وفرق الحراسة،وأيضا حقائبهم المتخمة بالتقارير والوثائق. وفى مثل هذه الظروف.. يكون العمل ـ من جانبنا ـ مغامرة خطرة، وتعرض متزايد لوقوع أزمات ومواقف لا تُحمد عقباها.

شرعتُ فى وضع خطتى. أولا ـ وتلك ميزة ـ أن الوزراء جميعهم ومن معهم سينزلون للإقامة فى فندق أو قصر «ماجستيك»، وهو بالنسبة لى ساحة عمل مألوفة. اخترتُ لفرقة أو «أوركسترا العزف» التى أقودها مجموعة من أمهر المتعاملين معى فى أجواء الفنادق والقصور، ولهم سابق خبرة ممتازة فى هذا المجال، ووضعت فى تقديرى مساعدات من جانب إدارة «ماجستيك»، مثل اختيار الغرف الملائمة لقيادة العمليات، والأجهزة والأدوات المعملية، وأجهزة اللاسلكى والاستقبال الصوتى.

«زرعت» بعض رجالى بين الموظفين والعاملين بالفندق، مثل القائمين بالخدمة، والنظافة، وطلبات الغرف، والمصاعد، وحراس الأدوار، والأبواب، ومواقف السيارات...... إلخ. ثم انتقيت أولئك الذين سيزينون «الكعكة، أو التورتة».. مثلا استدعيت «جاك فيرا» زميلى القديم، الذى شاركنى فى مواجهة الموت، يوم أن عاد الملك محمد الخامس إلى حكم مراكش (المغرب).. أسرع جاك إلى ماجستيك، واتصل سرا بالمسئول عن إدارة الفندق ـ القصر، ليحجز لنا الغرف التى سنقيم فيها، بشرط أن تكون فوق مقر إقامة الوفد الأمريكى، الذى يرأسه الوزير والصديق الشخصى للرئيس كينيدى، وهو: «جورج بال» الخبير فى الشئون المالية.

أمضى جاك يومين كاملين فى جناحنا بالفندق، لم يغادره. فحَصَ كل صغيرة وكبيرة.. لم يترك شيئا غير ملائم، إلا وأصلحه، حتى الأجزاء من الأرضية التى تحدث صوتا، أو الأبواب التى تحدث صريرا (تزيّق). طوال الليل ظلّ ساهرا ممددا على الأرض، يرصد مصادر الأصوات والضوضاء، وقضى

ساعات فى التدريب على الحركة، والتنقل السليم داخل الغرفة فى الظلام الدامس، مغمض العينين، دون إحداث أدنى صوت، أو الارتطام بمحتوياتها. زيَّت أقفال الأبواب، والدواليب والمفصلات. أخذ بصمات كل المفاتيح، ومن بينها مفتاح بابِ الغرفة، التى سينزل بها الوزير الأمريكى، وعين موضع ميكروفون التنَصُّت فى تلك الغرفة داخل جناحه الخاص.

إننا نضع هذا الميكروفون عادة ملتصقا بعارضة (بلدكان) الستارة، وهو مكان جيد لالتقاطِ الصوت من داخل الغرفة، ونختاره من نفس لون قماش الستارة. وللتمويه أكثر.. نغطيه بطبقة سميكة من الدهانات من اللون ذاته، فلا تكشفه أجهزة البحث عن الميكروفونات السرية. ولتمام الحيطة، قررنا ألا نضع الميكروفون فى مكانه المختار، إلا فى اللحظات الأخيرة، عقب وصول الوزير الأمريكى، بعد أن يتفحص «غوريللات» الحراسة المرافقين له جناحه بدقة. إنه ميكروفونٍ دقيق، يمكن تغيير اتجاهه من بُعد، صنعناه خصيصا فى معاملنا. وهو يوجَّه نحو السقف، حتى يتمكن أحد رجالى من التقاط موجاته، من خلال جهاز وُضع بالغرفة العلوية، فوق حجرة الوزير مباشرة.

لم يكن هدفنا التجسس على الوزير جورج بال، والتقاط محادثاته الشخصية.. فهو لن يتكلم بشىء ذى قيمة فى التليفون. كان الهدف هو معرفة الجدول الزمنى لتحركاته: معرفة متى وكم من الوقت سيكون خارج غرفته، حتى يفسح لنا الطريق، كى نبحث فيها عما يهمنا. وإذا كان بها بعض الوثائق، فإننا نصورها بكاميرا خاصة فى معملنا بالدور العلوى، ثم نعيدها إلى مكانها بالضبط قبل عودته. ولكى نستفيد بالوقت، والإنجاز السريع، قررت ألا نكتفى فقط بالتصوير، وإنما تتم عمليات التحميض والطبع (للميكروفيلم) فى الفندق ذاته. لذا.. استحضرت إحدى السيارات المعملية التابعة لنا، وهى لا تختلف من الخارج عن سيارات شركات غسل الملابس وعلاماتها، وجعلتها تقف مجاورة لأحد الأبواب الخلفية غير المطروقة من الفندق، دون حاجة إلى عبور بهو المدخل الرئيسى.

لكننى سرعان ما تبينت أن الوقت أقصر من استخدام سيارة المعمل، ولابد من نقل المعمل إلى غرفة مجاورة لجناحنا مباشرة، إذ ربما لا يكون تصوير الوثائق واضحا أو جيدا بعد تحميض الأفلام، فلابد إذن من إعادة التصوير والوثائق بين أيدينا، قبل إرجاعها إلى مكانها، وليس فى الوقت متسع. . فإذا تأكدنا من سلامة هذه العملية، أرسلنا النسخ إلى باريس مباشرة، دون أن نضيع دقيقة واحدة.

كنت فى حاجة إلى مساعد، يستطيع التجول فى الفندق بحرية تامة، وأن يصعد على سجيته إلى طابق من الطوابق، ويتوقف قليلا لمحادثة أى شخص، حتى تتم إعادة الوثائق إلى مكانها بعد تصويرها. كل ذلك من غير أن يلفت النظر، أو يثير أدنى شك.

ولماذا لا يكون هذا الشخص امرأة جميلة، غاية فى الرشاقة والأناقة، وفخامة الحديث، ونبل السلوك؟. إنها بهذه المواصفات. . تحظى بالإعجاب، وتستميل القلوب، وتأسر الأنظار أينما تنقلَتْ، فلا تنشغل بسواها. إنها بالفعل جاهزة، وفى متناول يدى. إنها الكونتسة. تنطبق عليها تماما تلك المواصفات. وهى تعمل معنا منذ فترة طويلة. جمالها مفرط، وقوامها مبهر، وثقافتها رفيعة، لبقة، كتومة، جريئة، تحسن التصرف فى أصعب المواقف. وهى ليست غريبة على الماجستيك، فعائلتها تنزل بهذا الفندق (القصر) منذ افتتاحه من نحو نصف قرن، وهى تُستقبل فيه استقبال الملكات. إنها كريمة فى سخاء، متألقة فى أرستوقراطية، محمية الجانب، يحييها الخدم بالانحناء، ويودعها كل الرجال بابتسامة المسحور بمفاتنها. إنها تملك كل عناصر الانسجام التام مع المطلوب منها: أن تقطع الممرات الداخلية جيئة أو ذهابا على نحو طبيعى للغاية. . فمن ذا الذى يجرؤ على الشك فيها، أو البحث وراءها، أو حتى اعتراضها، والاقتراب منها؟. . قلت لها:

ـ وفوق ذلك. . ستلعبين دور عازف الناى السحرى الذى يجلب بأنغامه كل

من يسمعها، حتى الجن والطير.. عليك بشد أنظار أعضاء الوفود نحوك. وكذلك رجال حراستهم فى أماكن محددة، فى «البار» مثلا، بينما يكون رجالى منهمكين فى عملياتهم.

يبدو أننى لم أحسن الحديث معها.. فهى بالفعل تجذب نحوها كل القلوب والأبصار، بمجرد ظهورها فى أى مكان.. فكأننى طلبت منها أن تصنع شيئا، هو واقع وبديهى بالنسبة لها. لم تظهر استياء من نقص لباقتى، لكنها قالت، وكأنها تحذّرنى:

ـ أنا أسافر إلى «الكوت دا زير» ـ حيث منتجع كان ـ بالطائرة الخاصة. وزيادة فى الحيطة.. لن أستعمل واحدة من سياراتى.. فعليك أن تعد لى سيارة تليق بى، وتنتظرنى بالمطار.

أخبرتُ جان مارى ـ البارع فى فتح الخزائن المغلقة بإحكام، الذى اشترك معى فى سرقة محرك طائرة توبولف الروسية ـ أخبرته أن يلعب دور سائق الكونتسة، ثم قلت له:

ـ اذهب إلى جراج «روميو»، واستأجر أفخم سيارة تجدها عنده، ولا تجادل فى قيمة الإيجار، فالدولة هى التى ستدفع.

عند روميو، توجد أفخر أنواع السيارات الفارهة الأمريكية، وبعضها آل إليه من مقامر تعيس الحظ، باعها إليه فى ساعة احتياج وضيق، مقابل دراهم معدودة.

فرح جان مارى بتلك المهمة، وزادت فرحته عندما منحتُه حرية مطلقة فى استئجار أفخم سيارة، وبأى ثمن. واختار واحدة فريدة فى فخامتها، وأشدها جذبا للانظار: فيرلين/ ٥٠٠، كأنها شبح، في لون بياض الإوزة، تزينها ـ كالعروس ـ حليات من الكروم براقة. وزاد من بهائها ورونقها جلوس الكونتسة داخلها، بأناقتها، ورشاقتها، وجمالها وأبهة النعيم الواضحة عليها. إن هذه السمات جميعها ـ مع سلوك الكونتسة الرفيع المستوى ـ هو الضمان الكبير

لإنجاح مهمتنا الصعبة. ويستحيل على أى امرئ ينظر إليها أن يظن للحظة أنها تشترك فى نشاط سرى.

عندما وصلت إلى فندق ماجستيك، حيث تجرى فيه واحدة من أكبر عمليات الحرب الخفية منذ عام ١٩٤٤، أدركت أننى الشخص الوحيد الذى يملك رؤية شاملة لهذا الموقف غير العادى. إن طابقاً بأكمله يشغله أعضاء الوفود، ومستشاروهم، وحراسهم. وكل الأجنحة بهذا الطابق الفسيح مفخخة (بأجهزة التنَصت)، مثل الغرفة الرئيسية بجناح الوزير الأمريكى. وقد حملت على عاتقى مسئولية المخاطرة، ومراقبة كل الوزراء القادمين من الخارج ـ عدا دول هولندا ، وبلجيكا، والدانمارك ـ وبتركيز أشد على وزراء الولايات المتحدة، وإيطاليا، وألمانيا الفيدرالية (الغربية قبل توحيد ألمانيا).

فى الطابق العلوى مباشرة، فوق طابق الوزراء، يقيم الفريق العامل معى نحو خمسة عشر من الضباط والفنيين. من بين الأجنحة والغرف التى استأجرناها، جناح خاص بأجهزة السمع والتنصت طوال الأربع والعشرين ساعة يوميا، ويشرف عليه خبير يتحدث بكل اللغات المستخدمة فى المؤتمر، ولديه وصلة من الميكروفونات الموضوعة داخل قاعة المؤتمر أمام الأعضاء. وجناح آخر خصصتُه لقيادة العمليات، وأيضا للجوء رجالى إليه ساعة الخطر.

وكما توقعت، قبل افتتاح المؤتمر بأربع وعشرين ساعة، ووصول رجل الدولة الأمريكية جورج بال، وهو من البارزين فى الحزب الديمقراطى، حَضَرت مجموعة من رجال الحراسة السرية الأمريكية، وجوههم برونزية، ومن ذوى المهارات الرياضية والدفاعية، يرتدون ملابس حريرية، ويبتسمون فى ضراوة. مشّطوا غرفة الوزير بمنتهى الدقة؛ فلم يعثروا على شىء يريبهم.

انتظرنا حتى فرغوا من مهمتهم، ثم أسرعنا ـ خفية ـ بوضع الميكروفون الصغير المتحرك فى كل اتجاه، وثبتناه فى جسم عارضة الستارة بالغرفة. تم ذلك عن طريق أحد رجالى، الذى قام بدور خادم الغرف. نفس الشىء حدث

فى كل غرف الوزراء. لقد أصبح الطابق بأكمله - الخاص بأعضاء الوفود - تحت مراقبتنا تماما. وسرعان ما أدركتُ أن «غوريللات» الحراسة المرافقة للوزير الأمريكى لا يتشككون فى شىء، وأن جل اهتمامهم منصب على حماية الوزير جسديا خارج الفندق، فإذا تحرك إلى أى مكان، أسرعوا ليكونوا معا خلفه مثل ظله، لا يبتعد ولا يغيب عن أنظارهم لحظة واحدة.

جلسْت بعيدا منذ اليوم الأول، أرقب ما يجرى داخل الفندق. تبينْتُ بوضوح ذاك الرجل: طويل القامة، صدغه عريض رمادى اللون، على وجهه مسحة من العبوس. إنه جورج بال، متجه نحو قاعة الطعام لتناول العشاء الرسمى، بمناسبة افتتاح المؤتمر. رأيته يمشى متئدا بينِ حراسه الخصوصيين، ذوى الأسنان الحديدية، وكأنه إحدى قطع الأسطول الأمريكى، حاملة طائرات مثلا، وحولها سفن مساعدة!. فى الممرات والقاعات وفى البهو الكبير، حركة وتدافع وتسارع. وعند المصاعد المختلطة بالهَمْهمات والنداءات، وحشرجة أجهزة التخاطب اللاسلكى (توكى ووكى) التى يحملها الحراس. وبعدها، ساد الصمت والهدوء.

غادر الوزراء غرفهم، واحدا إثر واحد، ومن خلفهم الحرس الخاص، حتى تواروْا عن الأنظار. ومن الطبيعى أنه لم يفكر وزير منهم بضرورة ترك واحد من الحراس عند جناحه الخاص بلا عمل. اكتفوا بإغلاق أبوابهم جيدا بالمفاتيح. الآن نغتنم الفرصة، ونبدأ نحن العمل. فى كل مرة تتاح لنا فترة زمنية طويلة، يغيب فيها الوزراء بالخارج لتناول العشاء بشاطئ النخيل، بدعوة من عمدة المدينة، أو الغداء بدعوة من كبار الأثرياء المقيمين وقتها بقصورهم الفاخرة.

كنا أثناء ذلك نسرع بالدخول إلى أجنحتهم بالفندق، ونواصل العمل. وعندما نتلقى إشارة من عيوننا المنْبثَّة فى كل مكان، وحول الفندق، ومع الوفود أيضا (النضورجية) ويخبروننا بعودة أصحاب السعادة الوزراء؛ نختفى نحن فى الحال، ونخْنس فى غرفنا، بعد أن نكون قد رتبنا كل شىء فى مكانه فى غرف وأجنحة الوزراء، وأغلقنا الأبواب جيدا بالمفاتيح كما كانت.

كان الموقف وما يجرى فيه أشبه بمشهد من الباليه أو المسرح الهزلى: العقدة الرئيسية فيه هى ألا يلتقى واحد منا بوزير قادم، أو يواجه أحد حراسه. عندئذ سوف ينتهى المشهد بمأساة قد تنتهى بفضيحة وأزمة دبلوماسية، إلا أن رجالى الأكفاء الذين يتسللون كالأشباح، عندهم خبرة أكثر من عشر سنوات فى هذا المجال.

إن الفتى «برنار» الذى كنت أشاهده فى باريس من سنوات، وهو ذاهب إلى المدرسة، يؤدى دوره الآن على أحسن وجه كخادم للغرف. إنه شاب مليح الوجه، ممتلئ الجسم قليلا، فى مشيته ومظهره وسلوكه يعتبر نموذجيا، فضلا عن أنه يجيد التصوير ببراعة وبسرعة، ودقة شديدة، وهذا هو المهم، لأننا نعمل فى الظلام، أو شبه الظلام، وبدقة الحساب بالمليمتر والثانية.

تولى جاك فيرا مهمة العمل فى جناح الوزير الأمريكى جورج بال. ترك هذا الوزير - بإهمال - بعض الرسائل ملقاة على المائدة بغرفته. وفى ركن منها، وجد جاك حقيبة من النوع الذى تحفظ فيه الوثائق، محكمة الإغلاق بالمفتاح، لكن جاك نجح فى فتحها، بدون أن يترك أى أثر، وصوَّر عدة تقارير، وبرقية قادمة إلى الوزير من واشنطن، عن طريق السفارة الأمريكية فى باريس، بمجرد وصوله. والأهم من ذلك كله... تقريرا كبير الحجم.

بعد عشرين دقيقة، ترك جاك الغرفة بجناح الوزير، وكل شىء فيها مثلما كان تماما. وفى الممر بين الغرف، التقى بالكونتسة تتحدث مع «روجر دولان»، زميلى بالسفارة المصرية فى باريس، المتخفى فى هيئة نزيل بالفندق. أثناء عبور جاك بهما، دس فى يد الكونتسة مجموعة الأفلام المصورة بجناح الوزير الأمريكى، فأسرعت لتسليمها إلى المعمل بالطابق الأعلى، ثم أقبَلتْ إلى الجناح الذى أقيم فيه لتخبرنى أنها راضية - بل معجبة - بسير العمل داخل ماجستيك، ثم قالت متهكمة:

- أرجو ألا أظل طوال الوقت أؤدى هذا الدور المهين، دور كومبارس...

وعلى فكرة، هل تدرى أننى «علقت» الوزير الألمانى؟. إنه رجل وسيم. هل أستمر معه؟.

ـ للأسف يا جميلتى، إن هذا لم يوضع فى خطة عملنا..

ـ وا أسفاه إذن!.. قالت ذلك ببرطمة غنجة ساخرة..!.

بعد ساعة واحدة، كانت بين يدى صور الأفلام مكبرة، لكن لم يكن لدى وقت للتعرف على محتواها.

على أية حال، ليس فحصها ومعرفة ما فيها من أختصاصى. إن مهمتى تنحصر فقط فى الحصول على الوثائق الخام، بدون تحليل محتواها، أو حتى الاطلاع عليها. كل اهتمامى منصب على أن تكون واضحة، وإلا أعددتُ نسخة أخرى أكثر وضوحا.

قبل انعقاد هذا المؤتمر، درسنا ـ من خلال أفلام، وشرائط مصورة بالمؤتمرات، واجتماعات دولية سابقة ـ سلوك جورج بال وعاداته. إنه مثل كثير من الدبلوماسيين يسجل بسرعة وباستمرار تعليقاته وملاحظاته أثناء المناقشات وأحاديث الوفود، يدوِّنها على أي شيء يقع تحت يده: مفكرة ورقية، ظرف خطاب، وريقة صغيرة.. ثم يدس هذه القصاصات فى جيب سترته. وفى الجيب الكثير: تخطيطات سريعة، رسوم، تحليلات عاجلة، تعليمات يريد أن يوجهها إلى أعضاء وفده، تذكرة لتصويب آراء أو موضوعات حيوية. ولابد من فحص تلك الوريقات جيدا لتصوير المناسب لنا منها. ولكن، كيف الوصول إلى ملابس الوزير؟..

إن هذا يتطلب القيام بعملية جريئة فى منتهى الدقة والخطورة معا: التسلل إلى غرفة الوزير الخاصة وهو مستغرق فى النوم. ولا يصلح لها إلا جاك، لمهارته وخفة يده ومعرفته التامة بالمكان. وماذا لو ضُبط متلبسا؟، ستكون كارثة ولاشك. وعندها ستتبرأ إدارة الفندق منه وتَدَّعِى أنه لص تسلل بين فريق العاملين بالفندق، محاولاً سرقة أى شيء، وهو يجهل أنه اقتحم جناح إقامة

الوزير الأمريكى ودخل غرفة نومه. وأشك كثيرا فى أن رجال الأمن والحرس الخاص بالوزير سيصدقون هذا الزعم. قال جاك:

ـ وماذا يحدث؟. إننا نفرح ونبتهج بقدر ما تنجح المهمات الصعبة.. فلنحاول بلا تردد.

ـ إذا حالفك الحظ فى تلك المهمة، فثق أنها ستكون الوحيدة، ولن تتكرر بعد هذه المرة..!.

عن طريق الميكروفون المتخفى بغرفة الوزير نستطيع تتبع أنفاسه، ومعرفة متى سيستغرق فى النوم العميق. فإذا كان التنفس بطيئا هادئا، منتظما، فهذا معناه أنه ينام نوما عميقا. وهذا ما حدث. وفتح جاك باب غرفة الوزير بالمفتاح المقلَّد، ودخل بخطوات الذئب يتحسس طريقه فى الظلام. كان يلبس فى قدمية حذاء من نوع خاص، به طبقة من الكريب لا يحدث أى صوت. وفى الغرفة العلوية مباشرة وضَع مساعد الصوت السماعة الشديدة الحساسية على أذنيه بإحكام؛ فلم يسمع أدنى صوت فى غرفة الوزير، سوى أنفاسه المنتظمة.

أما أنا، فقد وقفت قلقا مترقبا، وقلبى ينتفض بضربات متسارعة. كنت أقف بجوار لوحة شبكة الكهرباء مباشرة التى تغذى طابق الوزراء بأجمعه.. فعند أول صيحة، أو سماع أقل إنذار، أفصل على الفور التيار الكهربى.. فالكهرباء تنقطع فجأة فى كل مكان، حتى فى الفنادق. وفى الظلام يستطيع جاك أن يهرب وسط الارتباك الذى سيحدث، وقبل أن يقع فى قبضة حراس الوزير المفترسين الأشداء.

وحدثت المعجزة.. خرج جاك من غرفة الوزير بسلام، ومعاليه مستغرق فى النوم. كانت المشكلة أنه لم يستطع تصوير الأوراق والوثائق التى فى سترة الوزير، وهو على بعد أقل من مترين من سريره.. فلم يجد مفرا من إحضار كل ما عثر عليه فى جيوب ملابس الوزير لتصويره بالمعمل بالدور العلوى، ثم إعادته إلى مكانه بالضبط بنفس أسلوب التسلل أو الانزلاق اللين الذى

تستخدمه الحيوانات الرشيقة الضارية عند صيد فرائسها. وتم ذلك... ومازال الوزير يغط فى نومه!!.

وفى الحال سافَرَت النسخ المصورة إلى رئاسة الحكومة فى باريس، وبعد ساعات كانت على مكتب الرئيس دو جول. كان واضحا منها أن جورج بال يسعى إلى إثارة الدول الأوروبية ضدنا ـ فرنسا ـ وأنه على وشك النجاح فى إقناع وزراء تلك الدول بالتخلى عن فكرة ـ فكرتنا ـ أن يكون الذهب معيار التعامل النقدى، وهو ما كنا نريد أن يتفق عليه رؤساء الوفود فى «كان».

لكن الجنرال دو جول ـ فى شموخه واعتداده بنفسه ـ كان واثقا من أن أوروبا كلها تمشى وراءه، وأن أية محاولة تزحزحه عن هذا الاعتقاد هى نوع من الهراء والتشويش. ولما كانت تقاريرى وما يدعمها من وثائق لا تتمشى مع آرائه وما يظنه الصواب، فقد نحَّاها جانبا بأجمعها.

وقديما كانت الملكة الفرعونية كليوباترا تأمر بقتل من يأتيها بأخبار سيئة.!. وفى اجتماع مجلس الوزراء، قال دو جول بصوت يدل على الثقة المفرطة:

ـ الأوروبيون؟ إنهم لا يجرؤون على مخالفتى، ولكن أولا: من أين جئتم بهذه المعلومات التى تقولون إنها مدعمة بالوثائق؟.

شرحوا له كيف أن هذه التقارير والوثائق مستمدة من عمليات الفرقة السابعة الموجودة حاليا فى مدينة «كان»، وهى فرع من قسم جمع المعلومات ومكافحة التجسس؛ فانفجر الجنرال صائحا:

ـ آه.. مكافحة التجسس، وجمع المعلومات!. هيا، انظروا. ليس هذا عمل فيه جدية. ومن يضمن لى أن هذه الوثائق مطابقة للأصول؟. أتعرفون فقط كيفية الحصول عليها؟.. فقال قائل بالمجلس:

ـ أتريدون يا سيادة الرئيس سؤال رئيس قسم جمع المعلومات ومكافحة التجسس، الذى يستطيع أن يبين لكم بالتفصيل قيمة تلك الوثائق، وحقيقة مصدرها؟.. فزمجر دو جول قائلاً:

ـ عليكم إذن إرساله إلىّ . . ! .

رفض كبار المسئولين القيام بهذه المهمة، ومن بينهم مدير مكتب الرئيس، بحجة أننى الوحيد الذى يعرف التفاصيل، والأفضل فى شرحها. إنهم يدفعوننى وحيدا إلى عرين الأسد . .

توجهت إلى قصر الإليزية، وكأننى أسير، تحت وابل من طلقات المدافع، وعلىَّ أنا «اللص» رئيس قسم المكافحة أن أُقنع دو جول بأن تقاريرى صحيحة، ووثائقى سليمة وطبق الأصل. ولكن، هل سيسمعنى دو جول جيدا ويُصْغى إلىّ؟. أنا أعرف مسبقا أنه غير راض عن أعمال الفرق الخاصة . . فهو يعتبرنا رجال عصابات، نحمل الحبال والأجولة، ونصيد فى المياه العكرة. وكثيرا ما كان يأمر بإلغاء عمليات على جانب كبير من الأهمية، لأنه كان يراها غير لائقة بكرامة الدولة. وعندما طَلَب منه الجنرال «جروسّا» الموافقة على عملية لتخريب سفينة محملة بأسلحة مرسلة إلى جبهة التحرير الجزائرية (قبل استقلال الجزائر)، سأله دو جول بصرامة وحزم:

ـ هل تضمن لى أنه لن تنتج عن ذلك ضحايا؟ . .

هذا هو الرجل الذى طُلِب منى مقابلته لإقناعه بالبحث فى جيوب سترة وزير أمريكى . . ! .

ـ صباح الخير فينْفيل. هل تعرف لماذا طلبتُ استدعاءك؟ .

ـ نعم يا سيدى الجنرال .

جلس خلف مكتبه عابس الوجه. وبحركة من يده تُفصح عن غضبه، قدم إلىَّ مجموعة من التقارير والوثائق المصورة التى أعرفها جيدا، وهو يقول فى نبرة صوت تدل على الاستياء:

ـ أريد أن أعرف تفسيرا لموضوع، أوه! . . ، هذه الوثائق . . ! .

لمحتُ على وجهه علامات الضيق، والإثارة، والشك، والظن بأن فرق

المهمات الخاصة تصطنع أشياء غير حقيقية، لتجبره على اتخاذ قرار لا يريده. وها هو ينفرد بى لمحاسبتى كمتهم حقيقى وقع بين يديه ـ دون رؤسائى ـ ونظرات الشك والغيظ تكاد تطيح بى.

قال فى حدة:

ـ أريد أن أعرف كل شىء. . . كيف نفذت العملية، وبأى أسلوب اقتحمت وحصلت على تلك المذكرات والوثائق؟. .

لم أجرؤ على أن أذكِّره بأن الوقت الثمين يمضى سريعًا، ويجرى ضدنا، وأنه على وشك أن يفقد الفوائد المستخلصة من هذه التقارير والنسخ المصورة، ومن معرفة نوايا جورج بال.

هل يريد أن يَطَّلِع على التفاصيل؟. حسنا. . لن أخفى عنه شيئا: فتْح الحقائب الدبلوماسية والرسائل والطرود المتعلقة بالسفارات والشخصيات المشتبه فى أمرها، وكيفية فتح الخزائن، والعمل بالفنادق لمراقبة الأجانب المشكوك فيهم، والعمليات التى تطلبها منا مراكز جمع المعلومات على مستوى العالم، والتى لنا فيها مصلحة أمنية مباشرة، ونشاط الفرقة السابعة المكونة من خبراء على أعلى مستوى، وما يجرى فى فندق ماجستيك بمدينة «كان»، بهدف تزويده بالمعلومات الخافية الصحيحة التى تساعده فى اتخاذ قراره النهائى، رغم أنه يظن احتواءها على خدعة تجعله غير راض عنها. .

بدا عليه الانزعاج، إذ لاحظ أن فى صوتى نبرة غضب. . فأخذ يسأل ويستفسر، وينصت مفكرا: إذا كانت هذه الوثائق المتجمعة على مكتبه هى فى الحقيقة والواقع ثمرة جهد كبير بذل بإخلاص وجرأة، وبتقنية وجدارة وكفاءة عالية، فمن العسير إذن الشك فى صحتها!.

وفجأة رأيته ينظر إلى ساعته. إنه يدرك جيدا أن الاجتماعات الحاسمة فى مدينة «كان» قد بدأت الآن، وحان الوقت للحاق بها. نظرإلىَّ نظرة متفحصة، ثم قال:

ـ هل تؤكد لى، وتقسم بشرفك أن الملف (الدوسيه) خارج من حقيبة السيد بال؟. .

ـ أقسم لك يا سيدى الجنرال..

أخرج من درج مكتبه خاتما صغيرا غير مألوف، وراح يختم فقط الأوراق التى راجعها بنفسه، والتى يرى أنها تستحق التصديق. لم يقل لى أنه كان يظن بى التلفيق والكذب، والخيانة. ولم يقل لى فوق ذلك أنه الآن أصبح مقتنعا، وأنه يأسف لقصور المعلومات المتوفرة لديه. اكتفى بخَتْم الوثائق وحسب.

من تحت جفون تشبه جفون الفيل، ومن عينين صغيرتين نافذتين، نظر إلى لحظات فى صمت. هل اقتنع أخيرا بأن الوثائق مطابقة للأصل؟. حسن إذنْ!، هذه فرصة للحكومة الفرنسية أن تستمد منها معلومات مفيدة. عظيم. ومع ذلك.. أحسست أن عداء الجنرال لأعمالنا مازال قائما... فنحن فى تقديره سراق خزائن ونشالون. إنه فى السر يذم ويستنكر أساليبنا، ناسيا أنه ليست هناك وسيلة أخرى، وأن مجموعة من أفضل وأكفأ ضباط البلاد تعمل على هذا النحو فى الخفاء، وتواجه مخاطر جَمّة مقابل مرتبات هزيلة.

من طرف شفتيه، وفى شىء من الازدراء، سقطت من فمه كلمتان باردتان، نطق بهما رغما عنه:

ـ شكرا، فينْفيل..

تركت هذا التمثال العملاق الذى تجمدت فيه المشاعر الإنسانية، وعُدت إلى مكتبى مصدوما، مهانا، لكننى شعرت بالارتياح عندما علمت أنه خرج بعد لقائى معه مهرولا ـ نعم دو جول مهرولا ـ ليلحق باجتماعات مؤتمر «كان»، وفى ذهنه نوايا جورج بال المستترة.

جمعت كل العاملين معى فى فندق ماجستيك فى «كان»، من سائق السيارة إلى الكونتسة. إنهم جميعا ممتازون، رائعون، قَلَّ نظراؤهم. علموا أننى قابلت الجنرال، وأنه حاصرنى بسيل من الأسئلة. لم أخبرهم بشىء مما دار فى هذا اللقاء، حتى لا ينتابهم الاستياء والغثيان، ويفقدوا الحماس فى العمل. اكتفيت بأن أعدت المشهد الأخير من لقائى بالجنرال دو جول. قلت لهم:

ـ سيدتى، أيها السادة: شكرا . . هذا كل ما أستطيع آن أقوله لكم بلسانه.

فى السبعينيات أبدى الأمريكيون اهتماما متزايدا بالمواد المتعلقة بالطيران السوفيتى، وقدروا أن فرنسا يمكن أن تساعدهم فى هذا المجال. وفى مطار «بورجيه» بباريس اتخذ الروس مخزنا كبيرا خارج المنطقة الجمركية، لتخزين قطع الغيار الخاصة بطائراتهم، لاستخدامها عند حدوث أعطال، حيث كانت طائرات الكتلة الشرقية جميعها تهبط فى هذا المطار. هذ المخزن ـ وملحق به حظيرة مسقوفة لطائرة بأكملها ـ كان موضع مراقبة دقيقة ومستمرة من جانبنا، وعند إغلاقه يختم الروس أقفاله جيدا . . لكننى سرعان ما استطعت الحصول على نسخة من المفاتيح، والتعامل ليلا مع الأختام. وفى داخل المطار وملحقاته دسست عددا من رجالى على جميع المستويات: منهم مديرو شركات، وطيارون على الخطوط المنظمة، ومضيفات جويات، وميكانيكيون، وعمال نقل حقائب.

ولما كان الأمريكيون على دراية بذلك، فقد كانت أسئلتهم واستفساراتهم كثيرة ومتلاحقة، تبغى معرفة معلومات دقيقة عن خصائص معينة فى الطائرات الروسية، وأيضا تزويدهم بالصور وتسجيلات لذبذبات كل طائرة عند الصعود (الإقلاع)، باستخدام نوع خاص من الأوراق الزجاجية المعدنية، دقيقة فى التحليل الصوتى.

أديت هذه الخدمة لإخواننا الأمريكيين، بناء على طلب من قيادتى العليا، طالما هى متاحة على الأراضى الفرنسية. ارتدى ضباط شبان من فرقتى زى عمال نقل الحقائب، ومارسوا العمل، وفق تخطيط متقن. ومن مخازن «إيروفلوت» ـ خطوط الطيران الروسية ـ حصلنا على صناديق أدوات لحام، ووصل، وقِطَع غيار تسلمها الأمريكان.

ومع مرور الوقت، لاحظْت مدى اهتمام الجاسوسية الأمريكية الصناعية، وحرصها على جمع هذا القدر الضخم من المعلومات الذى يمر تحت نظرى. وإذ هم قوم عمليون. . . فلم يجدوا أى حرج فى الحصول منا على ما يطلبونه

من معلومات لمعرفة أسرار الصناعة عند غيرهم. والروس من جانبهم لم يتورعوا عن عمل نفس الشيء، ولكن بأساليبهم بعيدا عنا. وماذا عن فرنسا؟ أليس من الطبيعى أن تستفيد مختبرات ومؤسسات الطيران الفرنسية شيئا من صناعة الطائرات الروسية؟، ولماذا لا نتعلم من غيرنا ـ خاصة إذا كان قد قطع مراحل متقدمة فى هذه الصناعة ـ ونحن فى سبيل تطوير إنتاج الطائرات المدنية والحربية، ومن خلال ما نحصل عليه من معلومات نختصر الوقت والنفقات، ونستطيع أن نصمد للمنافسة، ونتيح فرص عمل لمهندسينا وعمالنا؟.

مالم أستطع فهمه، هو تخوفنا، وعجزنا معا فى هذا المضمار. هل المهندسون الفنيون عندما يتأففون ـ استعلاء ـ من دراسة الصناعة الروسية، وكشف أسرارها.. هل تنقصهم الرغبة، أو حب الاستطلاع المهنى؟. لقد توقعت منهم إشارة منبِّهة، ولكن لم يحدث. لماذا لا نستفيد من حصيلة المعلومات التى تتوصل إليها الفرقة السابعة، التى هى تحت قيادتى؟.. ولماذا تستفيد منها الصناعة الأمريكية وحدها؟. لقد امتد غيظى إلى الوقود الذى تتزود به الطائرات..!.

فقد لاحظ الأمريكان أن الطائرات السوفيتية تطير بلا مشاكل، بدرجات حرارة منخفضة جدا، أقل من ٣٠و٤٠. وقرر رجال المخابرات الأمريكية (CIA) أن الروس لابد يضعون مادة خاصة فى وقود طائراتهم، يحتفظون بسرها.

قضيت أياما كاملة فى مطار بورجيه، ومطار أورلى، ثم تنبهت فجأة إلى شيء تكرر أمامى ألف مرة، حتى إنه اختفى من عقلى الباطن، ولكن لم يلفت نظرى من قبل: قبل إقلاع أى من الطائرات بالمطار، يتحتم على الميكانيكى المسئول بالمطار أن يأخذ عينة من وقودها، يملأ به أنبوبة، يسلمها للإدارة الفنية المختصة. هذه العينة تعتبر دليلا قانونيا يُحْتفظ به بكل العناية اللازمة طوال رحلة الطائرة، وحتى الإعلان عن هبوطها سالمة فى آخر مطار لرحلتها. هذا الإجراء التلقائى ينفَّذ طبقا لتعليمات منظمة الطيران الدولية، وفى العالم كله.

وفى حالة وقوع حادث، تحلل العينة، للتحقق مما إذا كان قد أضيفت إلى وقود الطائرة مادة خطرة. إنه احتياط لازم، ويتم تلقائيا لصالح التحقيقات، وشركات التأمين.

لكن الروس ليسوا أعضاء فى منظمة الطيران العالمية (إياتا)، ويسخرون علانية من هذه التعليمات، ولهم نظامهم الخاص. ولما كانت العلاقة بين ملاحى الطائرات السوفيتية، وبين الفنيين العاملين على أرض المطار علاقة ودية مسترخية، فقد كان يحدث أحيانا أن يطلب الطيارون الروس من الميكانيكيين الفرنسيين على أرض المطار ـ مجاملة ـ إجراء بعض الاختبارات، للتأكد من سلامة ما يرون من أجزاء بالطائرة. كان ذلك يتم بطريقة غير رسمية أو معلنة.

لكن هذا لا يحدث بانتظام، وقد لا يحدث لفترة طويلة. ولو أننا أفلحنا فى الحصول على عينات من وقود طائراتهم بصورة منتظمة، ثم لاحظوا هم ذلك، فماذا يكون رد الفعل لديهم؟. لم أجد أمامى سوى وسيلة وحيدة: أن أستدعى إلى باريس أكثر الميكانيكيين الذين عرفتُهم ذكاء ومهارة، وهو «ريشار» الذى أرسلتُه إلى داكار ـ بالسنغال ـ وهى مركز تجمع استراتيجى للمعلومات بالنسبة لنا. لم أكن مستريحا لاستدعائه، لأهمية وجوده هناك، ولكن تحت إلحاح الأمريكان المستمر، طلبتُه.

إن «ريشار» مشهور عالميا بين الفنيين بالمطارات، لمهارته وبراعته الميكانيكية، وخفة يده، ولمعرفته بدقائق كل أنواع الطائرات، وأن أنبوبته الماصة المدرجة هى بمثابة عصاه السحرية. وهو يتميز بالفكاهة والمرح، فقد استطاع بين ضحكات الروس ومداعبتهم أن يسحب عينة من الوقود بأنبوبته الماصة، وقد نجح بالفعل فى السيطرة عليهم، فكانت تطير فى كل يوم مجموعة من الزجاجات المملوءة بالكيروسين (الوقود) الروسى إلى الولايات المتحدة على مدى أسبوع.

بعد نهاية الأسبوع، جاءنى صديقى «تيرو دو فوجولى» الذى يمثل إدارة

مكافحة الجاسوسية فى فرنسا لدى وكالة المخابرات الأمريكية (CIA)، فصاح مبتسما:

- رائع ما أرسلتَه.. ولقد أحضرت لك مجموعته من الصناديق الخاصة المصنوعة من الرصاص، وهى معقمة، فلا تفتحها إلا لحظة وضع زجاجات الوقود الروسى فيها، ثم.. هرب.. فى أول طائرة فورا إلى واشنطن..

وهنا بلغ بى الضيق والغيظ الذروة... إذ كيف تُستثمر جهودنا فى الخارج، ولا نستفيد نحن منها شيئا لتطوير صناعتنا بالداخل؟. هذا شىء لا يحتمل.. صارحت ريشار بمشاعرى:

- لقد طفح بى الكيل، أن أُعطى الأمريكان وحدهم الوقود الروسى. رتب نفسك على أن تزيد قليلا من كمية الوقود التى تسحبها. سوف أرسل قدرا منها إلى معامل الوقود بوزارة الطيران عندنا، لعلهم ينتبهون، ويجدون فيها ما ينفعهم.

إنها مبادرة شخصية من جانبى بالتأكيد. وبالفعل، صحا مهندسو المختبرات الفرنسية من سُباتهم، وطلبوا منى مواصلة إمدادهم بكميات أكبر من هذا الوقود، على الرغم من أن التجسس الصناعى لم يكن قد دخل بعد فى قائمة اهتمامات القيادات العليا، ثم طلب منى خبراء الطيران معلومات أخرى عن الطائرات الروسية. وقال لى أحدهم فى حماس تشوبه الحسرة:

- آه.. ياليتنا نستطيع اختبار محرك طائرة روسية عن قرب.. إنهم فى موسكو أكثر تقدما عنا بمراحل فى هذا المجال.

محرك؟.. كل شىء إلا هذا..!. إن سحب جرامات من الوقود فى أحد أطراف ممرات الهبوط أمر ممكن. أما محرك يزن عدة أطنان، ومثبت فى جناح طائرة توبوليف ١٠٤، فهذا مستحيل.. لكن العناية الإلهية كانت فى جانبنا.. كيف؟.

فى يوم، وفى مطار بورجيه بالذات، تعطلت طائرة تويوليف ١٠٤. لقد حدث بأحد محركاتها خلل (فوّت). أسرع الروس بطلب محرك جديد من موسكو، فجاء على طائرة شحن، وتم تركيبه، بدلا من المحرك التالف، بمعرفة الفنيين الروس، الذين لم يسمحوا لأحد غيرهم بلمس المحرك، لا القديم، ولا الجديد. فى تلك الأثناء.. كان رجالى يصورون من بعيد كل مراحل وتفاصيل عملية الفك والإحلال بالطائرة الروسية، إلى أن غادرت طائرة الشحن (التى أحضرت المحرك الجديد) المطار، ومعها الفنيون الروس، دون أن تأخذ معها المحرك التالف، ثم أقلعت الطائرة التويوليف ١٠٤. وقد علمت بعد ذلك أن الروس فضلوا شحن المحرك المعطوب بالسكة الحديدية، فراودتنى ـ على الفور ـ فكرة «استعارة» هذا المحرك لفترة زمنية محدودة، ثم إعادته إلى مكانه أثناء نقله من مخزن الشركة الروسية بالمطار إلى محطة السكة الحديد «سان دنيس»، حيث تعد له عربة نقل خاصة بالقطار.

علمت من مصادرى بالمطار أن الروس يبحثون عن شركة نقل موثوق بها، وفى الوقت نفسه رخيصة تكاليف النقل، لكى تتولى نقل المحرك من المطار إلى محطة السكة الحديد. هنا جاء دورنا للدخول فى هذه «اللعبة». بجرة قلم، تكونت فى الحال «شركة النقل العالمية»، تحمل علامتها المميزة فوق مطبوعاتها، وأوراق تسجيلها الرسمى. وعلى الفور، عُلِّقت لوحة نحاسية على باب أحد المكاتب الكثيرة، التابعة لهذه الشركة، والتابعة لنا فى كل أنحاء باريس، والمجهزة بحيث يدب فيها النشاط، وتعمل فى أية لحظة يطلب منها العمل لأى غرض من الأغراض: التجارية، أو التسويقية، أو الإعلامية، أو...... وهى بالطبع مكاتب شركات وهمية، سرعان ما تظهر بها سكرتيرات، وموظفون، وعمال، وأجهزة حديثة متنوعة. ولم تبق إلا عربات الشحن.

اتصلْنا بإحدى الشركات الوطنية الضخمة، فأعارتنا سيارات حمولة عشرة أطنان، وأوناش (روافع)، نحن فى حاجة إليها. وتم سريعا تغيير العلامات

والكتابات التى عليها، واستبدالها بعلامة شركتنا، واسمها، وعنوان مركزها الرئيسى.

درسنا الأسعار جيدا، ومن خلال رجالنا المنبثين داخل «إيروفلوت» ـ الطيران الروسية ـ تلقينا ـ مثل شركات نقل أخرى ـ طلبا بإرسال عطاء بنقل المحرك، فقدمنا أقل سعر. . ونحن على ثقة، بناء على مصادر معلوماتنا، مع ضمانات أوفر فى الأمان والحفاظ على التكتم، أى السرية حتى إتمام عملية النقل، وهذا ما يحرص عليه الروس. و«بدفعة» من رجالنا بشركة الطيران الروسية، وتأكيدهم للروس على أن شركتنا أولى بالثقة من غيرها، اختار الروس «شركة النقل العالمية» للقيام بتلك المهمة، مع موافقة مدير الشركة شخصيا، ووُقِّعت الأوراق الرسمية، وتم الاتفاق على أن يتم النقل فى اليوم بعد التالى مساء.

إنها فترة زمنية تكفى بالكاد، لكى ننظم خطتنا، وينفذ كل فرد مشترك فيها دوره عن ظهر قلب، وهو مغمض العينين، مثل: السيارة الشاحنة الرئيسية، وما يتقدمها من سيارة تفتح الطريق، وأخرى سرية مجهزة بلاسلكى، لتحجز ما خلفها من سيارات، وسيارات مراقبة مساعدة، للتدخل عند الضرورة أو المفاجآت، وسيارات على مفارق الطرق طوال خط سير الحملة، وحتى المواقع المختارة، ورجال عند إشارات المرور، معهم أجهزة لاسلكى لتلقى تعليماتنا. . .

لم أنم تقريبا طوال هذه الفترة الزمنية، تنفيذا للخطة، وللاطمئنان على سلامة كل صغيرة وكبيرة من أجزائها.

فى ملابس العمل الزرقاء، جلستُ فى السيارة الشاحنة الضخمة، ممثلا للشركة العالمية للنقل، وبجوارى السائق «جان ـ مارى» خبير الأقفال السابق، وهو الآن «جوكر» الفريق كله. إن منظرنا وهيئتنا يؤكدان أننا الاثنين بالفعل من عمال الشحن.

وصلْنا إلى المطار ـ بورجيه ـ فى الثامنة مساء، وتعمدنا التأخير عن الموعد المحدد، حتى يتم انصراف كل العاملين بشركة الطيران الروسية، ومخزنها

بالمطار. إن مهمتنا هذه تتعلق فقط بإجراءات الجمارك. ويكفى تقديم الأوراق الرسمية المختومة، ليتم نقل الصندوق الضخم الذى يحوى المحرك، وهو مغلق جيدا، وعليه أختام الشركة الروسية، ومنقول «ترانزيت»، أى مجرد عبور إلى الخارج بدون جمارك. وجدنا فى انتظارنا اثنين فقط من الروس، راقبا عملية نقل صندوق المحرك بالمرفاع «الونش»، وساعدانا مع رجال الجمرك فى النقل، ثم وقعتُ لهما الأوراق بالاستلام، وقفزت إلى مقصورة الشاحنة بجوار جان ـ مارى، السائق. ظل الروسيان فى مكانهما يرقباننا. هل سيتبعاننا فى الطريق؟. أرجو ألا يحدث ذلك.

تحركت شاحنتنا العملاقة. وبعد قليل، ظهرت أمامنا بشكل طبيعى ـ دون أن يلحظ أحد ـ سيارة المقدمة (ماركة رينو)، ولمحتُ خلفنا سيارة المؤخرة تتبعنا تماما. كل شىء إذن يجرى وفق الخطة الموضوعة. من خلال اللاسلكى المخبأ فى شاحنتنا، اتصلت بالسيارة الخلفية (سيتروين)؛ فعلمتُ من قائدها أن الرجلين الروسيين يتبعاننا فى سيارة رينو. إنهما إذن يعتزمان مراقبتنا حتى محطة القطار، وهذا أمر مُقلق لنا. لابد من إخراجهما بعيدا عن طريقنا وبسرعة، عند التقاطع القادم مع الطريق المؤدى إلى «دونْيى»، لكن لابد أن يبدو ذلك بشكل طبيعى تماما، لا يثير لديهما أى شك، بل ويكون نتيجة حادث عارض، وقع بسبب خطأ منهما.

فتحت اللاسلكى، بحيث يسمعنى من فى سيارتىْ المقدمة والمؤخرة، ورجالى عند إشارة مرور التقاطع القادم، ثم خاطبت السائق جان مارى الجالس إلى جوارى، قائلا بتحديد ووضوح:

ـ عند الاقتراب من التقاطع أَبْطِئْ سرعتك قليلا، مع اقترابك من إشارة المرور الخضراء. بمجرد وصولك عند التقاطع، يُضاء النور الأصفر، فأَبْطِئْ أكثر، موهِماً أنك ستقف، ثم انطلق قبل إضاءة النور الأحمر لتعبر التقاطع: سيارة المؤخَرة تَهُم بالانطلاق خلفك، ثم تتوقف فجأة مع ظهور النور الأحمر، فتصطدم بها سيارة الروس. واضح للجميع؟.

من خبرتى، كنت أعلم أن الروس لن يدعوا الشاحنة تفلت بعيدا عن أنظارهم، وأنهم سيحاولون اللحاق بها بأية وسيلة. . لكن سيارة المؤخرة التى تتبعنا تعرف كيف ستتعامل معهم. وضعنا فى خطتنا أن الروس ـ وقد أثارهم الموقف ـ سيحاولون الخروج من المأزق بالانسحاب من خلف سيارتنا السيتروين (بالمؤخرة)، الواقفة عند النور الأحمر، لينطلقوا خلف شاحنتنا، رغما عن إشارة التوقف. وهذا ما حدث بالفعل. . ففى تلك اللحظة، انطلقت سيارة نقل صغيرة كانت واقفة قرب الإشارة، لتقترب من سيارة الروس، التى تحاول التحرك و«تقفل» عليها الطريق بالوقوف بجوارها تماما. . وتم ذلك كله على نحو طبيعى.

مع تنفيذ هذا السيناريو سريع الإيقاع، ومع الصفير الحاد المزعج لفرملة السيارتين المفاجئ (سيارة المؤخرة عند ظهور الضوء الأحمر، وسيارة النقل الصغيرة) هاجت مشاعر الروسيين، فصاحا وعلا صراخهما يطلبان السماح لهما بالتحرك. وهنا تصطدم سيارتهما بسيارتنا التى أمامهما (السيتروين)، فينزل قائدها غاضبا ثائرا، ويمنعهما من مواصلة السير، حتى يتم التحقيق القانونى اللازم، وهذا من حقه. ومن خلال المرآة التى أمامى بالسيارة الشاحنة المنطلقة فى طريقها، شاهدت ـ مبتعدا ـ كل بوادر المشهد.

جن جنون الروسيين . حاولا الهرب بسيارتهما، لكن رجلنا الذى أُضيرت سيارته بسببهما كان ضخم الجثة، قوى البنية، حال بينهما وبين التحرك، وصرخ مناديا على سيارة الشرطة، التى كانت رابضة ـ وفق خطتنا ـ قريبا من إشارة المرور. أخرج سائق السيارة الروسى حافظة نقوده، محاولا استرضاء رجلنا بأى ثمن، لكنه رفض، مدعيا أنه كان فى طريقه إلى عقد صفقة كبيرة، ولابد من إثبات الواقعة رسميا فى محضر الشرطة، حتى لا تضيع حقوقه المالية، وهو فى أثناء ذلك يصرخ ويسب، ويتهم السائق الروسى بالتهور والحماقة، وعدم احترام قوانين ونظام البلد الذى يستضيفه، و. . . . . .

خرجنا الآن من رقابة الروس. . فأسرعنا بالاتجاه إلى أقرب قاعدة جوية

«تريكون» فى سرِّية كاملة. عبرنا البوابة الحربية بهدوء، حيث كانوا فى انتظارنا، ومعنا الصيد الثمين. فى ظلام الليل الدامس، تقدمتنا سيارات إرشاد تقودنا عبر الممرات المعتمة، حتى انتهت بنا أخيرًا إلى حظيرة (هانجر) للطائرات.

ما هذا الاستقبال الحافل؟. نحو ثلاثين من الضباط ـ بالملابس الرسمية ـ والمهندسين، والفنيين، والخبراء، وكلهم على أعلى مستوى، ينتظرون فى شوق، وكأنه حفل العرض الأول لفيلم مثير.. كان معهم أيضا بعض رجالى من خبراء التصوير، وفض الأختام، وإعادتها تماما كما كانت. وبمجرد توقف الشاحنة، تحولت حظيرة الطائرات إلى خلية نحل نشطة داخل غرفة عمليات تجرى بها جراحة خطيرة.

ـ لحظة من فضلكم أيها السادة.

صِحْت فيهم، وأنا واقف بملابس عمال النقل الزرقاء، وأخاطبهم بكل الصرامة والجد:

ـ راقبوا جيدا كيف شئتم، وصوروا كل ما شئتم، ولكن حذار، ثم حذار، ثم حذار أن تلمسوا أى جزء من هذا المحرك..!، أو أن تحاولوا نزع أى جزء منه..!. اذكروا جيدا أيها السادة أن هذه عملية متعلقة بأعلى مستويات الأمن، وفى منتهى الخطورة بالنسبة للدولة. هذا المحرك يجب أن يظل على نفس حالته التى خرج بها من المطار، لا يمس، ولا يكتشف فيما بعد بأية وسيلة أنه تعرض للفحص..

سألنى رئيس المجموعة:

ـ كم تعطينا من الوقت؟..

قلت: الساعة الآن العاشرة والنصف (مساء).. لديكم متسع حتى الثانية والنصف صباحا، ولا دقيقة واحدة بعد ذلك.

أقبل الجميع على العمل، كلٌّ فيما يخصه، بهمة وحماس وتدبر، فتلك فرصة كانوا يحلمون بها: أن يتعرفوا من قريب على بعض أسرار التفوق الصناعى السوفيتى. وما أسعدنى أن أسهم فى تحقيق هذا الحلم.

فى الثانية صباحا لم ينتهوا بعد من تفحصهم ودراستهم المتأنية. وفى الرابعة والنصف كان المحرك داخل صندوقه الكبير، مثلما كان بالضبط، مُحكم الأقفال والأختام، بعد أن صوروا آلاف الصور، ورسموا مئات التخطيطات (الكروكى).

عندما حضر الروسيان إلى محطة سان دنيس فى السادسة صباحا، كان الصندوق الخاص بالمحرك فى مكانه داخل العربة الخاصة الملحقة بالقطار، فتأكدا من سلامة الأختام، وسلامة النقل.

وبعد ثمانية أيام، تلقيت خطابا من وزير الدفاع (الفرنسى)، شاكرا جهودنا التى أكسبت خبراء الطيران نحو عشر سنوات من الخبرة التى حصلوا عليها من «العملية» التى قمنا بها.

وزير الدفاع.. جاسوس؟

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ورضى عنه، إذ قال: «قول الحق لم يدع لى صديقا». نعم: فذكر الحقائق قد ينفع المصغين إليها، لكنه ـ غالبا ـ يسىء إلى من يذكرها لهم، أو يذكرهم بها، لأنهم لا يحبونه. لذا. . يحجم البعض عن ذكر الحقيقة، فيؤثرون الصمت.

لكن الصمت هنا سخيف. . مخيف، لأن الحقيقة مفزعة، مروعة، بشعة.

وإن تاريخ الجاسوسية طويل، وحمله ثقيل، غير أن تاريخ الخيانة أطول، وفواجعها أثقل. الخيانة بكل صورها مرفوضة مرذولة، لا مبرر لها، ولا عذر لمرتكبها. . فهى مخطَّأة بشرائع السماء، مُجَرَّمَة بقوانين الأرض. وخيانة الوطن ـ أى الدولة، والمجتمع، والأهل، والناس ـ وما فيه من أحياء وثروات، هى فى الشرائع إحدى الكبر، وفى العقوبات تستحق البتْر : تطهيرا للوطن ممن أراد به الضرر، كإزالة الخلية الخبيثة، والعضو الفاسد المفسد للجسم.

حقا، إن الخيانة فعل إرادى ردىء دنىء. والأشد رداءة وقبحا، أن يأتى هذا الفعل ممن يحمل مسئولية كبيرة فى الدولة، ممن يؤتمن على أسرارها، وأمنها، ومستقبلها، فيكشف السر لأعدائها ـ سواء فى السلم، أم الحرب ـ ويهدد بذلك أمنها، وحاضرها، ومستقبلها. ومقابل ماذا؟. . مال؟، متاع؟، متعة؟. . إذ ما أرخص الثمن، وما أحقر البائع.

ومن أشهر الخائنين الخبثاء فى عصرنا ـ وفى الشر شهرة ـ «كيم فيلبى»، الذى سبب للحكومة البريطانية ـ وبالتالى للدولة ـ أضرارا بالغة، لأنه ابتداء

من عام ١٩٥٦، وكان مسئولا عن قسم مكافحة الجاسوسية بالمخابرات البريطانية، سوَّلتْ له نفسه أن يكون عميلا للاتحاد السوفيتى، ويزوده بأدق الأسرار التى تحت يده. . فلما أحس بالشبهات تحوم حوله، هرب من بريطانيا إلى موسكو عام ١٩٦٣ ليقيم بها.

وفيلبى كان واحدا من خمسة، استطاعت المخابرات السوفيتية أن «تشتريهم»، بعد أن وضعت عينها عليهم، وهم طلاب نابهين بجامعة كامبريدج بين عامى ٣٤ ـ ١٩٣٦، وتوقعت لهم مستقبلا مرموقا فى مراكز عالية فى بريطانيا. وبالفعل، التحق اثنان منهم: «ج. بورجس»، و «دونالد ماكلين» بالسلك الدبلوماسى، فلما شعرا باقتراب افتضاح أمرهما بالخيانة، أسرعا بالهرب إلى موسكو عام ١٩٥١. وبعد سنوات طويلة اكتشفت خيانة رابعهم «أنتونى بلنْت» مؤرخ الفن المقرب من الملكة إليزابيث، الذى اعترف بجرمه وبخيانته أمام المحققين البريطانيين، بعد أن كَشَفَ سره عام ١٩٧٩ الكاتب الصحافى «أندروبويل»، ثم خامسهم: «جون كيرْنكروس» الذى أحيل إلى المعاش، فسافر متخفيا للإقامة فى فرنسا، لكنه وقع فى قبضة سكوتلانديارد عام ١٩٩١.

ومن عجب، أن يعلو صوت، بل أصوات ـ ومازالت ـ تنادى بأن الحياة الشخصية أو السلوك الذاتى خارج نطاق الوظيفة والمنصب ـ مهما كان كبيرا أو خطيرا ـ لا دخل للمجتمع فيه، لأنها «حرية شخصية». . وكأنما القيادة ليست قدوة، والمسئولية الوظيفية ـ أو السياسية ـ منفصلة عن المبادئ والقيم الأخلاقية، وأن المرء يمكن أن يكون داعرا، وفى نفس الوقت زعيما، أو عربيدا بالليل، ووزيرا بالنهار. وقد حدث. . . ومازال يحدث:

وزير الحرب العجوز فى حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا بين عامى ٦٠ ـ ١٩٦٣ «جون بروفومو» وقع فى غرام شابة حسناء من بنات الليل، اللاتى يسهل استدعاء إحداهن تليفونيا للمتعة، لوقت قصير محدود بأجر كبير معلوم. وظلت تلك الحسناء المبتذلة «كريستين كيلر» تروح وتغدو مع وزير الحرب

بروفومو فترة طويلة على مشهد من الجميع، دون خجل من جانبه، ولا اكتراث من حكومته ومجتمعه.. لكن الخجل أضحى فضيحة، وعدم الاكتراث أمسى كارثة، عندما علمت السلطات أن «المحبوبة» كريستين «يحبها» شخص آخر، ليس حب غرام وعشق، وإنما حب ابتزاز وتسخير: فهو «إفْجونى إيفانوف» ضابط المخابرات الحربية الروسية، الذى يعمل تحت قناع وظيفة دبلوماسية بالسفارة السوفيتية بلندن!.

وقامت الدنيا فى بريطانيا ولم تقعد، لا دفاعا عن هيبة منصب الوزير، ولا اعترافا بخطيئة الفصل بين الأخلاق والمسئوليات، وإنما لمعرفة شىء واحد: هل تسربت من فم جون بروفومو أسرار عسكرية إلى أُذن كريستين كيلر أثناء أحاديث «الوسادة الناعمة»؟.

وكان ذلك سببا فى سقوط حكومة ماكميلان «المحافظة..»، وتولى حكومة العمال السلطة [1].

وفى ألمانيا...

«جونتر جيّوم» من ألمانيا الشرقية (قبل توحيد ألمانيا) يصعد بسرعة درجات سلم المناصب فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى فى ألمانيا الغربية، حتى أصبح السكرتير الخاص لرئيس الحزب والحكومة، المستشار «براندت» عام ١٩٧٤.

---

(١) مجرد إشارة عابرة تقتضيها المناسبة: كان النعمان بن على بن فضْلة واليا للخليفة عمر بن الخطاب على ميسان، فبلغ أمير المؤمنين أن النعمان قال شعرا فى الخمر، جاء فيه:

ألا أبلغ الحسناء أن خليلها ... بميسان يُسقى فى زجاج وحَنْتم

.. لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

(الحنتم: الجرة الخضراء ـ الجوسق: القصر)..

فكتب إليه عمر: «بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب. شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير». أما بعد: فقد بلغنى قولك: لعل أمير المؤمنين يسوءه.... وأيْم الله لقد ساءنى. ثم استدعاه وعزله، فقال النعمان: والله يا أمير المؤمنين ما كان شىء من هذا، وما كان إلا فضْل شعر وجدته، وما شربتها قط. فقال عمر: أظن ذلك.. ولكن لا تعمل لى عملا أبدا، فأقام النعمان بالبصرة يغزو مجاهدا حتى مات!.

وتحت ستار تولية مسئولية الكشف عن الفارين وأخونة المتعاونين مع القسم المعادى الألمانى (أى ألمانيا الشرقية) ظل جونتر طوال ثمانية عشر عاما يمد المخابرات السوفيتية والألمانية الشرقية بأخطر المعلومات وأكثرها سرية، حتى إن افتضاح أمره أحدث هزة سياسية عنيفة فى عدد من الدول الأوروبية، وأسقط حكومة براندت، وقضى على مستقبله السياسى. . وحكم على جونتر بالسجن ثلاثة عشر عاما، ثم أفرج عنه عام ١٩٨١ بمبادلته بعدد كبير من الجواسيس السجناء فى ألمانيا الشرقية.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية..

فى ليلة شديدة الحرارة عالية الرطوبة من شهر أغسطس عام ١٩٨٥، وفى بهو كنيسة صغيرة أنيقة، ترتفع فوق تل فى آرلينْجتون بولاية فرجينيا، تبادل «الدريتش إيمْس» العهد والقسم مع عروسه «ماريا دل روزاريو كاساس». إنه الزواج الأول بالنسبة لماريا، والثانى لألدريتش. صبر المدعوون لشهود مراسم عقد القران، واحتملوا الحرارة والرطوبة، وتوقعوا دعوتهم بعد ذلك لمأدبة فاخرة تليق بالمناسبة السعيدة، لكنهم فوجئوا بتقديم الشراب فقط، مع اعتذار خجول من إيمْس بقلة ذات اليد، بعد أن استنفدت إجراءات طلاقه من زوجته السابقة «نانسى» كل ما يملك من مال وادخار. وصدقه المدعوون، وكان لابد أن يصدقوا. . . فهم يعلمون جيدا أن هذا الطلاق الذى تم منذ أسبوعين فقط فى مدينة نيويورك، تركه خالى الوفاض، أو كما قال هو: فقيرا مسكينا.

إن المدعوين ليسوا غرباء، فمعظمهم زملاء لإيمْس ونانسى فى وكالة المخابرات الأمريكية (CIA). أما ماريا ـ الزوجة الجديدة ـ فهى فقط التى تعلم غير ذلك. . فقبل عقد الزواج بثلاثة أشهر فقط، أودعت مبلغ تسعة آلاف دولار فى حسابهما المشترك فى البنك، ثم توالى الإيداع، حتى أصبح ليلة الزفاف ٣٨١٠٠ دولار، بخلاف حسابين آخرين لماريا وحدها، وخمسة أنواع من الحسابات باسم إيمْس، وكلها فى نفس البنك. . وهى، وهو يعلمان علم اليقين أن هذه الأموال جميعها قادمة من. . موسكو.

في تلك الليلة، كان الدريتش إيمْس مشغول الذهن، بادى القلق.. فقد تم الاتفاق بينه وبين أحد المسئولين بالمخابرات السوفيتية القادم من موسكو، على أن يزوده إيمْس يوميا بتقرير موجز عما تتوصل إليه المخابرات الأمريكية من معلومات عن عملاء المخابرات السوفيتية داخل الوكالات والأجهزة الأمريكية، وفي دول الغرب. وزاد من انشغاله وقلقه، أن رؤساءه فى وكالة المخابرات الأمريكية ينظرون إلى زواجه من ماريا روزاريو نظرة تجهم وعدم ارتياح. إن أول لقاء لهما كان فى عام ١٩٨٢، وكان كل منهما يشغل وظيفة فى مدينة مكسيكو، هو: كضابط عمليات للمخابرات (CIA)، وهى: كملحق ثقافى فى سفارة كولومبيا.

فى العام التالى، وضعها فى قائمة الذين يحصلون على رواتب مالية من وكالته(CIA) كمرشدة، أو مزوِّدة بالأخبار والمعلومات، ثم تركا معا المكسيك فى نهاية ذلك العام، وأصبحت ماريا روزاريو فتاته، أى عشيقته. والقاعدة المتبعة داخل الـ (CIA) أن ضباط العمليات لا يقيمون علاقات خاصة مع مندوبيهم، أى الذين يجندونهم للعمل، ولا يتزوجون عادة من أجنبيات. ومع ذلك.. فإن إيمْس تجاوز المألوف، وفعل الاثنين معا.

وعلى مدى تسعة أعوام بعد ذلك، باع الدريتش إيمْس إلى المخابرات السوفيتية KGB (ثم خليفتها الروسية MBRF)، أسماء العملاء السوفيت أو الروس الذين جندتهم المخابرات الأمريكية، بالإضافة إلى معلومات على جانب كبير من الأهمية والسرية، تتعلق بنشاط المخابرات الأمريكية الخاص بالاتحاد السوفيتى. وخلال هذه السنوات، أودع الزوجان مبالغ نقدية كبيرة فى بنكين بولاية فرجينيا وغيرها، وفى بنوك أجنبية بالخارج، بلغ مجموعها نحو مليونين ونصف مليون دولار، كلها عن طريق روسيا، مقابل إفشاء أسرار الأمن القومى الأمريكى.

ألقى القبض فى أول مارس ١٩٩٤ على الدريتش ـ ٥٢ سنة، وزوجته ـ

٤١سنة ـ فى أرلنجتون بفرجينيا بتهمة التآمر والتجسس وإفشاء الأسرار العليا للدولة التى تمس أمنها وسلامتها. وفى رأى البعض، أنها قد تكون أسوأ قضية خيانة لوكالات التجسس فى تاريخ الولايات المتحدة كله.

وبعد القبض عليه، رفض إيمس الكلام،ردا على أسئلة التحقيق، لعله بهذا الصمت المطبق، يحصل على حكم مخفف. أما الزوجة، فقد أبدت استعدادها للتعاون مع المحققين، مقابل وعد بتخفيف الحكم. وكان اهتمام السلطات المعنية أولا، هو الإسراع بدرء الصدع، ودرء الخطر، خاصة أن الدريتش يشغل منصبا كبيرا (مديرا) داخل وكالة المخابرات الأمريكية.

إنه يعرف أسماء جميع الجواسيس الأمريكيين والعملاء الروس داخل روسيا، ويعرف تفاصيل معظم العمليات، وهو يعلم أنه السبب فى إعدام عشرة من هؤلاء ـ على الأقل ـ بأيدى الروس. كما يعلم أنه دمر خطط وعمليات الوكالة الأمريكية، الخاصة بالاتحاد الروسى بعد الحرب الباردة، وعَرَّضَ الأمن القومى الأمريكى لمخاطر، تحتاج فى دفعها وإصلاح ما ترتب عليها إلى وقت طويل، وتغيير فى نظام الوكالة من الداخل، وأساليبها فى الخارج.

هاج الكونجرس الأمريكى وماج. أما الرئيس الأمريكى ـ كلينتون ـ فقد طلب من روسيا سحب جميع جواسيسها من واشنطن فى الحال، ودعا إلى التعاون لإصلاح ما فسد. وسافر فريق من كبار المسئولين بالـ CIA إلى موسكو للحصول على معلومات من إدارة المخابرات الخارجية، لكنه عاد بِخُفَّىْ حنين، وعلى الفور أمر الرئيس كلينتون بطرد «ألكسندر ليسنكو» من واشنطن، وهو الدبلوماسى الروسى المعروف بأنه أكبر رأس للمخابرات الروسية فى الولايات المتحدة.

إن هذه الواقعة هى فى إطارها العام «فضيحة» لوكالة المخابرات الأمريكية، إلى جانب أنها مدمرة فى مسارها ونتائجها.. إذ كيف يتحول مدير مسئول كبير داخل تلك المؤسسة العاتية المتعالية، التى تمتد أسماعها وأبصارها وأصابعها إلى

كل شبر وفِتْر[1] فى هذا العالم، كما تدعى وتشهد الحوادث؟، وكيف يخفى عليها هذا الأمر، فتسمع وترى ما يجرى فى أطراف الأرض، ويغشى بصرها، وتصم أذنها طوال تسع سنوات، فلا تبصر ما تحت أقدامها، أو بين أيديها، وتحت سقف بيتها؟.. وتدور أسئلة كثيرة، كبيرة. مثلا: متى وأين تم تجنيد الدريتْش لحساب الروس؟. هل هو الذى جنَّد زوجته لحسابهم، أم العكس؟. لماذا لم يلفت الأنظار أن مرتبه السنوى ٦٩٤٣ دولاراً، بينما اشترى بيتا بمبلغ ٥٤٠ ألف دولار، وسيارة جاجوار ثمنها ٦٥ ألف دولار، وليست له مصادر مالية واضحة؟. متى وكيف ادركت وكالة المخابرات CIA ومكتب التحريات الفيدرالى FBI خيانة إيمْس وزوجته؟، والأخطر من ذلك: هل يوجد عملاء - جواسيس - لروسيا أو لدول أجنبية داخل الـ CIA ؟، وكيف التأكد؟.

وماذا عن الوكالتين الأخريين: وكالة مخابرات الدفاع DIA ووكالة الأمن القومى NSA ؟. إن هذه الوكالات الثلاث هى الأجهزة الرئيسية للمخابرات الأمريكية. وبعد «خمود» الحرب الباردة بين دول النظام الرأسمالى الغربى ودول الشيوعية المنهارة فى الشرق، قرر الكونجرس الأمريكى تخفيض عدد العاملين بهذه الوكالات بنسبة ١٧,٥٪ حتى أكتوبر ١٩٩٦، تقليلاً للنفقات، وهى نفقات ضخمة.. فقد بلغت ميزانية الـ CIA وحدها عام ١٩٩٦: ٢٨,٥ بليون (أى ألف مليون) دولار، علما بأنها خُفضت ١٤٪ عن ميزانية ١٩٩٠.

إن وكالة CIA تختلف عن زميلتيها فى أنها تسرق الأسرار من الدول الأخرى. وهى تنتشلها وتتلقاها من عملائها، عن طريق التصوير والبث عبر الأقمار الصناعية، وتدفع بسخاء للعملاء والوكالات الأجنبية، لكى تلتقط تلك الأسرار من حكوماتها. هذه العمليات والخدمات التى تقدمها للحكومة الأمريكية لا تستطيع أن تقوم بها، أو تحصل عليها وزارة الخارجية، أو وزارة الخزانة، بل ولا تحاول أن تُقدم عليها. وأصبح لزاما على الـ CIA أن تستخدم بعض

---

(١) الشبر: مقياس باليد معروف، والفتر (بكسر الفاء وسكون التاء): المسافة بين طرف إصبعى الإبهام والسبابة المتجاورين إذا فُتحا.

الوسائل والأساليب والأدوات التى كانت تستعملها فى الاتحاد السوفيتى، لكى تمارس بها عمليات جديدة فى مناطق ساخنة، أو متأزمة فى هذا العالم.

كان «كارلتون» إيمْس، والد الدريتش مدرسا للتاريخ بكلية المعلمين فى «ريفرزهيل» بولاية ويسكونسين، فلما انتقل إلى ولاية فرجينيا مع زوجته «راشيل» المدرسة، وابنه وابنتيه، اشتغل محللا بوكالة المخابرات CIA وقبل وفاته، أَلْحَق ابنه الدريتش للتدريب بتلك الوكالة، وذلك عام ١٩٦٢. ولم يكن قد حصل على شهادة جامعية بعد، تؤهله ـ كما كان يأمل ـ للعمل كضابط عمليات.. فالتحق بجامعة جورج واشنطن، لينال فى عام ١٩٦٧ شهادة فى التاريخ.. فبدأ تدريبه كضابط عمليات: تعلم مداخل ومخارج الكشف عن جواسيس الأعداء، وأساليب تجنيدهم كعملاء للوكالات الأمريكية. وفى نهاية التدريب لم يظهر تميزا أو تألقا مطلوبا فى هذه النوعية من رجال المخابرات، فسبقه زملاؤه، وربما خلَّف ذلك فى نفسه بعض المرارةوالضغينة.

فى عام ١٩٦٩ سافر هو وزوجته نانسى ـ التى تعمل معه فى الـCIA إلى أنقرة بتركيا، فكان أول أعماله التنفيذية تجنيد عملاء للولايات المتحدة من بين الموظفين المحليين التجاريين والصحافيين بالسفارة الروسية (الاتحاد السوفيتى آنذاك) ممن يعملون فى مناطق الحدود الشمالية بين تركيا والاتحاد السوفيتى. ويُذكر عنه فى تلك الفترة أنه كان ضعيفا واهنا رديئا، يفعل ما يجب عليه، وينفذ ما يؤمر به، ولكن بلا جاذبية، أو تأثير حسن.. ثم عاد فى عام ١٩٧٢ إلى مقر رئاسة الوكالة فى لانجلى، ليقضى خمس سنوات فى تنشيط قدراته التحليلية. وفى العام الذى انتُخب فيه جيمى كارتر رئيسا، نُقل إيمْس إلى مدينة نيويورك، ليؤدى العمل الذى مارسه معظم رجال المخابرات الذين يعملون فى حى مانهاتان بتلك المدينة: اقتناص «أشياء مفيدة» من داخل مقر الأمم المتحدة، فسكن هو وزوجته على مقربة من ذلك المقر، وأثبت ـ على العكس من أنقرة ـ إجادة وتفوقا خلال السنوات الأربع هناك. ودائما كان عمله مرتبطا بالسوفييت، وكتلة أوروبا الشرقية، بهدف اصطياد عملاء ذوى قيمة.. فلما نقل

للعمل فى مدينة ميكسكو عام ١٩٨١، لم تصحبه نانسى. فى ذلك الوقت أطلق الرئيس الأمريكى ريجان على الاتحاد السوفيتى: «امبراطورية الشيطان»، فكان نشاط الـ CIA والـ FBI مكثفا فى جمع المعلومات، وتجنيد العملاء السوفيت.

وبينما كان إيمْس يقضى سهرات العشاء بالمكسيك، ويزرع الجواسيس من بين ضباط المخابرات السوفيت KGB، التقطت له وكالة التحرى FBI سرا صورا مع كبار الجواسيس السوفيت المقيمين فى واشنطن: العميد (فالرى مارتينوف)، الخبيرالعلمى الذى يعمل بالسفارة السوفيتية تحت قناع الملحق الثقافى، والرائد (سيرجى موتورين) الخبير فى الشئون السياسية. هل أفلح إيمْس فى تجنيد أحد السوفيت خلال فترة عمله بالمكسيك، أم أنه وقع تحت تأثيرهم؟. الشىء المؤكد أنه نجح فى إتمام اتصال، سوف يغير مجرى حياته: ماريا دل روزاريو كاساس، الملحقة الثقافية بسفارة كولومبيا، شهد لها وزير الخارجية الكولومبية بالكفاءة العالية، والذكاء المتوقد. وضعتْها ال CIA فى عام ١٩٨٢ تحت الدراسة والمراقبة، وبعد عشرة شهور أُضيفت إلى قائمة عملاء الوكالة.

إنها من أسرة عريقة فى كولومبيا. كان أبوها عضوا مبجلا فى مجلس الشيوخ (سيناتور). وهى أيضا تتميز بالاحترام والتقدير كأستاذة للغة اليونانية وآدابها، والأدب المعاصر بجامعة إنديز من عام ١٩٧٦ إلى ١٩٨٢. يَذْكرها طلابها بالفطنة والثقافة الرفيعة، ويصفها الأساتذة والزملاء باحترام النظام والمسئولية. وخلال تلك الفترة، أقامت علاقات طيبة وثيقة مع كبار الكتاب والأدباء بالمنطقة، من بينهم: جابرييل جارسيا ماركيز، الحاصل على جائزة نوبل.

والغريب الذى ظل سرا غامضا: ما الذى يجمع بين أستاذة عاشقة للقراءة والاطلاع وتحصيل المعارف، وبين موظف غير مثقف، عازف عن الاستنارة بالمطالعة واقتناء الكتب؟. والسؤال الأهم والأخطر: من منهما جرجر الآخر

إلى مسار الخيانة الوطنية، وبيع أسرار الدولة؟. هل هى التى جندْته لحساب من يسيطرون عليها فى موسكو؟، أم هو الذى أغراها أولا للعمل - فى كولومبيا - لحساب الولايات المتحدة، ثم أغواها بعد ذلك بالعمل لحساب الروس؟. رجَّح بعض المحققين فى القضية أنه هو الذى بدأ، ثم تبعته هى، وسارت معه وبه بقية الطريق.

فى عام ١٩٨٣ تَفْقد ماري عملها فى السفارة الكولومبية، وفى المخابرات الأمريكية، بينما يُنقل الدريتش إلى مقر رئاسة الـ CIA، ليعمل حتى عام ١٩٨٥ رئيسا لفرع مكافحة التجسس السوفيتى. إنه ارتقاء فى المنصب، مع زيادة فى الواجبات والمسئوليات، ثم يُنقل إلى روما، مع التصريح له بالاتصال التليفونى للتحدث مع الموظفين الرسميين بالسفارة السوفيتية، وعقد لقاءات معهم. وتقضى قواعد العمل بوكالة المخابرات "CIA" بأن يتم إبلاغ القيادة بها صراحة ومسبقا بمواعيد تلك الاتصالات والمقابلات، ثم كتابة تقرير عنها بعد إتمامها. ومن هنا بدأ إيمس يُجرى اتصالات جانبية غير معلنة، ولا واردة فى تقاريره، وذلك فى غفلة من رؤسائه.

أول إشارة فى تقارير الوكالة الفيدرالية للتحرى (FBI) عن اجتماع إيمس بالسوفيت بدون تصريح ولا تقرير عنها، جاءت بعد ستة أشهر من زواجه بماريا روزاريو (خلال منتصف فبراير ١٩٨٦). وفى اليوم التالى عقب هذا الاجتماع أودع الزوجان (ايمس وماريا) مبالغ مجموعها ٢٤ ألف دولار فى أحد البنوك الأمريكية. وفى الوقت نفسه تقريبا، تلقت وكالة CIA، ووكالة FBI ثلاثة مؤشرات خطيرة، تفيد بوجود جاسوس داخل محيطهم، وذلك فى أعقاب اكتشاف بعض الأمريكيين الذين يتجسسون على الأراضى الأمريكية لحساب السوفيت، وهروب عدد منهم إلى موسكو قبيل إلقاء القبض عليهم. هل كان إيمْس وراء فرارهم السريع، محتفظا ببرود أعصابه؟.

فى الاختبارات الدورية التى تجريها الـ CIA على ضباطها كل خمس

سنوات، ومنها استخدام جهاز كشف الكذب،وفى اختبار عام ١٩٨٦ بالذات، أظهر الدريتش إيمس ثباتا متماسكا وهدوءا باردا. . لكن زملاءه لاحظوا تغيرا في سلوكه. . فعلى الرغم من تكاسله الشائع، ظهرت عليه فى فترات بعد عام ١٩٨٦ روح الفروسية والإقبال على الشراب (الخمر) والرقص، وشوهد كثيرا فى مكتبه جالسا فى استرخاء، وهو يطالع ملفات قديمة عن مكافحة التجسس. كما أنه كان يلتقط منها معلومات تفيده. . كما أن ماريا ـ زوجته ـ كانت تكثر التردد على زوجات الدبلوماسيين، وتثرثر طويلا معهم، أما هو، فكثير الإقبال على الأماكن المتألقة الفاخرة، وكل منهما يضيف ودائع إلى حساباته فى بنوك سويسرا، وكولومبيا، وإيطاليا، بل إن بعض الودائع كان باسم والدة ماريا.

فلما رجعا إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٩، هو إلى مقر رئاسة الـ CIA، وهى إلى دراسة الفلسفة بجامعة جورج واشنطن، أخذا يرتِّبان لحياة ينعمان فيها بالأرصدة المتزايدة: شراء بيت نقدا (٥٤٠ ألف دولار)، وأثاث فاخر، وسيارة فارهة، ومربية لابنهما الصغير، يشترطان عليها أن تذهب به إلى خارج البيت، بمجرد حضورها فى التاسعة صباحا، ولا تعود إلا فى وجود أحدهما أو كليهما، وفى البيت غرف لا تدخلها مطلقا.

وحتى ذلك الحين، عام ١٩٨٩، لم تتوصل أجهزة الـ CIA، ولا FBI إلى معرفة (الجاسوس) المرجح أنه مزروع داخل وكالتيهمـا منذ ١٩٨٥. وأخيرا، بين عامى ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، بدأت الشبهات تحوم حول الدريتش، واستطاعت الـ FBI أن تتسلل إلى الكومبيوتر الخاص بالدريتش فى بيته، وتعثر فى ذاكرته على رسائل خاصة منه إلى موسكو، وعثرت أيضا على بيانات وتقارير للوكالة، على جانب كبير من الأهمية والسرية، وعثرت كذلك فى أوعية القمامة على صور لرسائل موجهة إلى موسكو، وتبينت أن الدريتش إيمس سافر سرا إلى فنزويلا وكولومبيا لمقابلة محرضيه الروس، وتبادل رسائل معهم. وحين وضع تليفونه وجهاز الكومبيوتر الخاص به، وتحركاته هو وزوجته تحت المراقبة المستمرة، لم يعد فى الأمر شك، بل إن المدير بوكالة

المخابرات الأمريكية «إيمْس» جاسوس خفى خطير مأجور، تساعده زوجته فى الخيانة، وبيع أسرار الدولة..!.

إلى جانب متابعتهما ـ سرا ـ خطوة بخطوة ليل نهار، مراقبةً، وتنقيبا، وفحصا، واستماعا لاتصالاتهما التليفونية، استطاعت وكالة التحريات (أو التحقيقات) الحصول على الأدلة المادية (بالدخول على) أو المراقبة من بُعد لجهاز الكومبيوتر الإلكترونى الشخصى لإيمْس. ولم تُفصح الوكالة (مكتب التحرى الفيدرالى) عن كيفية التسلل إلى هذا الكومبيوتر، لكن الخبراء فى الإلكترونيات المتقدمة يرون أنها استخدمت إحدى الطرق المعقدة، لكنها ممكنة: مشاهدة الكومبيوتر من بعيد (بوسيلة من وسائل الرصد والتنصت المستخدمة فى التجسس): بالتقاط الموجات الكهرومغناطيسية التى تتراقص عبر شاشة الكومبيوتر الموضوع تحت المراقبة، ثم تحويل تلك الموجات إلى حروف وكلمات تظهر على شاشة تليفزيونية. بذلك يتمكنون من قراءة كل كلمة يكتبها الشخص المراقَب (بفتح القاف). وهذه الطريقة صعبة التنفيذ، لأنها غير قانونية، إلى جانب أنها تتطلب مراقبة تلك الشاشة لعدة أسابيع، ومراجعة شرائط الفيديو الخاصة بها (التسجيل التليفزيونى) لعدة ساعات، لمعرفة كل ما يفعله ذلك الشخص.

من المحتمل أنهم توصلوا إلى كومبيوتر إيمْس الشخصى، واقتحموا أسلوب تأمينه وتحصينه بتغيير فى الطريقة القديمة للتجسس: بعد دخول بيته، تم «زرْع» مخبر أو كاشف فى جهاز الكومبيوتر، يبث (يرسل) إيقاع كل ضغطه أو ضربة على أى مفتاح فى لوحته، وكل حرف بها، أو باستخدام طريقة أخرى أكثر فاعلية... وذلك بزرْع أداة تجسس، تتسلل إلى الكومبيوتر من بعيد، أى من موقع خارج البيت، وتستطيع أن تفتش فى ذاكرة الجهاز، وتستدعى كل المعلومات والبيانات والوثائق المسجلة بها، ثم ترسلها إما عن طريق البث اللاسلكى (كالراديو)، أو عن طريق توصيلها إلى جهاز التليفون الذى يرسلها إلى أجهزة الـ FBI الجاهزة للتلقى والتسجيل، وكل ذلك يتم تشغيله بالتحكم من بعيد

(بإشارات أو موجات اتصال خاصة)، إلى جانب تسجيل نُسخ من أسطوانات المعلومات الموجود فى بيت إيمْس، التى يحَتفظ بها مع الكومبيوتر، وبدون أن يلحظ صاحب الكومبيوتر مطلقا ـ ولو كان خبيرا فى التجسس مثل إيمس ـ ما حدث أو يحدث. . .

قُدم الدريتش إيمس وزوجته ماريا دل روزاريو للمحاكمة، فآثر هو اتباع أسلوب الصمت المطْبق، وفضلت هى الاعتراف، مقابل إصدار حكم مُخَفَّف. ثم قرر الاعتراف بجريمته، اختصارا للوقت وإجراءات المحاكمة، مع ضمان إعفاء زوجته من العقوبة، لأنه هو الفاعل والمؤثر.

حُكم على الدريتش إيمْس بالسجن مدى الحياة، مقابل اعترافه، وأُسقط الاتهام عن زوجته إزاء اعترافهما بالجرم. وحيال موجة الغضب والسخط التى عمت جميع الأوساط فى المجتمع الأمريكى، أقسم المسئولون فى وكالة المخابرات (CIA) أن هذا الأمر لن يحدث بعد ذلك مستقبلا، ولكن لم يكد يمضى شهران اثنان، حتى كانت المفاجأة. . فى نوفمبر ١٩٩٦، أعلنت الوكالة أن «هارولد نيكولسون» حصل لنفسه على ١٨٠ ألف دولار من الروس.

ومن هو؟!.

إنه أستاذ تدريب الملتحقين الجدد بوكالة المخابرات الأمريكية على أساليب الجاسوسية، والجاسوسية المضادة، وفق برنامج يستغرق نحو عام، وتبلغ تكاليف المتدرب الواحد ١٥٠ ألف دولار. كان نيكولسون موضوعا تحت المراقبة لعدة شهور من وكالة التحقيقات والتحريات الفيدرالية (FBI)، بعدما حامت حوله ظلال من الشك. وبينما حصل إيمس من الروس على نحو ٢,٥ مليون دولار، فإن ما حصل عليه نيكولسون كان مجرد بداية لطريق لم يتم.

وما أسوأه من طريق. . . .

وفى فرنسا كانت المهزلة. . المذهلة. .

كيف يتسنى لرجل باع خُلقه وضميره ووطنه، واستمر يبيع ويبيع سرا

لسنوات، مقابل دراهم معدودات، أن يصبح يوما وزير «دفاع» لبلده.. المسئول الأول عن جيوشها على الأرض، وفى البحر، وفى الجو، وعن سلاحها الذرى، وقت الحرب الباردة، حيث الصراع المستتر والمعلَن بين الغرب والشرق؟.. وكيف غفلَتْ عن ماضيه أجهزة الأمن والتحرى والاستخبار والمخابرات، قبل أن يتسلم مهام منصبه.. كوزير دفاع، أو حرب؟، وماذا فعلت السلطات العليا فى دولته، وبالتحديد.. رئيس الجمهورية، حين علم مالم يكن يعلم، عن صديقه المقرب (هذا الوزير)؟!.

على العكس من الأسلوب المتبع فى الولايات المتحدة الأمريكية، الذى يلتزم بكشف الحقائق - مالم يكن فى ذلك ضرر على أمنها وسلامة مصالحها وأراضيها - وإطلاع المواطن الأمريكى على ما جرى أو يجرى من مثالب، مهما كان متعلقا بشخص كبير، أو عظيم، أو «مهم».. فإن فرنسا تلتزم بقاعدة أو مبدأ معروف مفضل لدى صديقتها اللدود بريطانى: No pain, No complain أى: لا تتألم إذا جُرحت، ولا تشكو إذا ابتُليت. وهذا يقابل القول الحكيم المأثور: «إذا بُليتم.. فاستتروا».. لكن يُراد به الابتلاء، أو البلاء غير المتعمد أو المقصود.

وفى فرنسا دائما: لا تعلق الدولة مطلقا لافتات عليها ما يمس «شرف» السلطة، بمعنى (أن تنشر غسيلها غير النظيف)... فتظل «البقع» السوداء الكريهة المقيتة حبيسة الخزائن والأدراج الموصدة، فربما تنساها ذاكرة التاريخ، عملا بمبدأ، «ما فات مات».. وهذا غير صحيح.. فهناك فرق بين ابتلاء الفرد، وبلايا القيادة، بين جريمة الفرد كفرد، وبين جريمته هو نفسه إذا كان فى موقع قيادة أو سلطة، وإلا كان معنى تولى القيادة - فى أى موقع - واحتلال السلطة على أى مستوى يضمن تلقائيا حصانة وحماية، مهما ارتكبت من أخطاء، أو صنعت فضائح، فلا يعاقب الآثم المجرم، ولا يستفيد القادمون من بعده بسد منافذ الخطأ والخطيئة، وتصحيح مسار العمل والوظيفة، ولا ينتفع المجتمع باسترداد حقوقه (ماديةً ومعنويةً).. وإليكم الحكاية، أو الواقعة المدهشة التى شذت عن المألوف فى فرنسا والمعهود..

قصر الإليزيه. . مقر الرئاسة الفرنسية. .

فى يوم من خريف عام ١٩٩٢، طلب رئيس إدارة مكافحة التجسس ومراقبة أمن الوطن (DST) السماح له بمقابلة عاجلة مع رئيس الجمهورية فرانسوا ميتران. وبين يديه فتح حقيبة تحتوى على أحد أسرار الدولة الخطيرة المتعلقة بشرف ومهابة الجمهورية الخامسة الفرنسية. ماذا تحوى؟. .

لنرجع قليلا بالزمن والأحداث إلى الوراء. . . . .

بعد فترة قصيرة من سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩، الذى كان يفصل بعناد وغباء وقسوة بين شطريها وأهلها، وبسقوطه سقط تاريخ دموى ساحق وماحق مشين مهين لروسيا السوفيتية، ودول كتلتها الشرقية، بُعَيْد هذا السقوط، جاء إلى رئيس مكافحة التجسس الفرنسى من يحمل إليه حافظة (ملفا) عليها خاتم «سرى للغاية». فى الحافظة وثائق تحتضن سرا رهيبا عجيبا: استخدام وتمويل رجل سياسى فى التجسس، كان يشغل منصبا على أعلى درجة من الأهمية والحساسية فى الدولة أثناء فترة الرئاسة الأولى لميتران (تولى الحكم لفترتين متتاليتين). إنه وزير الدفاع الفرنسى شارل هرنو، من عام ١٩٨١ إلى ١٩٨٥، أحد الأصدقاء المقربين إلى الرئيس.

فى ذاك اليوم الخريفى، وفى مكتب رئيس الجمهورية، شهد جاك فوريه رئيس إدارة مكافحة التجسس أثر هذه المفاجأة المفزعة على الرئيس ميتران، إذْ هب واقفا كالمذعور، وتمتم بكلمات: «أبعْد بيلات، هرنو. . .؟»، ثم ماتت الكلمات فى فمه. . إن هذا الصديق الأثير عنده، الذى حزن لوفاته منذ عامين، كان موضع ثقته منذ سنوات بعيدة. . فهل هذه مكيدة للطعن فيه وتشويه سمعته - والموتى لا يتكلمون أو يدافعون عن أنفسهم - وبالتالى تلطيخ سمعة ميتران ذاته، خاصة والمناخ السياسى العام ليس فى صالحه، حتى إنه صدر عنه كتاب يحمل عنوانا واضح الدلالة[١] «ميتران والأربعون لصا»؟.

---

(١) على وزن القصة العربية الأسطورية الشهيرة «على بابا والأربعين حرامى». .

إن الرئيس بطبعه لا يثق كثيرا فى تقارير الإدارات ذات المهام الخاصة، مثل إدارة مكافحة التجسس، ويتلقاها فى حذر. ورئيس هذه الإدارة يعرف ذلك. على أية حال.. هذا واجبه: استخرج من بين الأوراق والوثائق تقارير واردة من دول شرقية، وتفاصيل مبالغ تسلمها شارل هرنو. وشرح للرئيس أن التحريات الدقيقة للغاية التى أنجزتها إدارته (DST) أثبتت - بلا أى شك - صحة هذه المعلومات والوثائق. وبعد حوار طويل، ثم صمت أطول، قال ميتران فى النهاية: «إننا لن نستطيع إعادة صُنع التاريخ... فلنعتبر هذا - أيها السيد المدير - سرا من أسرار الدولة».

معنى ذلك: أنه أمر نافذ لا رجعة فيه، أن توضع تلك الحافظة فى خزانة محصنة، وتظل حبيسة بها، لا يطَّلع عليها أحد، ولا يُكشف أبدا سرها.. لكنه سر تعرفه جيداً أعداد قليلة، لا تزيد عن عدد أصابع اليد، من المعنيين بمكافحة التجسس، وهم يعلمون أيضا ومسبقا رد الفعل عند الرئيس... إلا أنه فى نوفمبر ١٩٩٦، وبعد بحث مستفيض، وتنقيب مضن فى فرنسا وخارجها لعدة شهور، استطاع اثنان من الصحافيين جمع المعلومات الموثقة، ونشرتها مجلتهما «الإكسبريس» الفرنسية المشهورة، ثم كان لها صدى فى الأوساط الصحافية والسياسية بعيد المدى. خلاصة تلك المعلومات: أن وزير دفاع فرنسا كان سابقا، ولفترة لا تقل عن عشر سنوات، عميلا (أى جاسوسا) لموسكو.

فى عام ١٩٥٣، كان شارل هرنو فى سن التاسعة والعشرين حديث الممارسة للسياسة، وثيق الصلة بالماسونية، حين أنشأ «نادى اليعاقبة»، المؤلف من مجموعة، تغلب عليها النزعة إلى الإثارة والحِدة، والميل إلى اليسار، أى الفكر الاشتراكى الشيوعى، مع ادعاء الرغبة فى التجديد أو التحديث. إنه شاب وسيم جذاب، يحب التنعم، والحسناوات من النساء. وهو فى حياته الخاصة والعامة يلاقى متاعب وصعاباً فى تحقيق رغباته، خاصة فى ميدانين مترابطين: السياسة، والنساء. وهو فى الوقت نفسه يكتسب راتبه من عمله بالمركز القومى للتجارة الخارجية. ومن واقع رغباته المعلنة، وسلوكه الواضح المستمر فى

تحقيقها، إلى جانب صفاته الشخصية المميزة، كالذكاء، واللباقة، والسعى إلى مستقبل شخصى أفضل، كل ذلك لفت إليه أنظار عملاء وجواسيس الكتلة الشرقية (آنذاك)، فأخذوا يدرسون جوانب قوته وضعفه، وقد توقعوا له مستقبلا مرموقا.

بالتحديد، فى ١٣ مارس ١٩٥٣، يظهر اسم شارل هرنو للمرة الأولى فى تقرير للأجهزة السرية البلغارية (KDS). كاتب هذا التقرير شاب دبلوماسى، قابله وقدم نفسه إليه باسم «فينو جرادوف»، (اسمه الحقيقى: رايْكو نيكولوف)، السكرتير الثالث بسفارة بلغاريا فى باريس، ويعمل بها منذ عام ١٩٥١. إنه فى حقيقة الأمر أحد رجال المخابرات البلغارية، ولم تكن هذه المقابلة مصادفة أو عبثا. إنها مرتبة ومدونة فى تخطيط أجهزة الأمن الخاصة فى دول الكتلة الشرقية آنذاك. كانت تلك الأجهزة تخطط وتنفذ لاستقطاب عدد من الفرنسيين الذين يشغلون مناصب رئيسية كبيرة، والرهان على عدد من الشباب الذين يُتوقع لهم أن يلعبوا فى المستقبل أدوارا سياسية مهمة ومؤثرة... أى أولئك الذين سيكون بين أيديهم مستقبل فرنسا، وفى كل المجالات.. فهذا إذن ـ فى تقدير نيكولوف ـ شارل هرنو واحد من هؤلاء..

بعد هذا اللقاء الأول، كان على «فينو جرادوف» أن «يقشر السمكة».. طلب من «صديقه» شارل أن يكتب له ـ للاستنارة.. ـ بعض الملاحظات على الموقف السياسى الفرنسى، حتى يسترشد بها، ويخدم بها مصالح فرنسا، ويلقى تقديرا من رؤسائه.. هكذا تتابعت بانتظام مدونات هرنو وملاحظاته، خاصة فيما يتعلق بنادى اليعاقبة. وسجل فيها أيضا آراءه، وانطباعاته عن بعض الزعماء السياسيين، ومنهم فرانسوا ميتران.

هكذا وقع شارل هرنو فى الفخ.. لكنه لم يعد فخا عندما بدأ يتسلم من عام ١٩٥٤ مقابل تلك المدونات مبلغا شهريا مقداره خمسة وعشرون ألف فرنك. المسألة إذن واضحة: معلومات وتقارير تدوَّن بإرادة وعن طواعية، ويتسلمها شخص أجنبى يعمل فى سفارة دولة (حتى ولو كانت غير معادية، أو تتبع

فكرا ومنهجا وسياسة مختلفة تماما) مقابل مبلغ من المال. ماذا يسمَّى هذا؟..
ثم ارتفع الأجر، أو «المعلوم» فى بعض الحالات ذات القيمة إلى ٤٠ و ألف فرنك.

وضع شارل هرنو فى ملفات المخابرات البلغارية تحت اسم مستعار «أندريه». وتتضح خطورة هذا العمل، إذا علمنا أن المخابرات وأجهزة الأمن البلغارية كانت منذ بداية الحرب الباردة بين دول الغرب والشرق، ذراعا قوية بالنسبة للمخابرات السوفيتية (KGB) وفى الحقيقة، كان رايكو نيكولوف أحد وكلاء «الأخ الأكبر»: الاتحاد السوفييتى.

من جانبه، أكد مسار شارل هرنو السريع فى الحياة السياسية، توقعات وآمال الذين وضعوه تحت المنظار، فلم يطل بهم الانتظار.. ففى أوائل فبراير ١٩٥٦، قفز سياسيا بانتخابه نائبا برلمانيا (بالمجلس الوطنى)، تحت مظلة «جبهة الجمهورية». وكما جاء فى كتاب صدر عنه، فإن تمويل دعايته الانتخابية جاء من «تبرعات» من أصدقائه اليعاقبة، ومن «مناصريه» الخيرين الكرماء.

وكان هؤلاء «الأصدقاء الكرماء» بالفعل أسخياء معه: فبعد أن أصبح نائبا، واتَّخذت مدوناته - أو تقاريره - المنتظمة قيمة أكبر، وأهمية أعظم، زادوا هم فى العطاء المنتظم.. بمعنى: كلهم نظر.. فارتفع أجره إلى ١٠٠ ألف فرنك، ثم إلى ١٥٠ ألف، إلى أن جاء نوفمبر ١٩٥٦، فرحل من استأجره - للتجسس وهو نيكولوف - إلى بلده، وتَسَلَّم المهمة من بعده - مباشرة، وبلا لف، أو دوران - فلاديمير إيفانوفيتش إيروفيف، مستشار السفارة الروسية فى باريس، وهو فى حقيقته أحد قمم التجسس السوفيتى فى فرنسا. إن هذا «المستشار» سريع التحرك، وافر النشاط، دائم التعرف وتوثيق الصلات مع المفكرين والأدباء والفنانين الفرنسيين، وظهر فيما بعد أن أصابعه لعبت فى الخفاء أدوارا مهمة فى بعض الأحداث والقضايا الكبرى آنذاك.

أصبح شارل هرنو مقبولا من السفارة السوفيتية، وتحت رعايتها. ولما كان

متحالفا ـ سياسيا ـ مع الحزب الشيوعى الفرنسى، فقد اشترك عام ١٩٥٦ فى وفد، سافر إلى موكسو باسم وفد السلام العالمى، لمقابلة الرئيس السوفيتى آنذاك نيكيتا خروشتشيف.

لاحظ أعضاء الوفد أحيانا سلوكا مريبا من شارل وهو فى موسكو. مثلا: أمام فندق روسيا القريب من الميدان الأحمر، وفيه ينزل أعضاء الوفد، ركب شارل سيارة أجرة (تاكسى)، دون استئذان من رئيس الوفد، الذى كان واقفا مع بعض الأعضاء، ثم غاب عنهم من المساء، حتى الرابعة صباحا. وكان تعليله لهذا الاختفاء، بعد عودته: «إن بنات الليل فى موسكو يفضلْن (إتمام الصفقة) فى التاكسى»..

وفى باريس، استمر تلقيه للأموال من المخابرات الروسية بين ١٠٠ و ١٥٠ ألف فرنك باسم أندريه. وسياسة العطاء التى تتبعها تلك المخابرات لا تتغير: دفع المال بالقدر المعقول الذى يفى باحتياجات العميل، بلا زيادة، ولا إفراط، حتى لا يلفت إليه الأنظار.

عندما عاد الجنرال دو جول إلى الحكم ـ رئيسا للجمهورية ـ وحل المجلس الوطنى (البرلمان)، وأجرى انتخابات جديدة، تقدم إليها شارل هرنو مرشحا، وأمده «أصدقاؤه» الذين ينادونه باسم أندريه، بمبلغ ثلاثة ملايين فرنك لتغطية نفقات حملته الانتخابية، ولكنه سقط ـ مثل فرانسوا ميتران ـ ولم يحصل إلا على ٣,٥٪ من الأصوات فى دائرته.

فى يوليو ١٩٦١ تعرض شارل للاغتيال، بتحريض من منافسيه، حيث وضعت قنبلة موقوته تحت سلم بيته، لكنها انفجرت بعد نزوله بدقائق.. فقررت السلطة الحاكمة وضع حراسة دائمة لحمايته.. فطلب من «أصدقائه» أن يكُفوا عن الاتصال به، إذ كيف يتم هذا الاتصال، ومعه حارس يلازمه على الدوام؟!، لكن «الأصدقاء» لا يبتعدون هكذا بسهولة..

أسلمته المخابرات السوفيتية إلى المخابرات الرومانية (كانت رومانيا إحدى

دول الكتلة الشرقية الشيوعية). ولماذا رومانيا؟، لأنها فى ذلك الوقت كانت فى تقدير الفرنسيين أكثر دول المجموعة الشيوعية تقدما بزعامة شاوشيسكو، ولها علاقات طيبة ومصالح كثيرة متبادلة مع فرنسا.. فكان ميخائيل كاراماں رئيس الجاسوسية الرومانية فى فرنسا، الذى يعمل تحت قناع المستشار بالسفارة الرومانية بباريس، كان معروفا مألوفا فى العاصمة الفرنسية، لشخصيته الجذابة، ولعلاقاته الوطيدة التى كونها طوال أحد عشر عاما فى منصبه هذا، مع عديد من الشخصيات والمشاهير وأصحاب المناصب الكبيرة والنفوذ، فكان «طبيعيا» أن يلتقى بهرنو، ويتبادلا الزيارات «الودية». وكانت نتائج تلك الزيارات تدوَّن فى تقارير تُرسل إلى بوخارست (عاصمة رومانيا)، ومنها إلى موسكو. فى هذه التقارير تغير اسم هرنو من أندريه، إلى «دينو».. وذلك فى عام ١٩٦٢.

زاد من أهمية شارل هرنو فى نظر المخابرات الرومانية والسوفيتية معا، مسارعته للاشتراك فى تأسيس الحزب الاشتراكى الفرنسى، بزعامة فرانسوا ميتران، وأصبح مقربا إليه. ولذا.. ابتداء من مارس ١٩٦٣، عاد «دينو» ليكون على اتصال مباشر بالمخابرات السوفيتية متعاظمة القوة والنشاط (KGB). وهنا يبدأ الغموض، إلى متى استمر هذا الاتصال؟. وإذا كان قد توقف، فمتى؟، ولماذا؟. وإذا لم يكن قد توقف، فكيف تابع مسيرته؟، وإلى أى مدى؟... إن الحافظة (الملف) التى وُضعت أمام الرئيس الفرنسى ميتران، ليست فيها إجابة عن تلك الأسئلة. وربما احتاج الأمر إلى حافظة، أو «دوسيه» آخر.. من موسكو..

على أية حال، لم يَضِعْ «رهان» المخابرات الروسية، ودول الكتلة الشرقية هباء، ولا كان فى غير موضعه... ففى إبريل من عام ١٩٧٤، يصبح هرنو خبير الشئون العسكرية داخل الحزب الاشتراكى الفرنسى، ثم رئيسا للجنة الدفاع بالحزب. إنه هو الذى سيحدد سياسة الحزب العسكرية والنووية (أى استراتيجية الأسلحة الذرية). استقال من وظيفته بالمركز القومى للتجارة

الخارجية، ليتفرغ للعمل السياسى. وفى عام ١٩٧٧ يُنتخب عمدة إحدى المدن، ثم فى العام التالى نائبا بالمجلس الوطنى (البرلمان)..

ولما نجح ميتران فى انتخابات الرئاسة عام ١٩٨١، كان طبيعيا أن يختار شارل هرنو وزيرا للدفاع فى الوزارة التى رأسها بيير موروَا. لقد أصبح «أندريه ـ دينو» الوزير المسئول عن الجيش، برا، وبحرا، وجوا، وعن الأسلحة الذرية واستراتيجيتها، وعن أجهزة المخابرات والأمن الحربى، وعن استراتيجية الدفاع عن فرنسا.

فرِحَت بذلك وهللت المخابرات الرومانية، التى حولت بلدها (رومانيا) إلى دولة بوليسية رهيبة شديدة السيطرة... ففى أول سبتمبر عام ١٩٨٢، تلقَّى الرئيس الرومانى نيقولاى شاوشيسكو (الذى أعدمته هو وزوجته ثورة ١٩٨٩، التى أطاحت بالحكم الشيوعى»، تلقى تقريرا من جهاز المخابرات يذكِّر فيه بتاريخ شارل هرنو، وبثقله، وقيمته، وتأثيره فى تشكيل الحكومة الفرنسية الجديدة. ويضيف التقرير أن المخابرات الفرنسية كانت على وشك تنفيذ حملة ضد رومانيا.

وعندما سقط النظام الشيوعى الرومانى فى أواخر ديسمبر ١٩٨٩، بدا واضحا على شارل هرنو الاكتئاب والهموم. هل كان يخشى أن تكشف الثورة الرومانية عن ماضيه، المسجل والمحفوظ بأرشيف «السيكوريتات»، أى جهاز المخابرات الرومانية؟.. بعد ثلاثة أسابيع فقط من قيام هذه الثورة بإعدام شاوشيسكو، أى فى ١٧ يناير ١٩٩٠، أُصيب شارل هرنو بأزمة قلبية مفاجئة أثناء حضوره اجتماع التضامن مع الأرمن، وسقط ميتا، صامتا إلى الأبد!.

ليلة مع الشيطان

«جان كو» . .

كاتب صحافى مرموق، له مكانة وشهرة فى فرنسا والغرب طوال الثلاثين عاما الماضية: مقالة، ونقدا، وتحقيقا، وتحليلا، وله أسلوب خاص، وقلم متميز، شديد التحامل على العرب وموروثاتهم. لاضير . . فهذا شأنه، أو رأيه، الذى لن يقدم، ولن يؤخر، فمن قبله - فى هذا الجانب - تحامل وتحايل بالطعن المغلوط كثيرون، ومن بعده (وقد مات مؤخرا) سيأتى مثله أكثر وأكثر، إذ لن تخلو الأرض من كاره، أو حاقد، أو صاحب هوى غير منصف . . وإن كان هؤلاء جميعا يعلمون تماما العلم أن من موروثات العرب الثابتة الخالدة قانونا سماويا قرآنيا يقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى . . . .»[1].

لكنه هنا يتناول موضوعا كتبه فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان:

«ليلتى مع شهود إبليس»[2]، لا صلة له بالعرب، بل فيما يحدث فى بلده وبلاد أخرى فى دول الغرب: أعراض مرض اجتماعى غريب خطير، سمعنا به مؤخراً فى بلادنا، وقد أشرنا إليه - قبل أحاديث قومنا - فى كتابنا: «أنبياء نهاية القرن العشرين».

قال «جان كو» ما نصه . . . .

كشرط مسبق، بعض النصائح العملية القليلة. لو أردتَ أن تَشهد «طقوسا»

---

(١) أى: لا يكن بُغضكم لقوم سبباً فى ظلمهم، أو عدم إنصافهم.

(٢) Ma Nuit Avec Les Temoins de Lueifer.

إبليسية فى صحبة هواة مص الدماء، أتباع الشيطان، فإنى ناصحك فى هذا الفصل القاسى من السنة (كان شتاء) أن ترتدى ملابس مدفئة. . . ففى الواقع، تجرى الطقوس دائما فى جبانة (مدافن). وحينئذ فى هذا الجو الذى لا يرحم، يقشعر الجسم، سواء من الرعب، أم على الأقل ـ وأقسم لك ـ من البرد. ويمكن أن تتزود أيضا (إذا كنت مدخنا) بالسجائر، أو بتبغ الغليون (بايب)، لأن المقاهى ومتاجر الدخان فى الضواحى أو الريف ليلا ستكون مغلقة، وذلك إما لشد أزر النفس الضعيفة ـ مثلى ـ وإما لتسخين العظام. كما أنصح أخيرا بارتداء حذاء «بوت» لين مرن ـ إذا ما دعت الحاجة إلى تسوّر حائط المقبرة ـ وأن يكون نعله من المطاط، حتى لا تُحدث خطواتك طنينا فوق الأرض الجليدية. وشرط مسبق آخر: أن تتعهد لاتباع طائفة الشيطان ـ الذين رضوا بك ضيفا ـ ألا تكشف مطلقا عن أسمائهم، وأن تُضفى شيئا من الإبهام على ما سوف تكتبه عنهم، حتى لا تُتاح للشرطة العامرة بالدهاء أن تنقض عليهم، وتتهمهم بانتهاك حرمة المدافن، وممارسة انحرافات شاذة ضالة. وهذا ما فعلتُه. وعدت وتعهدت.

وشرط ثالث: أن تلتزم بألا تبتكر شيئا مطلقا تضيفه من عندك. ولك الحرية بعد ذلك أن يكون لك رأيك، دون أن تضع فى حسبانك ما رأيتَ وما سمعتَ، وهذا ما أشك الآن فيه، كما سيأتى.

انتهت الشروط. .

وعلى هذا. . عندما تُدعى لحفل (بارتى) مع «قوى الليل»، لاستحضار الأموات، وارتشاف الدم، يُحدد لك موعد فى غرفة استقبال شقة باريسية صارمة، وتَحضر مسبقا. الكل يرتدى ملابس سوداء. المضيف ـ وللتبسيط سوف أسميه: الكاهن الأكبر ـ يستقبلك بنفسه. «هل تلبسون السواد دائما؟».

«نعم، دائما. . من سن السادسة عشرة».

يقدِّمك إلى سبعة أو ثمانية من أعضاء الجماعة، شباب بين سن الخامسة والعشرين والثلاثين، من بينهم ثلاث فتيات حسناوات فاتنات. كل الوجوه

هادئة ومكشوفة. يعتذر الكاهن الأكبر مقدما، لأن حفل الطقوس الذى سوف أشهده فى الحال تغير نسبيا.

«لن يكون عددنا كبيرا هذه الليلة، لأن كثيرا من الأصدقاء رفضوا الحضور، بعد ما قيل عنا فى البرنامج التليفزيونى كما تعلم، حيث إننا وافقنا من قبل على تصوير طقوسنا لفريق من التليفزيون...».

ـ ولماذا وافقتم؟.

ـ «لأننا قدَّرنا أن مجرد مشاهدة شعائرنا ربما تكون كافية لإيقاظ انتباه الناس نحو كائنات الليل فى كل بيت، لكن مُنع عرض الفيلم، وتحرك رجال الشرطة. ولذا.. أخذ بعض الأصدقاء حذْرهم الشديد من كل إعلان أو دعاية.. فمعذرة.. معذرة..». هذا ما كان. على أية حال.. لايهم العدد كثيرا.

على حوائط الشقة قليلة الضياء، بعض الرسوم التى أظن أنها شيطانية. على مائدة ملتصقة بالحائط ـ فيما يشبه المذبح الكنسى ـ ترتفع رأس كبش ضخمة جميلة الصنع، فهى من الخزف اللامع.

المنخاران مفتوحان، والنظرة حادة كالسهم، الجبهة معصوبة بشرائط «مقدسة»، فهو حقا جميل هذا الكبش. وأنا أحب الكباش. على حراسته يسهر عدد من الشمعدانات، والنجمة السحرية الخماسية، وكأس يتدفق منها دم قربان ضخم، وتمثال «للذيل»، وسيفان مع خنجر يحميهما. على الأرض شىء على شكل صندوق مغطى بقماش أسود، تنطلق منه بين الحين والحين ما يشبه صرخات مختلطة لفئران تحتضر، أو قط يغلى حيا فى ماء يفور، أو صوت مبحوح لطائر يختنق. لا تطرح أسئلة. شاهد، وتأمل فقط!.

«أنتم إذن (شهود إبليس)، وعباد الشيطان، وأتباع مصاص الدماء؟». من الواضح أن...

«نعم.».

ـ أهو تنظيم جماعة؟.

ـ أيضا نعم بالتأكيد.

«هل هو السحر الأسود؟»

ـ قطعا لا. هو بالأحرى السحر الأحمر، سحر الدم الذى يمهد لقدوم «دراكولا»[1]: سيد فلاتشى أمير الأموات ـ الأحياء، ولىّ الحياة والموت، وبالنسبة للمشتركين فى الخلود، الشخصية الشهيرة المتألقة فى امتصاص الدماء، التى تعتبرنا ببساطة ـ أنتم أيها القراء، وأنا معكم ـ مجرمين. أقول ببساطة، لأنهم شرحوا لى. ليس الأمر بهذه البساطة. قالوا لى (وليغفروا لى تقريب المعنى فيما أطلعونى عليه من أسرار): إنه يجب قبل كل شىء قهر الموت. أليس كذلك؟... تبديده فى الهواء. وماذا يكون الموت؟. لاشىء. ضد إرادة الحياة، لا شىء مطلقا. يجب إذنْ اجتياز حائط (أو حاجز) الموت بكل الإرادة، ومن أجل ذلك... عَقْد معاهدات تحالف مع الذى يكمن خلف القبر. وفى الواقع، لا ينتظر المرء «اليقظة»، دون الارتباط اللازم بغياهب «الظلمات»، (وهذه الكلمة دائما مبجلة). بالطبع، هناك اللاشعور، لكن يلزم المضى إلى ما هو أبعد من ذلك... نحو الأجزاء والمواقع التى يغلب على الظن أنها لا تُستعمر، بدءا بتمزيق رداء المسيحية الكهنوتى الذى تسحق الكائن الإنسانى منذ ألفى عام:[2] المسيحية التى يعتبر قداسها شريرا بالقياس إلى الوثنية المقدسة، المسيحية «التى لم تستطع أن تفعل شيئا»، المسيحية التى يجب أن تُنتهك وتُخالف بإقامة حفلات الطقوس، التى هى الفصل الأخير من المخالفات.

ـ فهمت، فهمت..... وهل عددكم كبير؟.

ـ نحن فى باريس عشرات كثيرة من الأعضاء. ولنا أصدقاء (على شاكلتنا) فى بريطانيا، وفى الولايات المتحدة. ونحن لا ندعو علانية إلى مذهبنا، حتى لا ينجذب إلينا كثير من المعتوهين....

ـ آه.. وأنتم تقدسون دراكولا. وعنه، فأنتم من مصاصى الدماء؟.

ـ نعم، مص الدماء كعلاقة أو صلة مغناطيسية، ولكن هناك وسائل أخرى، غير التضحية بقربان بشرى للفوز بالخلود: الانتصار على الموت الدميم، وأن

---

(١) ينسب إليه سلوك وأعمال مفرطة فى الوحشية والشذوذ، واشتهاء مص الدماء.

(٢) تنويه: إننا ننقل النص بأمانة، حتى تستبين الأمور للقراء، وللباحثين، ولمن يعنيهم هذا الشأن، بلا إضافة رأى من جانبنا، أو تعليق، أو إخفاء لبعض الحقائق، وإن كانت شائنة مقززة. ومن جانب آخر... نحن نجل المسيح عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ المبشر، رسول المحبة والإنسانية، فسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا.

نجعل من الإنسان إلها، فتُستبدل مثلا الضحية الإنسانية بحيوان: قط، أو ديك، بحيث يستخدم الدم كخاتم توثيق لعهد التحالف.

ولكن دراكولا؟.

- دراكولا.. جيلْ دوريه... ليس بسبب جرائمه المفزعة التى لا تُحصى، ولكن بسبب إفراطه... ورغبته المتألقة للمضى أكثر بُعدا، ليفعل الأفعال المطهرة.. للإرادة الصافية النقية قبل الأفعال. هل فهمت؟.

- ربما.... هكذا قُلت.

- ولقد علمنا عن وجود مكان لم يُنتهك، عاش فيه إنسان، وهو دراكولا نصير العلوم الملعونة، وليس له من هدف، سوى اجتياز حدود الموت، والدخول حيا فى الخلود الأبدى. إنه «الكاهن الأعظم للظلمات»، إنه عدو الله، تنبأَتْ به الكتب السماوية، فهو المسيح الأسود الذى ننتظره اليوم، والذى نستدعيه الليلة فى المقابر، بتقديم قرابين من الدم فوق أدمغة (أمخاخ) مفتوحة مكشوفة، وضعنا فى جوفها ترابا جمعناه من مقبرته فى ترانسيلفانيا.

- ولكن اسمح لى، ليس هذا بالأمر الميسور... الجمارك..!.

- نعم ، لقد دُهشوا فى الجمرك، ولكن ليس هو على أى حال من المخدرات....

عند المقبرة..

أكداس من اللوم والتقريع المفرط. أخطر ما فيها الجانب «الإنسانى» الهزلى، وأسلوب «الخير»، و«الشر». والمعنى «الإنسانى» هنا لا وجود له فى الواقع، إذ لا «قيمة» له.

«لماذا؟».

- لأنه عند البعض.. لا وجود للخير ولا للشر، فلكل منهما دوره. من جهة أخرى.. عند الكتل الجماهيرية، وكما هو معروف فى الحياة اليومية، لا ننكر أن هذا مطلوب وضرورى. أما عندنا، فليس الأمر كذلك. هل تفهم؟.

- ربما.. هكذا قلت. لكن، هل يهتمون بالسياسة.. بمشاكل العالم؟ .

هز كتفيه قائلاً: إنها غير ذات قيمة. طُرْفة مثيرة للعب اليومى المعتاد

لتدبير شئون العالم. أما عندنـا، فلا. فى النظام الروحى، لا معنى لكل هذه الأمور.

ـ «هل نذهب؟».

ـ «هيا بنا».

ـ «إلى أين؟».

ـ «سوف نذهب الليلة إلى جبانة صغيرة على بعد نحو ثمانين كيلو مترا من العاصمة، ومعزولة عن القرية. يوجد بها ثلاث مقابر «لفرسان الهيكل».

ـ سألت: «هل صلتكم وثيقة بالمقابر؟».

ـ «لدينا سبع أو ثمان جيدة جدا فى المنطقة الباريسية، وهى مقابر ملعونة أصلحناها..».

ثم رتب الكاهن الأكبر ـ بحذر شديد ـ حقيبة، وضع فيها أدوات الطقوس. ودس كل واحد منهم تحت ذراعه عباءة، وأقنعة، ثم حملوا الصندوق الذى تصدر منه الأصوات الغريبة المختلطة، وتهتز بداخله دجاجة مقيدة الرجلين. يا للمسكينة!.

مَرقت السيارة عبرالضواحى النائمة. فى سيارتى اصطحبت الكاهن الأكبر، وتفرقنا. سألته عما إذا كان من العسير أن يكون عابدا لإبليس ودراكولا فى هذا العالم، وهو على هذا النحو، ثم قلت: «من الجائز اعتباركم شائنين، أو ملوثين تماما. أليس كذلك؟».

ـ « بالتأكيد.. إن استحضار غموض الظلمات فى القرن العشرين، والتطهر من دجل وخداع ونفاق ألفى عام، وإنكار العقل المتاجر بالزمن، وعدم الاعتراف بغير الروح الكونية، ولا سبيل إلى الاتصال بها إلا باختراق القوانين والنظم، واحتقار هذا العالم المندفع نحو الانهيار، هذا كله لا يحوز القبول».

ـ «وهل كانت لكم تصادمات مع الشرطة؟».

ـ نعم. ومن الصعب الخروج منها.. وعليك أن تتقبل الاتهام بانتهاك الحُرمات الخاصة عند دخولك المدافن، والمخاطرة بدخول السجن، أو أنك

تحاول أن تشرح لهم ـ مستسلما ـ بأنك تمارس طقوسا مقدسة، وأنك عابد للشيطان، وتلك مغامرة غير مأمونة.

ـ أين تمضى تلك السيارات المسرعة ليلا فى الظلمات، وفى شهر يناير؟.

ـ نحو مقبرة مهجورة.

ـ ومَن ركابها؟.

ـ رجال ونساء يستحضرون «قوى الليل والموت».

ـ وماذا فى حقائب السيارات؟.

خبز القربان المغموس فى الدم، وعظام بشرية، ودجاجة.

قلت فى نفسى: أيتها السيارات التى تمرق من جانبنا.. أيها القرويون الذين يعلو شخيركم فى بيوتكم المتواضعة!، وأنتم أيها العسس (شرطة الليل).. يا من تلعبون الورق (الكوتشينة) فى مقر عملكم!، ويا رجال الدين النائمين باسترخاء فى بيوتكم الفاخرة الملحقة بدور العبادة، آه لو تعلمون..!.

وتمضى سياراتنا.

متاهة متشابكة من الطرق الضيقة المظلمة... وأخيرا غيضة (أشجار كثيفة ملتفة)، ثم بوابتان عاليتان من الحجارة الباهتة. إنها هنا. المدافن. والصمت المطبق. كل شىء ساكن أخرس. وهناك بعيدا ـ ولن أنسى ـ كلب مزرعة أخذ ينبح، لكن نباحه الفَزِع اليائس أتانا فى ليل متجمد موحش.

لبسوا عباءاتهم الكهنوتية السوداء... تُشبه تلك التى يرتديها القساوسة عند دفن الموتى، مطرزة من الخلف، وعليها أحرف كبيرة من خيوط الفضة، ونجوم سداسية، ثم وضعوا الأقنعة، عدا الكاهن الأكبر. أقنعة الفتيات حمراء. لا يقطع الصمت إلا وقع الأقدام، كالحفيف فوق الأرض الجليدية، أو خشخشة الحصَى بين الثلوج. القليل جدا من شواهد القبور. مقابر الفلاحين ثقيلة صارمة. كتل صلدة، متوارية، مثل الأشباح المترصِّدة. الصلبان متكسرة، تصنع

أشكالا غريبة معتمة فوق خلفية ناعمة من سواد الليل. لا قمر.. لا شىء سوى بصيص ضعيف من ضوء خافت هابط من السماء، يلامس بلطف زخارف المقابر الفضية. جلَبة مكتومة من وقع الأقدام، وحَفْد (إسراع) تلك الأطياف المعتمة المتحركة التى تُسرع الخطَى فى صمت...

بسطوا ملاءة سوداء، مطبوع عليها أسماء الآلهة الملعونة، فغطتْ شواهد القبور الهيكلية الثلاثة، ثم أشعلوا شموعا تلوى لهبها المخيف فى مسرى الريح. وبعد ذلك، وضعوا الكأس وفيها قربان الدم فوق الملاءة المبسوطة، والنجمة الشيطانية، والسيفين والخنجر، وقدحًا أفرغوا فيه شذرات من عظام آدمية، وبخور. وعقب ذلك.. وبطرف سيف، خط الكاهن الأكبر دائرة كبيرة أمام القبور أحاطت بمكانه، حيث يُجرى الطقوس، وبفتاة تضع القناع.

ثم علا صوت الكاهن الأكبر فى أول استدعاء بالنداء على الآلهة الأربعة الملعونة: إبليس أجمل الملائكة، لفياثان إله الإنماء الجنسى للرجال، الشيطان حامل السيف، بلْيال، ذلك الذى سوف يأتى..

كنت - أنا - باردا مشدودا، مثل حبل يتدلى فى بئر، إزاء تلك الشعوذة الخرقاء. تجمدتْ أطرافى. تحسست زجاجة الخمر التى دسستها فى جيب معطفى مزدوج الحاشية، وقلت فى نفسى: على أيه حال، لا تخلو الأرض من حمقى مختلى العقل فى فرنسا، كما فى أفغانستان.. وروسيا..

«يا بيضة الثعبان.. نينوَى[1].. آه يا نينوى.. أَدوناى[2]

يا أودناى.. سخْمتى.. يا سخمتى..[3].. إلخ، ثم يزعق

مناديا القمر الغائب، ويصيح هذا الشارلو[4] الكبير المنتصب

(١) مدينة فى آسيا القديمة، عاصمة الأشوريين، على نهر دجلة، وبلغت أوج مجدها وازدهارها حوالى عام ٧٠٠ ق.م، ثم دمرت عام ٦١٢ق.م، وبدأ الكشف عن آثارها عام ١٨٤٧.

(٢) اسم الإله عند اليهود.

(٣) اسم التاج المزدوج لملوك الفراعنة المصريين القدماء. يقول د. ثروت عكاشة فى موسوعته القيمة «العين تسمع، والأذن ترى»: ولم يكن التاج مجرد حلية أو رمز للمنصب الملكى، بل فى زعمهم كائنا وإلها حيا حقا، يصور الحكم الفعلى، ويمنح الملكية لحامله.. جـ١ / ٢٧٤.

(٤) تشبيها بالممثل الشهير الهزلى شارلى شابلن

أمامى، بينما أنا ـ يا للعنة ـ أتجمد من أجلهم فى تلك الدعارة بالجبانة الضائعة.

والآن، أخذ أدعياء الشجاعة هؤلاء ـ وأُقسم لكم ـ فى استحضار من يسمونهم آلهة الموت الأربعة، وها أنا أكشف لكم عن أسمائهم التى منحوها ـ تشريفا ـ لهم: أوسوىْ/ أوليرُوس/ زيزيس/ أوليرو، ثم أخذ الرئيس الشارلوتى بمساعدة الفتاة الملتصقة به، فى خلْط شذرات العظام بالبخور وإشعالها، بينما يَعوى بقية أفراد الجماعة بصيحات: «إنهم سبعة.. إنهم سبعة.. سَحَرة القوة القادرة الرهيبة، التعويذة السحرية الأقدم من حوائط مدينة بابل المحطَّمة، قبل أن تطرق نينوى أحلام الخيال....» إلخ. وكل هذا مدون فى كتيب من القرن الخامس عشر، وأُقسم لكم، بيد «المجوسى أَبْرا مالان».

وأشياء أخرى...

وبعد التدخين، والتطهير، ومع تراتيلهم الفظة المفعمة بالبذاءة المكشوفة والسباب، دفعوا الدجاجة المسكينة بعنف، كما لو كانت ضفدعا، أو سحلية. ماتت الدجاجة من الصقيع، ومن الرعب.

أمسك الشارلو الكبير بالدجاجة بقبضتيه المغطاتين بقفاز أسود، ثم رفعها إلى السماء، وقذفها إلى الليل، فوق القبور والصلبان.

وماذا بعد...؟.

وبعد، أنا الذى أرتعد من البرد، والفزع. ليس البرد، بل التجمد. ولا الفزع، بل الهَلع.. والقرف من هذا الموعد مع جمال الليل، واللعنة، والشذوذ، والجنون الطائش.

تسمرْتُ فى مكانى. حملْقتُ فى كل شىء.. كل شىء، عدا الملائكة ذات الأجنحة الثقيلة الوهمية المحلِّقة فوق القبور المهجورة.

صرخ الكاهن الأكبر: «أيها السيد..! يا سيدى المعظم، أنت تريد الدم،

وتجلب الرهبة إلى الكائن الفانى. تقبَّل هذا الدم من جديد، فإنه يمنح الحياة..!»، ثم مسح شفتيه بالدم، وقال: «تعالوا واشربوا. تعالوا وتذوقوا الحياة من وراء الموت، لأن الموت يحرر الحياة..».

ارتعشتْ الوجوه وهى تنحنى نحو الدم، لامعة باقترابها من الشموع الموقَدة.. وعواء الكلاب يقترب من بعيد. عقب الشراب، ترنحت إحدى الحسناوات المقنَّعات. تقيأت. احتضنها أحد المساعدين، وأدخلها فى ملحفة الدفن التى يتدثَّر بها. اختفيا فى السواد، وفى الظلام. إنه الجنون والطيش، والجمال. الجمال الذى يغتصبه الحُمْق المنتشى، وأنا شاهد عليه.

انتهى الأمر. رتبوا فى الحقيبة أدوات الطقوس. استرحْت من «شهود إبليس»، لكن قبل انصرافى سألت:

ـ أهذا.. تفعلونه كثيرا؟.

ـ مرة كل شهر.. تقريبا.

أسرعتُ كى أنصرف وحدى، عائدا إلى باريس. انطلقتُ بسيارتى أولا، وضغطت على مفتاح تشغيل التدفئة.

غالب ومغلوب

هذه حكاية طريفة، تُرْوَى كأنها حقيقة، ولمن يسمعها الخيار: أن يحسبها واقعا، أم من نسج الخيال.

عقب توقيع معاهدة إنهاء الحرب مع اليابان (١٩٤٥) فى شكل من المراسم مبتذَل مهين على السَفينة المدرعة «ميسورى»، وبحضور الجنرال الأمريكى المنتصر «ماك آرثر». . قيل لليابانيين: من الآن فصاعدا. . ليس لكم الحق مطلقا فى صنع أسلحة حربية.

فسأل أميرال[١] يابانى مهزوم:

ـ وماذا يمكن أن نصنع بدلا من الأسلحة الحربية؟

أجاب أحد مستشارى الجنرال «ماك آرثر» بعد لحظات من التفكير:

ـ حسنا. . لماذا لا تصنعون سيارات؟.

ـ سيارات؟!، لكن الأمريكان يصنعون بالفعل سيارات. . فكيف يأمل بلد فقير مهزوم مثل اليابان أن يدخل فى منافسة مع سياراتكم الفاخرة؟.

ـ من الطبيعى أنكم لن تستطيعوا منافسة الولايات المتحدة، لأن الأمريكيين لن يشتروا مطلقا سيارات يابانية بعد الذى فعلتموه فى «بيرل هاربور»[٢]، لكن من المحتمل أن تصنعوا شيئا يجد من يشتريه فى جنوب شرق آسيا، وفى أسواق أخرى لا يهتم الناس فيها بالجودة.

---

(١) رتبة بحرية رفيعة المستوى بمعنى «أمير البحر»، وهى من أصل عربى، يوم كانت للعرب سيادة على البحار.

(٢) أثناء الحرب حطم الانتحاريون اليابانيون الأسطول الأمريكى الرابض فى هذا الميناء.

- هذا عظيم!، ولكن كيف يصنع المرء سيارة؟.

- إن هذا يبدو حقا أمرا صعبا، لكنى على يقين من أنكم سوف تتوصلون يوما إلى إنجازه..

خُذ: هذا كتاب مرجعى، فيه كل البيانات عن مراحل صناعة السيارة. انظر: ما عليكم إلا أن تضعوا المحرك هنا، والمقاعد هنا فى الأمام، وفى الخلف، ثم تغلفون ذلك كله بالهيكل المعدنى، ثم ترشون الدهان بلون جميل، فتصير لديكم سيارة.

ويمضى عام، فتخرج أول سيارة يابانية من خط الإنتاج، فيسرع الأميرال اليابانى - وقد أصبح الآن على رأس مؤسسة «توجو للسيارات» - إلى المستشار الأمريكى، ليطلعه عليها، يقول خافضا رأسه فى انحناءة كبيرة:

- أرجو المعذرة، إذ أقدم لك هذا الشىء من صنع بلدى، وقد تجرأنا وسميناه سيارة، ولكن هو ما قدرنا عليه بإمكانياتنا المحدودة.

ربّت المستشار برفق على كتف الأميرال، وقال فى زهو:

- لا داعى للاعتذار، فقد أحسنتم تدبير الأمر، وتجاوزتم العقبات جيدا، وتلك هى النتيجة بالمتاح بين أيديكم، وبالمناسبة.. سوف أخبرك بما سأفعله: سأحضر بعض أولادنا من ديترويت (مركز صناعة السيارات فى أمريكا)، لكى يضعوا لكم قائمة بما يلزمكم أن تفعلوه لإنتاج سيارة مناسبة.

-ولسوف نرسل أيضا بعض المصممين عندكم والمهندسين إلى الولايات المتحدة، لعلهم يستطيعون معرفة كيفية الصناعة الأمريكية.

- رائع!.. تفعلون ذلك من أجل شركة سيارات يابانية صغيرة فقيرة تجهل سر الصناعة؟.

- ولم لا؟، فهذا هو السبيل الوحيد لإتاحة فرصة لكم، ولو ضئيلة، لكى تتمكنوا يوما من بيع «عربات زق» فى الولايات المتحدة.. ربما.

وتمضى أعوام.. يلتقى مستشار الجنرال ماك آرثر، وقد أصبح الآن فى منصب كبير بأحد البنوك فى نيويورك الضخمة.. يلتقى مصادفة بالأميرال السابق فى بهو فندق «والدورف استوريا» أشهر فنادق المدينة الأمريكية، وقد صاح فى دهشة مرحبا:

- أى رياح طيبة حملتْكَ إلى نيويورك؟.

- جئت لتنظيم حملة دعائية فى كل أمريكا لتوزيع سيارتنا الجديدة «كاميكاز ٣×٢»[1]، ذات الأربعة سلندرات، تستهلك ستة لترات من البنزين فى المائة كيلو متر، ونظام الجر فيها أمامى، والفرامل أسطوانية، وبها جهاز الكترونى لإزالة الجليد إذا تراكم على الزجاج الخلفى شتاء. تفضل، هذه صورة لها.

تأمل الأمريكى الصورة جيدا، ثم هز رأسه قائلا:

- إنكم تضيعون وقتكم، فالأمريكان لن يشتروا مطلقا سيارة صغيرة، خاصة إذا كان نظام الجر فيها أماميًّا.

- هل تظن ذلك؟!، لكننا لن نطمع فى أكثر من ١٪ من سوق السيارات عندكم: للشباب والطلبة.

- مستحيل .. فنحن فى هذا البلد نحب السيارات الفارهة، التى بها واقى الصدمات البراق، والحِلْيات المعدنية اللامعة بوفرة.. واسمع نصيحة صديق: لا تُصروا على ذلك، ووفروا جهودكم. حاولوا أن تبيعوا إنتاجكم للعالم الثالث.. فالناس هناك يركبون أى شىء .. حتى الجمال والحمير.

فى عام ١٩٩٠..

أدركت الشيخوخة بوضوح كلا من المستشار الأمريكى، والأميرال السابق. وعندما دخل الأمريكى المكتب الفاخر الذى يجلس فيه الأميرال السابق، نهض اليابانى مرحبا بانحناءة وتبجيل:

---

(١) كاميكاز: كلمة يابانية تدل على فلسفة قديمة متوارثة عندهم بمعنى: القتال حتى الموت، أو الهجوم الانتحارى، فإما الغلبة، أو الهلاك.

- يا هلا.. أى رياح طيبة حملتْك إلى طوكيو أيها الصديق؟.

- لقد أرسلنى الرئيس الأمريكى، فهو يعرف علاقتى الودية معك منذ زمن بعيد، مقدرا معنى الرسالة التى حمَّلنيها إليك شخصيا..

- أية رسالة؟..

- يرجو أن تخفضوا من إنتاج السيارات اليابانية اللعينة..

- ولكن إذا لم ننتج المزيد والمزيد من السيارات، فماذا نصنع غيرها؟.

- إنه يريدكم أن تصنعوا أسلحة.

- لكننا لا نعرف كيف نصنع الأسلحة..!.

- لقد طلب منى الرئيس أن أسلمكم هذا.

- وما هو يا ترى؟!.

- كتاب مرجعى، يحوى كل ما يتعلق بصناعة الأسلحة..!!.

فى التاريخ، وليس فى السياسة

كل الذين وُلدوا فى الأربعينيات من القرن العشرين لم يُدركوا ـ عن قُرب ـ أهوال الحرب العالمية الثانية. نعم، سمعوا. . ولكن ليس من رأى كمن سمع! . . وقد يقول أحدهم ـ ولم يخطئ ـ : رب مبلَّغ أوعى من شاهد! .

وبما أن السنوات القليلة التى أعقبت تلك الحرب ـ التى راح ضحيتها نحو خمسة وثلاثين مليونا من البشر، وربما أكثر من ذلك ـ تُعتبر سنوات حاسمة فاصلة فى مجرى التاريخ والأحداث، فتلك نظرة عاجلة ـ لابد منها ـ على ما وقع فيها، وما ترتب عليها، مما لازالت له آثار واضحة فى حياتنا وحياة عالم اليوم، تمتد جذورها إلى تلك الفترة. . .

والنظر إلى التاريخ يتطلَّب «معايشة» الأحداث والوقائع، وليس الاكتفاء باسترجاع صورها ومشاهدها. . فلكل عصر، ولكل فترة أو حقبة من الزمن، ظروفها وعناصرها ومناخها، وعوامل كثيرة مؤثرة تتفاعل أو تتصادم، وحسابات وتقديرات تتوافق أو تتغاير، وكل ذلك خاص فقط بتلك الفترة أو الحقبة، ولا يمكن أن تتكرر جميعها أبدا بنفس القوة، ونفس الملابسات، فالشمس ـ كما يقال ـ لا تُشرق أبدا مرتين متشابهتين متطابقتين، وكذلك أمواج البحر، وتتابع المواليد، وحالات الوفاة.

المرحلة الأولى التى أعقبت تلك الحرب، تبدأ من استسلام ألمانيا النازية فى الثامن من مايو ١٩٤٥، ثم تلاه استسلام اليابان فى أغسطس من السنة نفسها، وتنتهى فى الخامس من يونيو ١٩٤٧، يوم أن ألقى الجنرال مارشال محاضرة فى جامعة هارفارد، وأعلن فيها المشروع الأمريكى الذى حمل اسمه، والذى

بمقتضاه تحصل أوروبا على مساعدات أمريكية مناسبة لإعادة إعمارها، والوقوف على قدميها.

فى قلب أوروبا توجد ألمانيا لعام ١٩٤٥. إنها لم تُهزم، ولم تخسر الحرب فقط، وإنما دُمرت تماما: البيوت، والمصانع، والمنشآت، وملايين المواطنين المدنيين الذين هلكوا، وملايين آخرون هربوا مشردين فى كل أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية، وملايين الجنود الألمان القتلى، مع تدمير أسلحتهم ومعداتهم، أو الذين وقَعوا فى الأسْر.

إن الاجتماع الذى عقده رؤساء الحكومات: الأمريكية، والبريطانية، والسوفيتية فى يوليو ١٩٤٥، أسفر عن تشريح «جثة» ألمانيا النازية «الرايخ» إلى أربع مناطق محتلة (أدخلوا معهم فرنسا)، فكانت برلين ـ العاصمة ـ فى وسط منطقة الاحتلال الروسى مقسمة بين الدول الأربع. وأصبحت روسيا (الاتحاد السوفيتى) إمبراطورية ضخمة، بما يدور فى فلكها من دول شرق أوروبا الاشتراكية. وهى بدورها لم تَسلم من الدمار وضياع أرواح نحو عشرين مليونًا من أبنائها الروس. وظهرت روسيا فى ذلك الوقت، وكأنها المنتصر الحقيقى الوحيد فى الحرب، و«قيصرها» الرهيب جوزيف ستالين، ذو القبضة الحديدية، صاحب نظام صارم، تتلقى منه الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى الدول الخاضعة لنفوذه، الأوامر والتعليمات.

فى محاولة من جانب ستالين لاستمالة فرنسا، تلقى رئيس الحزب الشيوعى الفرنسى تعليمات من موسكو بعدم معارضة الجنرال دوجول بحل منظمات الميليشيا، التى كانت ذات أثر فعال فى مقاومة الاحتلال الألمانى لفرنسا، على الرغم من قوة الميليشيا الشيوعية الفرنسية، وقدرتها على إحداث قلاقل شديدة، وربما ثورة دموية.. فقبل نهاية الحرب، كانت فرنسا فى حالة يرثى لها: تم إعدام نحو نصف مليون مواطن فرنسى، بحجة «التطهير»، وامتلأت السجون والمعتقلات بأكثر من مائة ألف فى انتظار المحاكمات أمام محاكم استثنائية.

فقدت فرنسا نحو ٤٥٪ من ثروتها القومية، سواء بالمصادرة، أم التدمير خلال الحرب. ومن بين عشرة ملايين منزل، كانت قائمة فى فرنسا قبل الحرب، دُمر ٤٤١ ألف منزل تدميرا كاملا، ومليون ونصف تدميرا جزئيا. ومن بين ١٧ ألف قاطرة سكك حديدية، تَبَقَّى بعد الحرب ٢٩٠٠ قاطرة صالحة للاستعمال. تلك بعض الأمثلة... أما الإنتاج الصناعى والزراعى، فقد بلغا الحضيض. هذا.. غير هلاك نحو نصف مليون جندى فرنسى، واحتجاز أكثر من مليون ونصف فى السجون ومعتقلات الأسرى، وانخفاض عدد المواليد أثناء سنوات الحرب الخمس بمقدار مليون وربع مليون، قياسا على ما كان قبل نشوب الحرب.

أيضا، واجهت بلجيكا، وهولندا، ودول الشمال الأوروبى موقفا صعبا. أما بريطانيا، التى عزلت قائد الحرب ونستون تشرشل، وأحلت مكانه زعيم العمال «اتلى»، فقد اكتشفت أن «النصر» فى الحرب ما هو إلا خداع وزيف!. إنها فقدت معظم أسطولها التجارى، الذى جعلها لعشرات السنين سيدة بحار العالم. كما أنها أضاعت تفوقها التجارى العالمى، واحتياطها الضخم من الذهب، واختل بشدة توازنها الاقتصادى، فمستعمراتها - بخيراتها السابقة - تتخلى عنها واحدة بعد الأخرى، وتحصل على الاستقلال. وأُجبِرت على الاعتراف باستقلال مصر ومحمياتها فى الشرق الأوسط، واستعدت للاعتراف باستقلال الهند. أصبحت «الأسد العجوز». وكان ذا مغزى أن تطلب من الولايات المتحدة الأمريكية أن تأخذ بيديها من ورطتها فى اليونان. لقد شعر المواطن البريطانى بوطأة الكارثة.

عقب تجربة القنبلة الذرية الساحقة الماحقة فوق هيروشيما، استسلمت اليابان، وسقطت فى واقع الأمر تحت حماية الولايات المتحدة، وتراجع الرجل الأبيض الأوروبى من كل أنحاء آسيا. واستمراراً لسياسة إنهاء الاستعمار التى تبناها الرئيس الأمريكى روزفلت، ثم ترومان من بعده، أجبرت الولايات المتحدة هولندا على التخلى عن إندونيسيا، وفى الوقت نفسه لم تسترح لمحاولات فرنسا فى بسط نفوذها على الهند الصينية.

كان من العسير الاقتناع بأن فرنسا المنهوكة القُوى بكل أشكالها تستطيع الاحتفاظ بمستعمرة بعيدة كل البعد عن أراضيها. ومع ذلك.. كان من رأى بعض المتحدثين باسم الزعيم الوطنى - الشيوعى الفيتنامى «هو - شى - منه» أن تحتفظ فيتنام بحكم ذاتى، وتظل قائمة فى إطار الاتحاد الفرنسى، لكن معارضة المتشددين داخل فيتنام أطاحت بالفكرة وبالاتفاقيات المتعلقة بها، التى شُرع بالفعل فى إعدادها. فى نهاية عام ١٩٤٧، انضم «هو - شى - منه» إلى المقاومة، واشتعلت نيران الحرب.

أما الصين المجاورة، فهى مقسمة حينذاك بين الوطنيين، بزعامة شيانج كاى شك، والشيوعيين بزعامة ماوتسى تونج. وكان الأمريكيون يداعبهم فى عام ١٩٤٦ حلم ظهور «الصين القوية الديمقراطية»، فأرادوا أن يحل الوفاق بين شيانج وماو. وسرعان ما تبدد هذا الحلم، وظهرت العداوة بين الفريقين الصينيين، والتصادم فى منشوريا.

فى ذلك الوقت.. كانت الهند تغلى وتموج حول موضوع تحقيق الاستقلال عن بريطانيا.. فالمسلمون لم يرغبوا فى المخاطرة - بعد الاستقلال عن بريطانيا - للخضوع للغالبية السكانية الهندوسية، ورفضوا المشاركة فى اجتماعات الجمعية التأسيسة، واندلعت مصادمات وحشية دامية بشعة. وفى عام ١٩٤٧ اتفق الطرفان على التقسيم.

فى الطرف الشمالى الغربى لآسيا اندلعت معارك دامية أخرى.. فقد أعلنت إنجلترا أنها تعِد اليهود «بسكن Home» أو وطن فى فلسطين.. فلما اضطرت إلى التخلى عن هذا الموقع من الشرق الأوسط، لم تحدد طبيعة ولا شكل هذا السكن (الوطن). وفى عام ١٩٤٧ قررت لجنة من هيئة الأمم المتحدة - رغم المعارضة الشديدة من الدول العربية - إقامة دولة إسرائيل المستقلة على الأراضى العربية الفلسطينية. وتحت ضغط الملايين من الناخبين الإسرائيليين الأمريكيين، أعلن الرئيس الأمريكى ترومان موافقته على إنشاء تلك الدولة، دون نظر، أو اعتبار لحقوق العرب والفلسطينيين، وحجمهم، أو احتياجاتهم!.

في بداية السنة نفسها ـ ١٩٤٧ ـ واجهت فرنسا بداية متاعب متصاعدة فى امبراطوريتها فيما وراء البحار.. ففى فيتنام نشطت معارك المقاومة. وفى مدغشقر اندلعت الثورة ، وفى مراكش أعلن السلطان محمد الخامس انتهاء الحماية.

تفكك التحالف الشيوعى ـ الاشتراكى داخل فرنسا. وفى الجمعية الوطنية التشريعية (البرلمان الفرنسى) صوت الوزراء الشيوعيون ضد الحكومة، التى هم أعضاء فيها، فطُردوا من الوزارة. وفى إيطاليا سُحبت أيضا المناصب الوزارية من الوزراء الشيوعيين.

وهكذا بدأت أوروبا الغربية فى مناهضة الخطر الشيوعى الذى يتهددها، بينما على الجانب الآخر.. تزايد تقارب وتضامن دول التكتل السوفيتى، فقرر الرئيس الأمريكى ترومان أن يتدخل. وبموافقته، قدم وزيره الجنرال «مارشال» عرضا بمساعدة ضخمة لأوروبا. هذا العرض يُعتبر تحولا كبيرا فى مجرى التاريخ فى فترة ما بعد الحرب. إنها مساعدة كبرى للدول الأوروبية جميعها، ماعدا الاتحاد السوفيتى. كما لم توافق على تلقى تلك المساعدة.. الدول الأوروبية الدائرة فى فلك الاتحاد السوفيتى، ماعدا تشيكوسلوفاكيا، لكنها بإنذار من موسكو، سحبت موافقتها على تلقِّى المساعدة.

وتَقَرَّرَ أن الدول المستفيدة من تلك المساعدة، عليها أن تتضامن فيما بينها، لتتقاسم هذه المنحة الأمريكية، التى بلغت ٢٢,٤ مليار دولار (بقيمة ذلك الوقت)، والمقدمة فى شكل مواد ومعدات عينية. وكان ذلك يتضمن أن ألمانيا ليست خارج نطاق الدول المستفيدة منها.

كان رد فعل موسكو هو إنشاء «الكومينفورم». وفى إيطاليا وفرنسا أثارت الأحزاب الشيوعية سلسلة من الإضرابات والشغب، إلا أن الشيوعيين الفرنسيين واجهوا عنصرا جديدا منظما: «تجمُّع الشعب الفرنسى» الحزب الذى أنشأه الجنرال دوجول، الذى أحرز نجاحا كبيرا فى الانتخابات المحلية. رفع

الشيوعيون فى إضراباتهم شعار: «يسقط مشروع مارشال». . . لكن، فى نهاية عام ١٩٤٧، كانت إعادة بناء وإعمار أوروبا قد بدأت فى الدوران والتسارع.

فى عام ١٩٤٨ :

وقع انقلاب شيوعى فى براج (تشيكوسلوفاكيا). وفى الصين أحرز الشيوعيون «الحمر» سلسلة من الانتصارات. وفى فيتنام استمرت المعارك الحربية بلا نتيجة حاسمة. وفى الهند اغتيل غاندى. وفى فلسطين تتفوق إسرائيل عسكريا. . وفى اليونان تندلع الحرب الأهلية. وفى يوغوسلافيا ينفصل تيتو عن الاحتواء السوفيتى. وفى بروكسل (بلجيكا) تعقد اتفاقية تعاون عسكرى بين بلجيكا، وبريطانيا، وفرنسا، ولوكسمبورج، وفى ألمانيا الغربية تتم إصلاحات نقدية تدعم الاقتصاد القومى. وتبدأ «الحرب الباردة» بحصار الروس لبرلين فى ألمانيا الغربية، فتلجأ أمريكا وبريطانيا إلى إمداد المدينة بمواد الغذاء واحتياجاتها الضرورية المعيشية، عن طريق جسر جوى منتظم. وفى العام نفسه يعاد انتخاب ترومان رئيسا أمريكيا لفترة ثانية.

فى عام ١٩٤٩ :

حدث نجاح كامل لمشروعات مارشال. إنها المرحلة الثانية من فترة مابعد الحرب. وفى العام نفسه يتم الاتفاق على حلف شمال الأطلنطى: (NATO)، ويُرفع الحصار عن برلين، ويبدو نجاح جديد للشيوعيين فى الصين. وتم وضْع دستور لألمانيا الفيدرالية (الغربية)، وانتُخب أديناور مستشارا. وفى العام نفسه يحدث استقرار ماو فى بيكين، ولجوء شيانج إلى فرموزا (تايوان)، وتحوُّل الصين ذات الثمانمائة مليون إلى الشيوعية، حيث اعتبر ذلك حدثا بارزا فى التاريخ الحديث. كما أعلن الروس امتلاكهم للقنبلة الذرية.

عام ١٩٥٠:

* الولايات المتحدة تصنع القنبلة الهيدروجينية.

* قيام «الوحدة الاقتصادية للفحم والصلب» بمشاركة فرنسا، وألمانيا الغربية الفدرالية وبلجيكا، ولوكسمبورج، وهولندا، ورفضت بريطانيا الانضمام إلى هذه الوحدة، وكان ذلك بمثابة مولد «أوروبا المصغرة».

فى آسيا - بتأثير الروس -: تهاجم كوريا الشمالية عسكريا كوريا الجنوبية.

وبتأثير سن الولايات المتحدة الأمريكية، تدين الأمم المتحدة العدوان الكورى، وبناء على ذلك. . ترسل واشنطن قوات قتالية، بقيادة الجنرال ماك آرثر، للدفاع عن كوريا الجنوبية.

* فى بلجيكا:

* الملك ليوبولد الثانى يتنازل عن العرش.

* الإعلان عن مشروع «الوحدة الأوروبية للدفاع».

* هزائم فرنسية فى الهند الصينية.

* الصين الشيوعية بقيادة ماو تعلن عن مساعدتها لكوريا الشمالية.

* يطلب ماك آرثر من ترومان السماح له باستخدام السلاح النووى فى كوريا، لكن الرئيس الأمريكى يرفض بشدة، تجنبا لحرب عالمية ثالثة، لابد فيها من استخدام الأسلحة الذرية، ثم يقع صدام بين ترومان وماك آرثر.

عام ١٩٥١:

* القوات الأمريكية تصحح الوضع فى كوريا.

* والجنرال الفرنسى «دولاتْر» يحقق إنجازات وقتية فى الهند الصينية.

* فى مراكش (المغرب):

* تمرد زعماء القبائل فى الجنوب على السلطان محمد الخامس.

* استدعاء ماك آرثر إلى واشنطن.

* توقيع اتفاق السلام من اليابان.

* فرنسا فى مواجهة الشيوعيين بالهند الصينية، والولايات المتحدة تمد القوات الفرنسية هناك بالأسلحة والمعدات.

* الانتخابات التشريعية فى بريطانيا يفوز فيها المحافظون، فيعود تشرشل إلى رئاسة الوزراء.

عام ١٩٥٢:

* وفاة جورج السادس ملك بريطانيا.

* وفاة الجنرال الفرنسى «دولاتْر».

* بفضل مشروع مارشال، نهض الاقتصاد الأوروبى الغربى، خاصة فى ألمانيا.

فى تونس: الزعيم الحبيب بورقيبه يعلن انتهاء الحماية الفرنسية.

فى إيران: تأميم شركة البترول الأنجلو - إيرانية.

فى كينيا : جماعة الماو ماو تعلن الثورة على الإنجليز.

فى مصر: حركة وطنية تطرد الملك فاروق.

فى الأرجنتين: وفاة إيفا بيرون زوجة الرئيس جوان بيرون، والمحبوبة بشدة من غالبية الشعب.

فى الولايات المتحدة:

* الجنرال أيْزنهاور مرشح الجمهوريين يفوز فى انتخابات الرئاسة.

* «ضربة» صامتة للاتحاد السوفيتى، حيث أعلنت واشنطن عن نجاح تفجير أول قنبلة هيدروجينية.

عام ١٩٥٣:

* موت ستالين فى ظروف غامضة، أثارت تساؤلات كثيرة.

* خروتشيف يصبح سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفيتى.

* عفو عام فى روسيا ـ على نطاق واسع ـ عن جماعات كثيرة من المعتقلين فى سيبيريا، وإعدام بريا مساعد ستالين المقرب.

* الاتحاد السوفيتى بدوره يمتلك القنبلة الهيدروجينية.

* إضرابات متلاحقة فى فرنسا.

* فى مراكش (المغرب): فرسان الجلوى تسقط السلطان محمد الخامس.

* الكومونولث البريطانى يفقد الترابط.

* عزل ونفْى شاه إيران، ثم عودته إلى الحكم.

هكذا.. انتهت الحرب العالمية الثانية، ولم تنته المتاعب والأزمات والتصادمات، والحروب الصغيرة، والمعارك الدامية، والضحايا بالمئات والآلاف.. والسجناء السياسيون وسجناء الفكر بالآلاف وعشرات الآلاف.. سلسلة لا نهاية لها من الصراعات الفكرية والمادية، والجسدية، ظل يستخدم فيها كل سلاح ووسيلة، بما فى ذلك الإرهاب، وغسل المخ، والدعايات المشوهة والمشوشة .. ليبقى الإنسان دائما ذئبا للإنسان. والخطير فى الأمر، أنه أصبح يملك أسلحة متزايدة ومتطورة، تضاعف من قدرته على الافتراس والتمزيق بمخالبه وأنيابه، ولكن لم ينقطع الآمل فى الغد الأفضل، والصلاح فى المستقبل.. لسبب بسيط: آن غالبية الفئات التى تتكون منها المجتمعات والشعوب تنشد العدل والسلام، وتسعى سعيها فى الحياة، ولا تفكر فيما يؤرق الشغوفين بالعراك والحروب، وفيما يؤجج أطماع الجشعين والحاقدين والمفْسدين.. هكذا التاريخ يعلِّم...!.

نعمة معطلة

هيا نحلم حلما من أحلام اليقظة.. ونتمنى شيئا.. ولم لا؟!.

على الأقل نعيش لحظة، أو ساعة سعيدة.. ولو وهْمًا .. ومجانا. هل نفكر فى زعامة، أو منصب ضخم فخم.. لا يقل عن رئاسة الأمانة العامة للأمم المتحدة مثلا؟!. شىء فعلا براق عملاق، يجلب الشهرة، ويتيح حرية الثرثرة والتنقل الرغيد المريح.. لكن ـ للأسف ـ ليس مأمونا: فقد تأتى النهاية مَهيضة مهينة.

ولماذا لا تكون ثروة هابطة من الفضاء، أو منبثقة من جوف الأرض بالملايين، أو حتى بالمليارات.. فهذا عصر المليارات التى لم يكن أجدادنا الأقربون يعرفون لها عدا.. لكن أيضا، وا غماه!.. فلا أمان !، إذ قد تضيع فى دهاليز بنك يعلن فجأة إفلاسه، أو تختفى فى سروال شركة استثمار لعوب، ويذهب الجَمل بما حمل.

إذن، لا يجب التفكير فيما يستجلب الهم والألم، فلدينا منهما ـ والحمد لله على كل حال ـ الكثير. ولماذا لا نحلم ـ ونحن فى غاية اليقظة ـ حُلما «بسيطا» يمكن تحقيقه، ولا تُشقينا عواقبه؟.

لو تخيل أحدنا نفسه ـ وقد انقشعت غيوم ورسوم ـ متجولا على سَجيته من السنغال وموريتانيا والمغرب، ثم عبر الشمال الأفريقى إلى الشام، وتركيا، ثم العراق، والجزيرة العربية، ومنها ينتقل إلى إيران وأفغانستان وأوزباكستان، ثم يتجه جنوبا إلى باكستان، فماليزيا، وسنغافورة، وإندونيسيا، ويعود مرورا ببلاديف، وجزر القمر، وتانزانيا، ومنها إلى جيبوتى، والصومال، فالسودان،

لينتهى به الطواف فى القاهرة، بعد جولة عمل، أو سياحة، أو تعليم، أو تجارة، أو صناعة. . . بلا عوائق، ولا ضوائق. ورحم الله ابن بطوطة الذى ضرب لنا المثل !.

إن ما بين شعوب هذه البلاد ـ على اتساعها وتباعدها ـ من أُلفة، وروابط، وعقيدة، وتاريخ، وثقافة، وحضارة مشتركة، ثم لغة عربية تسود معظمها، وليست مجهولة فى الباقى منها. . كل ذلك يجعل الحُلم نعمة كبرى، ورغبة عظمى، ما يعطلها ويقيم الحواجز والعقبات دون تحقيقها، إلا مشاكسون، متربصون، ناقمون، والحالمون نيام!.

ومن فضل الله تعالى أنى عبرتُ هذه الجولة على فترات، من مدينة طوبَى وقرى السنغال وشواطئ غينيا، إلى غابات إندونيسيا، حيث يتردد من عدة جهات قبيل الفجر صوت المرحوم الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ـ أو من يقلده ـ فى تلاوة لآيات القرآن الكريم، يزيدها ترجيع الأصداء جلالا وخشوعا. وفى كل تلك البلاد، يلقَى المرء من شعوبها، من الأفراد العاديين المؤمنين الطيبين، كل الترحيب والمودة التلقائية المتفائلة.

وتعجب إذ تتابع الجهود «الجبارة» المتعثرة التى تُبذل فى أوروبا لجمع بلدانها وشعوبها على «كلمة سواء»، أو وحدة عرجاء!، وهى مقطوعة الوصل، متباعدة الأصل، متنافرة الثقافة، متبادلة العداوة، تُظهر الوُدَّ، وتُخفى الحقد، تبغى إزالة التفرق، وكل منها يدَّعى لنفسه التفوق. . فكيف بالله؟، إلا إذا كان الأمر مثل «زواج» المنفعة : أساسٌ واهٍ، وأجَلَ متناه، وغُرمه يزيد على غُنْمه.

ولنضرب مثلا: ألمانيا وفرنسا، اللتان تتزعمان ـ أو تَزعمان ـ قيادة تلك الوحدة الأوروبية، وتحقيقها بوسيلة أو بأخرى. منذ القرن الثانى عشر وفرنسا ـ الدولة القوية الموحَّدة ـ تنظر بازدراء واشتهاء إلى تلك الإمارات التى كَوَّنت فيما بعد ألمانيا (كان عدد تلك الإمارات عام ١٧٨٠ ثلاثمائة وأربعين إمارة أو دُويلة!!).

وكان يحْلو لفرنسا دائما غزو تلك الإمارات، أو شراء التحالف معها بالمال، أو التجارة، أو الزواج: زواج ملوك ونبلاء فرنسا من بنات حكام تلك الإمارات. وفى الفترة بين أوائل القرن السابع عشر إلى الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠) حدثتْ بين فرنسا وألمانيا ٢٣ مواجهة مسلحة، درات معظم معاركها على الأراضى الألمانية. وظلت المشاعر الألمانية إزاء فرنسا متأرجحة بين الكراهية والإعجاب: الإمبراطور فريدريك الثانى ملك بروسيا يكتب رسائل مستفيضة - بعضها على مستوى عال من الفكر والفلسفة - إلى فولتير، ويتفوق عليه أحيانا فى بعضه آرائه وملاحظاته، أو تعليقاته.

الملوك البافاريون يشيدون قصورا فاخرة على غرار قصر فرساى الفرنسى الشهير، وقصور فرنسية أخرى، إلا أن غزو الملك الفرنسى الشهير لويس الرابع عشر لأراضى البلاتينا، هو الذى أطْلق الشرارة لتوحيد ألمانيا، بإثارة الشعور القومى بين سكان الإمارات والدويلات، ثم كان للثورة الفرنسية آثارها المتضاربة الواضحة على الجانب الآخر من نهر الراين. . فلما غزا الإمبراطور نابوليون بجيوشه بروسيا (أساس ألمانيا فيما بعد)، اشتد الغيظ بالموسيقار الألمانى الكبير بيتهوفن، وكان معجبا بنابوليون، فيمحو بعصبية عنوان السيمفونية البطولية التى كان كتب بخطه إهداء إلى الإمبراطور على نوتتها يقول: «إلى رجل عظيم».

ثم يأتى الفيلسوف «فيخت»، المغالى فى الوطنية، ويعلن تفوق اللغة الألمانية على كل لغات أوروبا - ومنها الفرنسية - وبالتالى تفوق الفكر الألمانى. وبعد ذلك تذهب النازية بعيدا فى هذا الاتجاه، وتؤكد تميز واستعلاء الجنس الألمانى، وذلك فى مواجهة الدعوة الفرنسية إلى الثورية العالمية.

كانت هزيمة فرنسا من بروسيا عام ١٨٧٠ ضربة قاسية. ويدخل البروسيون باريس فاتحين، وتفقد فرنسا منطقتى الألزاس واللورين الغنيتين بالمعادن والثروات، ويحقق بسمارك وحدة ألمانيا، ويُحرز نجاحات اقتصادية للرايخ

الألمانى المتحد.. فلما جاءت مواجهة العصر عام ١٩١٤ - بالحرب العالمية الأولى - كانت النتيجة: هلاك نحو مليون ونصف مليون فرنسى، ونحو مليونين من الألمان.

فرحت فرنسا بالانتصار على ألمانيا، وتغافلت عن الخراب والدمار، وهلاك هذا العدد الكبير من شبابها ورجالها من الأبناء والأزواج، فكثرت الأرامل والثكالىَ (مع ملاحظة أن تعداد ألمانيا فى ذلك الوقت كان ٦٢ مليونا، بينما فرنسا ٤٠ مليونا فقط). واعترفت ألمانيا مُرْغَمَة «بمسئوليتها عن الحرب».

ولم تمض سنوات عشرون، حتى أشعلت ألمانيا نيران الحرب العالمية الثانية، واجتاحت معظم أوروبا، وغزت روسيا، وكانت فرنسا من أوائل ضحايا ألمانيا، فقد دخلها هتلر عام ١٩٤٠ فى معركة لم تستغرق أكثر من بضعة أيام، قاسمة، قاسية، مُذلة.

لكن الجنرال دوجول يعلن فى شجاعة وعزم: «لقد أُهينت باريس، ولسوف تتحرر باريس». واستطاع هذا الرجل الفذ أن يمحو - بمهارة - من ذاكرة الفرنسيين عار الهزيمة والتعاون مع الغازى المحتمل.

خرجت ألمانيا من الحرب مطحونة مهزومة سياسيا، وعسكريا، وصناعيا، وأخلاقيا، فلجأت إلى إعادة بناء الصناعة والاقتصاد، وإثارة حماس أوروبا بأجمعها فى هذا المجال.

وعندما زار دوجول ألمانيا ١٩٦٢، حَيًّا «الشعب الألمانى العظيم» واستُقبل المستشار الألمانى اديناور - باعث ألمانيا من حطام الحرب العالمية الثانية - استقبالا حافلا فى فرنسا. ومع الأيام، تتصاعد المواجهة الحقيقة بين «القومية الفرنسية العتيدة» و «القوة الاقتصادية الألمانية المخيفة».

هذا مجرد مثال.... واحد، فهل تتوحد أوروبا فى القريب كما يزعمون؟، وهل نظل نحن شراذم متفرقين..؟. مسألة تحتاج إلى نظر، عند من يدرك الخطر....!.

عالم مجنون... مجنون.... ومحبوب!

مليون حذاء يلقيها فى البحر المصطافون على شواطئ المحيط الأطلنطى كل عام، عن غير قصد بالطبع، لكنها تنزل إلى الأعماق، وحتى أربعة آلاف متر فى القاع!.

«سفينة الصحراء» لم يعد تعبيرا أدبيا بليغا، كناية عن الجمل، بل أصبحت اليوم فى الصحراء سفن حقيقية، كانت فى يوم ما تشق مياه بحر آرال فى وسط آسيا (جنوب روسيا)، لكن جف الآن معظمه، خاصة فى الجنوب. وعاد من المألوف رؤية عشرات ومئات السفن والقوارب مغروسة فى رماله، التى كانت من قبل جزءا من مسطحه المائى، وانقرضت الأسماك التى تعيش فيما تبقى به من مياه، لم يبق من أنواعها سوى ٣٨ نوعا، وقد كانت ١٧٨.

فى السنوات العشرين الأخيرة أصيبت شواطئ بحر الأدرياتيك (بين إيطاليا وجمهوريات يوغوسلافيا السابقة واليونان) بنوع جديد من «السرطان» المهلك، يغطى مساحات ضخمة من المياه. وهو نوع من الطحالب المتوحشة، ظهر بوفرة، نتيجة ارتفاع نسبة تلوث المياه، وزيادة نسبة الفوسفات والكيماويات والمخلفات. والشيء نفسه حدث فى مناطق من شواطئ بريطانيا، وشبه جزيرة اسكندنافيا (السويد/ النرويج)، وعند البندقية (فينيسيا)... هذه الطحالب تحجب ضوء الشمس عن الأحياء التى تعيش تحتها داخل البحر، فتقتل الحياة، وتمنع الأوكسجين من الوصول إلى المياه. إنها طحالب لا تلتصق بالصخور دائما. هى كالخلايا السرطانية التى تتكاثر بشدة فى الدم، فتفسد البيئة.

كلما أشعل أحدنا عود ثقاب (كبريت) أو نقطة وقود (فى موقد، أو ولاعة،

أو سيارة. . . .) انطلق غاز كربونى خانق. الغابات هى الرئة الطبيعية للأرض: تنقى الجو، وتغذيه بالأكسجين. ولكن الغابات التى كانت تشغل ١٦٪ من سطح اليابسة فى أول القرن العشرين، أصبحت فى نهايته ٦٪ فقط!، فأصبح فوق رؤوسنا «غطاء» كربونى له آثاره المدمرة.

وطبقا للمعدلات الحالية من حيث الارتفاع المتزايد فى درجة حرارة الأرض، واشتداد العواصف، فإنه فى عام ٢٠٥٠ سيزيد متوسط ارتفاع درجة الحرارة على كوكبنا نحو خمس درجات. ومعنى ذلك أن مستوى مياه البحار والمحيطات قد يرتفع فى نهاية القرن الحادى والعشرين بمقدار مترين، لذوبان كميات من ثلوج القطبين. وهنا تكون الكارثة: ستختفى جزر ضخمة بأكملها، مثل مالديف، وربع مساحة دولة مثل بنجلادش، ودلتا النيل شمال مصر، ومدن مثل: نيويورك، ومارسيليا، وتصل مياه بحر المانش إلى مدينة باريس، فتغرقها وما حولها!.

ومع زيادة التركيز المستمر للغاز الكربونى فى الغلاف الجوى وغازات أخرى، تتأثر درجة الحرارة على سطح الأرض بارتداد السخونة الصاعدة إلى الطبقات العليا، وعودتها ـ أو كمية منها ـ إلى الأرض. وكذلك يحتجز الغلاف الجوى كميات زائدة من الأشعة تحت الحمراء المنبعثة من الأرض إلى الفضاء، فتزداد سخونة الأرض. هذه السخونة يذهب معظمها إلى البحار والمحيطات، فتمتصها المياه، وتفقدها ببطء. وتظهر التأثيرات المضرة نتيجة ذلك بعد فترة. ولذا. . فإن أبناءنا وأحفادنا سيتأثرون بعوامل جوية، وتغيرات طقسية غير التى نشهدها نحن الآن. سيكون الجو أكثر سخونة، والأرض بصورة عامة أكثر حرارة، ومعدلات سقوط الأمطار سترفع مستوى سطح البحر.

والمشكلة السكانية ـ الزيادة المستمرة فى أعداد السكان على المستوى العالمى ـ لا يجب النظر إليها من حيث الأعداد والتوزيعات البشرية فى المناطق المختلفة من المعمورة، بل الأخطر من ذلك. . . تحول أكثر من نصف سكان العالم ـ

نحو ثلاثة مليارات ـ وهم شعوب العالم الثالث فى المدى القريب، إلى مجتمعات استهلاكية. ولنأخذ مثالا: سكان الصين اليوم ـ وهم نحو مليار وربع المليار ـ يستخدمون عادة الدراجات فى التنقل الشخصى. وقريبا، وقريبا جدا، سيتطلعون إلى امتلاك سيارات، مثل إخوانهم فى الدول الصناعية، والدول ذات المستوى الاقتصادى المرتفع، وحينئذ ستزداد نسبة تلوث الجو بمخلفات احتراق الوقود، ومخلفات المصانع المنتجة للسيارات، ومخلفات المواد التالفة من السيارات، كالمعادن، والزيوت، والأحماض، والبلاستيك، والإطارات... هذا من صناعة واحدة.. فما بالنا بعشرات الصناعات الاستهلاكية الأخرى!.

ومشكلة الحروب وأسلحتها، بما فيها الكيمائية والذرية، ومشكلة التعليم والثقافة، أن الاتجاهات التعليمية والثقافية فى معظم بلاد العالم اليوم تنمو نحو التعلق بأنماط استهلاكية متزايدة ومتنافسة، ولابد أن يعرف الكبار ـ وينقلوا ذلك إلى الصغار ـ أن لكل شيء ذِرْوة يجب أن يقف عندها، وحدودا من الأفضل للجميع ألا يتجاوزها، ليس فقط من أجل المحافظة على الثروات البيئية الطبيعية، وإنما أيضا للمحافظة على مستوى مناسب للبيئة الطبيعية، وأيضا للمحافظة على مستوى مناسب من الحياة الصحيحة السليمة لنا، ولمن بعدنا. وليس الأمر قاصرا على القدرة الإنتاجية، والقدرة الشرائية، وحسب.. وإنما قد يكون من الأفضل للمنتج وللمشترى التوقف عند حد معين، وقاية من أخطار لا يمكن علاجها، أو الوقاية منها، ومن أخطار يستحيل فيما بعد إصلاحها.

إن الكثير ـ وربما الكثير جدا ـ من إنجازات الصناعة المعاصرة، التى تزيِّن لها الدعاية والإعلانات المشوقة الملحة، يمكن الاستغناء عنه، دون أن تفقد البشرية قليلا ولا كثيرا من مقومات المعيشة الصحية الكريمة.

إننا ندمر حياتنا، بيئتنا، مياهنا، هواءنا الجوى، طعامنا، صحتنا، أجسامنا، طاقاتنا، وأفكارنا وضمائرنا.. ندمر ذلك بأيدينا، بأنفسنا، بإغراء المنتجين

ليزدادوا ثراء (ولا منجاة لهم فى النهاية من آثار التدمير)، وبإغراء المعلنين الذين لا يهمهم إلا الكسب، وزيادة الربح (وهم أيضا ليسوا بمعزل عن الآثار المهلكة).

لقد حان الوقت ـ ولعله جاء متأخرا ـ أن يؤمن سكان الأرض، المتقدم منهم والمتأخر، بأن «خير الأمور الوسط»، وبأن «القليل الدائم خير من الكثير المنقطع»، وبأن «ما زاد عن الحاجة، فهو عبء»، وأن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان واعيا حصيفا، حينما قال لجابر بن عبد الله: «ماذا دهاك يا جابر.. أو كلما اشتهيتَ اشتريْت؟». وحينما سئل: لماذا لا يتخذ لنفسه طعاما شهيا، وفراشا وثيرا، وملبسا ناعما، وفى استطاعته أن يفعل، وهو أمير المؤمنين؛ قال فى حسم، ومن غير تكلف: أخشى أن أكون ممن يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿**أذهبتم طيباتُكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها..**﴾[1].

إن الأمر جد خطير، ويمس حياة كل إنسان على الأرض، وكل من سوف يولد فى الغد. وبين أيدينا هذا الحوار الذى جرى مع رائد الفضاء الفرنسى «جان ـ لوكريتيان» الذى اشترك مع رواد الفضاء الروس فى السفينة الفضائية «مير»، التى أمضت فى محطتها المدارية حول الأرض خمسة وعشرين يوما فى شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٩٨٨.

* ماذا يقول رائد فضاء مثلك عن أرضنا المريضة المسكينة؟.

إن التلوث مرتبط بأزمة الحضارة التى نعيشها فى أواخر القرن العشرين. وهى حقا أزمة هائلة، تتنوع أشكالها: المخدرات، الإيدْز (انهيار المناعة فى الجسم)، الهجرات غير المنضبطة، التضخم السكانى، التلوث، فساد البيئة... إلخ. إن القائمة طويلة، وأزماتها ومشاكلها فى كل مكان من العالم.

* وما تأثيرها فى نفسك؟.

الإحساس بالضعف وسهولة العطَب. عندما يرى المرء الغلاف الجوى من أعلى، ذلك الغشاء الشفاف الذى يغلف الأرض، يسأل نفسه: أهو غطاء، أم

(١) سورة الأحقاف ـ ٢٠.

كفن؟. ما معنى البساط النباتى، والهواء الجوى، والماء على مستوى الكتلة الأرضية؟. كل ذلك عبارة عن طبقة ضئيلة من الحياة على سطح الأرض، لا تساوى شيئا بالنسبة لكتلة الكوكب.

* ولكن يقال ـ على الأرض ـ إن كوكبنا ضخم، وثرواته الطبيعية هائلة.

نعم، إن جوف الأرض كتلة ضخمة، ولكن قشرتها الخارجية التى نعيش عليها ـ وفيها ـ وتمثل كل صور الحياة، هى طبقة ضئيلة، مثل قشرة البيضة، أو أرق. على هذه القشرة الرطوبة، والماء. إذا جففت هذا الماء من سطح القشرة، فماذا يبقى منه؟!، ولا نقطة واحدة.

* لكننا نقول: إن الأرض متماسكة، قوية، محيطها أربعون ألف كيلو متر

وعاشت فى مدارها بلايين السنين، وننام مطمئنين إلى ذلك... لكن قشرتها الرقيقة التى تضمن حياة البشر مهددة، تتعرض للعدوان فى مناطق كثيرة منها. فى أمريكا الجنوبية مثلا تشاهد من الفضاء علامات، بل هى بالفعل جراح مكشوفة فى المساحات الخضراء النباتية. وفى أفريقيا حرائق مشتعلة فى أجزاء متعددة من الحزام الاستوائى على امتداد البصر، ولا أحد يتكلم عنها مطلقا. إن المنظر من أعلى إلى غابات أمريكا الجنوبية مخيف، فالحياة تتراجع فيها لملايين السنين، وبعد دقائق من التحليق فى الفضاء يشاهَد التصحُّر فى أفريقيا. إنها علامات الهلاك، والموت الزاحف.

* إذن، بين ماضى «الأرض» ومستقبلها انعكاس للزمن..

أحيانا، من أعلى، يظن المرء وهو ينظر إلى الأرض، أنه يشاهد المريخ. هل تعرف أن بعض العلماء يعتقد أن المريخ كان مثل الأرض، وأن الحياة كانت فى زمن ما على سطحه؟. إذا عرضتَ صورا لبعض مناطق من سطح الأرض اليوم على شخص غير متخصص، فسوف يقول لك: هذا كوكب المريخ!. إن المريخ يعتبر نذيرا لنا. إن «الأرض» دهمها سرطان الجلد، مع ملاحظة أنه تحت جلد الأرض.. لا حياة!.

* والبحر؟.

هو أيضا جزء من الجلد، ولو رأيت من الفضاء السفن والناقلات، وهى تُفرغ نفاياتها فى البحر. . . !.

* وهل يُرى ذلك من الفضاء؟.

كل شىء بوضوح. ترى فوق سطح البحار والمحيطات انتقالات لونية رديئة منفرة، وعلى الشواطئ بقع ملطخة من القاذورات، خاصة عند مصبات الأنهار والخلجان. هل هى من أفعال الإنسان، أم الطبيعة؟. إن الأرض حقا مريضة.

* ومن المُذْنب؟. من الذى تسبب فى مرض الأرض؟.

لا أحد برىء. إنها أزمة حضارة. هل أخطأنا الطريق الذى اخترناه بسلوكنا وأسلوب معيشتنا، وتبِعَنا فيه غيرنا؟، وإلى أين سيقودنا النَّهَم الاستهلاكى المنحرف؟!.

* والذين يتسببون فى إشعال الحرائق بالغابات، وفى تصحر الأراضى الزراعية، أو تحويلها إلى بنايات، والذين يهلكون الأحياء. . .

كل إنسان يقول: «لست أنا، إنه غيرى. . الآخرون»، لكن هذا الغير وهؤلاء الآخرين هم نحن جميعا. نحن نستخدم كميات هائلة ومتنوعة من الكيمائيات، وأين تذهب؟. تتسلل إلى غشاء القشرة الأرضية: التربة، أو الأنهار والبحار والمحيطات، أو تَصْعد تفاعلاتها الضارة إلى الغلاف الجوى، أى الهواء الذى نتنفسه ويلامس أجسامنا، فتفسد الأرض التى سينشأ وينمو عليها أبناؤنا وأحفادنا، وليس من حقنا إتلافها، ليس من واجبنا ألاَّ نفكر فيهم.

* بمعنى: أنا وبعدى الطوفان. .

هذا للأسف هو المقابل، ثم ندَّعى أننا أبرياء. هل تعرف ما الذى يعتصر قلبى؟. عندما أذهب إلى هولندا، وأشاهد تلك الأعداد الضخمة من الدراجات كوسيلة مواصلات. . وأقارن بها غيرها!.

* ولكن المدينة والمدنية والحضارة المتطورة من لوازمها السيارات.

نعم، السيارات وسياسة الإنتاج بالجملة والاستهلاك بلا وعى: لابد للأب من سيارة، ثم الأم، ويرغب الابن المدلل فى امتلاك سيارة خاصة به، فتُشترى، ولماذا لا يكون لأخته واحدة مثله..؟.

والمصانع تنتج، ولابد من البيع، أليس كذلك؟. ومن أعلى، من الفضاء تشاهد النتيجة: طوفان السيارات فى شوارع المدن. إنها مظهر الثراء، والثراء المريح، لكنه مثل الكوليسترول فى شراييننا. إنه دليل ثراء ونعمة، ولكنه مرض!.

* ألا من عودة؟ تَراجُع سريع؟.

إذا استمر الحال على هذا المنوال، فلا علاج، ولا أمل. وهذا مثال: إننا نشرب المياه التى تكونَت ببطء شديد على القشرة الأرضية.. مياه العصور الوسطى، أى من نحو ألف سنة. وإذا كان حقا تأثير أهل الأرض السيئ على طبقة الأوزون بأعالى الغلاف الجوى، فإن إصلاح ما فسد يحتاج إلى عشرات السنين، وربما إلى قرن بأكمله إذا اتخذت الترتيبات الصحيحة الحازمة. إنها مشكلة ليست بسيطة، ولا عابرة.

* من العسير العودة بالمدن إلى ما قبل عصر السيارات والصناعات الضخمة، والإنتاج المستمر بالجملة، ولسوف يستمر شق الطرق، وتكسيتها بالأسفلت، والبناء بالخرسانة، وإقامة المصانع والقرى السياحية على الشواطئ، وزيادة شبكة الطرق السريعة، ولا يهم أن الماء يجرى، ويتناقص.. والأرض عطشى.. لكن، بصورة عامة.. وأنت تشير إلى الصناعة ـ وهى ثمار العلوم ـ ألم تكن أنت فى مركبة فضائية معقدة التركيب تدور بك فى الفضاء، وهى ثمرة العلم والصناعة؟!.

إننى آخر من يصُب اللعنات على العلم والتطور العلمى، ولكننى أذكر أن المفكر «مونتنى» قال: «علم بلا وعى (أو ضمير)، تدمير للنفس». لست نبيًّـا،

ولا قارئا للمستقبل، ولكن ما أرجوه حقا وببساطة، أن أكون شاهدا على صحوة هذا الوعى، لدفع كل منا إلى الاتجاه الصحيح، والعمل الإيجابى.

إن الإحساس بالمسئولية الفردية على مستوى الحياة الشخصية والحياة الجماعية ليس أمرا سهلا. وإذا حدث ذلك.. تصبح الحلول والإجراءات متاحة فى كل مكان. أعود وأكرر: ليس من حقنا مطلقا أن نترك لأبنائنا حياة مستقبلها صعب... وربما مستحيل!.

وبعد... فهل من مُدَّكِر؟!.

اجتماع دولى على ارتفاع ٨٠٠٠ متر !

من خمس دول مختلفة تقابلوا، وتشاوروا وتحاوروا، ثم عزموا على أغرب اجتماع دولى فى التاريخ: على ارتفاع ثمانية آلاف متر، فوق إحدى قمم جبال هيمالايا بالتبت، أو بالتحديد: فوق القمة الخامسة، بعد صعود أربع قمم على التوالى تحتها؟.

وشرط آخر: أن يصعد كل منهم متسلقا بمفرده، من أى زاوية أو جانب من الجبل يختاره، ثم يتم اللقاء فى الأعالى.. قريبا من القمة!، وكانوا سبعة.

شرط ثالث: السرعة..!، فليس الهدف مجرد الوصول إلى القمة الأخيرة، وإن كان لم يتحقق من قبل بلوغها بهذا العدد، ومن دول مختلفة معا، وإنما الهدف الأكبر والأصعب هو التنافس على تسجيل زمن قياسى، رغم المخاطر، والمخاوف، والمخافر، والأهوال.

وهى حقا أهوال عاتية، قاسية، مؤلمة، مفزعة، ليس أبشعها الموت، لأنه فى تلك الارتفاعات الشاهقة: الدقيقة فى المعاناة شهر، وعذاب الساعة دهر، وليس من جرّب وخَبر، كمن سمع أو قرأ!.

فى ٢٩ مايو ١٩٥٣، نجح أول إنسان فى تسلق أعلى قمة جبل على سطح الأرض: قمة إفرست[١] بجبال الهيمالايا الآسيوية (وهو من نيوزيلندا «إدموند هيلارى»، يساعده تنْزنج نوركاى النيبالى). ومنذ ذلك الحين، تدافع أبطال التسلق من كل أنحاء العالم، يحاولون ويتنافسون... منهم من ينجح، والكثير يفشل، والبعض يموت من التجمد، أو يهوى، فيهلك. والهيمالايا

---

(١) ارتفاعها: ٨٨٤٨ مترا = ٢٩٠٢٨ قدما.

سلسلة ممتدة هائلة ضخمة، كثيرة القمم، متفاوتة الارتفاعات، لكنها جميعا خطرة، خطرة، خطرة. . !.

من خلال ما سوف يرويه أحد الأبطال العالميين السبعة الذين اجتمعوا ـ فوق قمة «شيشا بانْجما ـ Shisha Pangma بالتبت/ ٨٦٤٦م» سنتعرف ـ وربما لأول مرة ـ على أحوال الجبل، والطقس، والصقيع، والليل، والنهار، والضوء، والظلام، والمعيشة، والكفاح، والأفراح، والآلام، والحياة، والموت. . في أقسى وأمتع رحلة ـ على حد تعبيره ـ يمكن أن يقوم بها إنسان، خاصة إذا ما نجح في الامتحان!.

السبعة المغامرون هم: بينوا شامو ـ فرنسا (الراوي)، س. دوروتي ـ إيطاليا، ج روكو نكاج ـ تشيك، أ. هينكر ـ بريطانيا، م. روسِّي إيطاليا، (ولم يكمل معهم ب. روبيه ـ فرنسا)، إ ـ دتْري ـ فرنسا، س. بوير ـ أمريكا.

١٢ مايو ١٩٩٠ ـ الساعة الثانية صباحا ـ الليل مظلم، حالك السواد، على الرغم من أن القمر مكتمل الاستدارة والشروق. لم نستفد شيئا من وجوده. إننا في داخل مخروط الظل الهيمالايي العظيم. نحن «البُثور» أو البقع السبع الصغيرة الحية المتحركة كالديدان في هذا العالم الجليدي الجمادي الذي لا يَرحم، تحوطه مخاطر الهلاك وأطياف الموت في كل لحظة، اقترابا من ارتفاع ثمانية آلاف متر.

ما نحن فوقه، وفي جوف ظلماته، إلا سبعة كشافات كهربائية ضئيلة تتحرك. وأية حركة؟، مثل زحف الحشرات. وكشاف الإضاءة الصغير معلق فوق الجبهة، نتحسس على ضوئه الهزيل مواقع القدم، بحذر شديد، وبطء أشد. لقد دخلنا في المنطقة التي يسميها الألْبيون أو متسلقو الجبال الشاهقة: «منطقة الموت»: . . إننا على ارتفاع ٧٣٠٠م. الانحدار حاد متصلب،

والأوكسجين الجوى نادر. . كل خطوة تجربة خطرة ومخاطرة. أمامى ـ وقد اخترت أن أكون الأخير ـ «رجالى». إنهم «روح» الفريق، يتسلقون فى صمت مطْبق. إنهم مستغرفون تماما فى محاولة انتزاع ما تبقى لديهم من الكلاَّبات (الخُطافات)، وكل ضربة بالمِعول، وكل شهيق للتنفس.

هنا، تصير كل حركة، وكل فكرة معقدة مضطربة، نوعا من العذاب والمعاناة. معاناة عذاب أقسى وأشد من طبيعة هذا الارتفاع الشاهق. لكن كل واحد منا يتقاسم مع الآخرين الفكرة المحددة نفسها. الهدف المشترك أن نعود ونلتقى مرة أخرى مثلما فعلنا فى الثلاثين من إبريل الماضى، والتقينا فوق قمة «شو أويو Cho Ouo / ٨٢٠١م»، نلتقى نحن السبعة فوق قمة «شيشا بانْجما» التى تطل من عليائها على الأرض من ارتفاع ٨٦٤٦م. نلتقى معا، فى فريق مترابط، هو الأول من نوعه فى تاريخ الهيمالايا.

كان قرارا صعبا للغاية، وقد اتخذناه: أن نترك خيمتنا، ونخرج هكذا الآن ضائعين فى الثلاجات المظلمة. فتحتُ القناع الواقى من التجمد أكثر من عشر مرات، لكى أُخرج رأسى وأتفحص السماء، والأفق. ارتشفت ـ مستنشقا ـ صقيع الرياح الليلية. ترددتُ فى تقييم أخير لأهمية قرار أتخِذه فى لحظة مناسبة. إنه قرار موضوعى قدر الاستطاعة، لكنه قرار شخصى أتحمل مسئوليته. فى الهيمالايا، لا توجد تنبؤات جوية للارتفاعات الشاهقة. لا وسائل إنقاذ، لا طائرة هيليكوبتر. فقط: الإنسان فى مواجهة نفسه، فى مواجهة العوامل غير المتوقعة. إنها البديهة. . البصيرة. . «الإحساس» الذاتى المتكفل بما سوف يأتى واتخاذ القرار، وأنا على رأس الفريق، أشد صعوبة مما لو كنت وحدى، مثلما كنت أفعل لعدة سنوات، مسئولا فقط عن نفسى. الآن، تلازمنى مسئولية سلامة الفريق.

أعلم جيدا أنه ليس لنا الحق فى ارتحال خاطئ. . فلدينا من مواد الإعاشة ما يكفينا للانتظار يوما كاملا، ولكن من الخطأ الفادح أن ننتظر. . فقد سبق أن

قضيتُ ليال كثيرة فوق أعلى جبال الهيمالايا، وأعرف جيدا الارتفاعات، واحتمالات آثارها الخطرة السيئة على أجهزة الجسم البشرى.

على ارتفاع سبعة آلاف متر، يضعف الجسم، ويصيبه الوهَن بسرعة، وإذا امتدت الإقامة فترة أطول مما يجب؛ جَذَبَتْ شبح الموت حتما. ونحن بالفعل فى غاية التعب، بعد أيام متواصلة من التسلق الشاق، وفى أقدامنا حصيلة الصعود إلى ثمانية آلاف من الأمتار المهلكة!، وفوق ذلك. . . فها نحن نتسلق بلا توقف منذ ثلاثة أيام، وكان نهار الأمس على وجه الخصوص طويلا مرهقا.

بين ارتفاع ستة آلاف، وسبعة آلاف متر، كان علينا أن نتحمل فجأة مواجهة حرارة شديدة، تتجاوز الثلاثين درجة مئوية، فى تلك البيئة الجليدية التى نعيشها، وتكيفت معها أجسامنا بعض الشىء لعدة أيام[1]. ويصبح تأثير تلك الحرارة حارقا مع انعكاساتها فوق سطح الجليد الدائم، الذى يشبه سطح المرآة، فتكون الحرارة اللافحة مثل برودة الزمهرير، كلاهما عذاب مؤلم.

بعد التهاب وجوهنا وجفافها، وعشر ساعات من الصعود، أقمنا مخيمنا، وركزنا اهتمامنا حول الشىء الوحيد الذى يشغلنا: إذابة قطع من الجليد فوق السخانات الصغيرة التى نحملها، وقضاء بضْع ساعات نشرب فيها الماء، ونشرب، ثم نشرب. لابد من الارتواء جيدا قبل مواصلة الرحيل نحو القمة.

اختفت الشمس، وبالطبع. . سرعان ما انخفضت درجة الحرارة خلال دقائق إلى ٣٠ تحت الصفر!؛ فألقينا بأجسامنا فى الحال داخل أكياس النوم (تشبه الألحفة المقفَلة) مع الملابس المبطنة بالفراء. درجة الحرارة داخل الخيمة عشرون مئوية تحت الصفر: أى ثلاجة تجميد!. تناولنا قليلا من الطعام بلاشهية. فى الثامنة مساء تقريبا، وبعد اتصال لاسلكى من مخيم المتابعة عند السفح، لم يتبق لنا إلا وقت قصير للراحة والنوم قبل الاستيقاظ المبكر، وقد حددْته فى الحادية عشرة. . بعد ثلاث ساعات.

(١) من اكتشافات علماء الأرصاد الجوية الحديثة: أن درجة حرارة غلافنا الجوى تنخفض درجة واحدة كل ١٥٠م ارتفاعا (فى الظروف العادية). وعند ارتفاع معين ترتفع الحرارة فجأة. (ولا يعلمون سببا لذلك) وبعدها تعود إلى معدل الانخفاض التدريجى، وسبحان المقدر المغير.

الليل، مثل كل الليالى فى الارتفاعات الشاهقة غالبا، ما هو إلا إغفاءة طويلة، أو استراحة متقطعة.. فى حلقات.. وأحيانا يصعب فيه التنفس. الرياح تَعوى وتُصرصر، والجليد يتراكم فوق قماش الخيمة. تصدعات جليدية يدوى صوتها المفزغ كالزئير.. برودة الجليد تحتنا تخترق الوسادة. قبل أن أغوص فى النوم النصفى، ضبطتُ منبه ساعتى، وطلبت من «مورو روسِّى» و«إيف دترى» أن يفعلا نفس الشىء، حتى لانستغرق فى النوم.

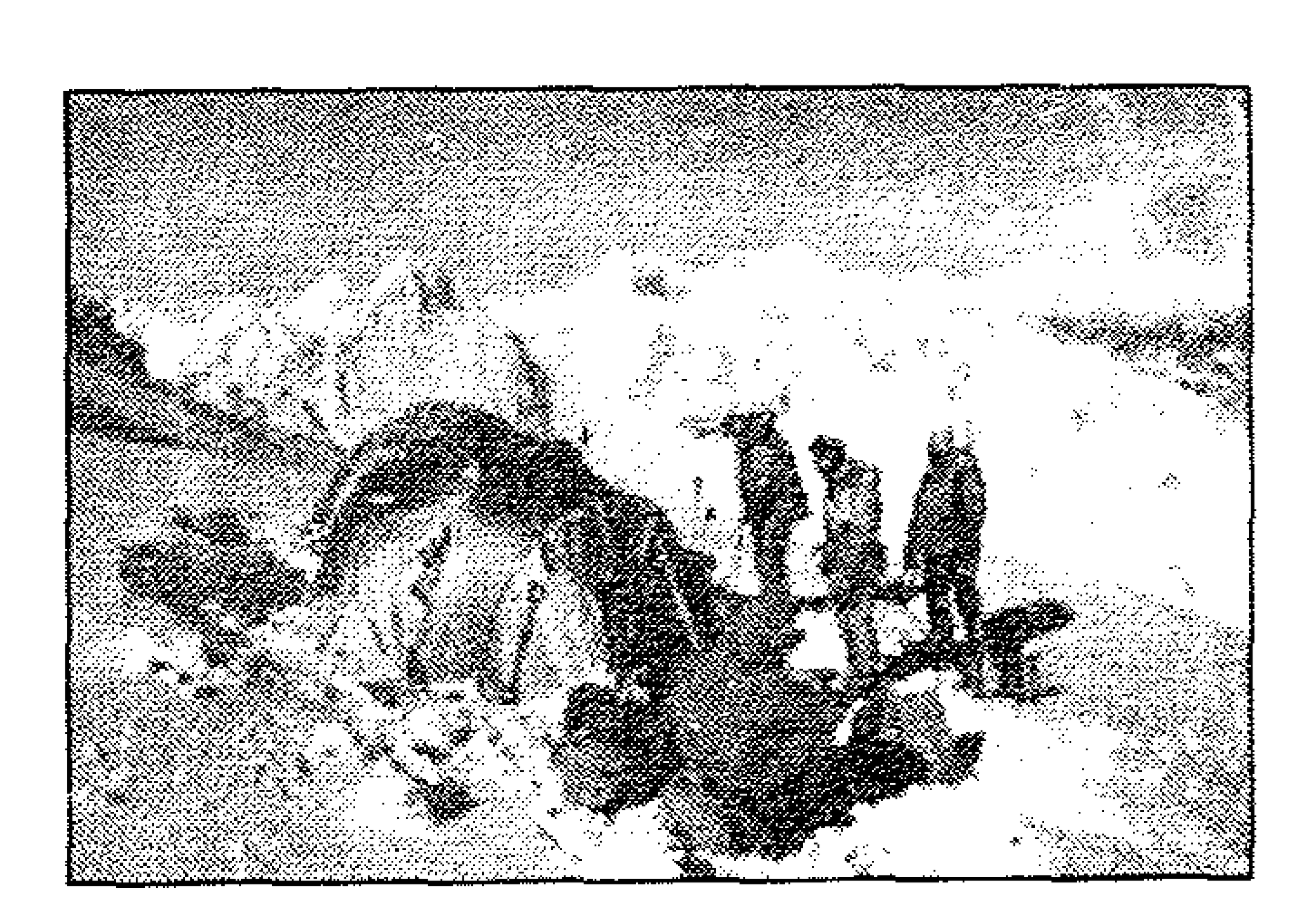
الاستيقاظ مُضْجر ثقيل، حتى ولو لم يسبقه نوم. ووضع الجسم على الطريق عذاب أليم. فى تلك الأماكن العالية من العالم، يجب دائما بذل جهد لانتزاع القدرة على بذل جهد!. أقل حركة «مكلفة». كل شخص تحدوه الرغبة الشديدة فى الانطواء على نفسه. من الصعوبة بمكان المحافظة على الترابط، وإيقاع التزامن المتماسك بين أعضاء الفريق، ولكن بهذا الأسلوب وحده، يتحتم علينا أنه نغادر الخيمة معا، نحن السبعة، إذا ما أردنا اقتناص فرصة للوصول فى جماعة إلى أعلى القمة، فى درجة حرارة ٤٠ تحت الصفر، ومع الريح المارق، لا يتوقع من يتأخر عن المجموعة أكثر من ثلاث دقائق، سوى المخاطرة بالتجمد لا محالة!.

ها نحن فى المرحلة الأخيرة. قفزة واحدة، بعد جهود شاقة متواصلة طوال شهر ونصف الشهر.. لكننا وجدنا أنفسنا محاصرين بانهيارات جليدية على ارتفاع ٧٤٠٠ متر، وبرياح عنيفة، وبرد مؤلم.

عجزنا عن التقدم. لجأنا إلى الهرب من هذا العذاب بالإقامة داخل خيمة تتسع لثلاثة فقط، ولمدة يومين كاملين. يُفزعنا صوت فرقعة قماش الخيمة، بسبب تدافع الهواء ولفحه، ومن توقعنا فى كل لحظة أن تتمزق وتنهار فوقنا بما تحمل من ثلوج متراكمة. من العسير أن نغمض أعيننا.

هكذا تذوقنا العذاب السابق على الجحيم!. دفعتنى أصوات الرياح المتفجرة وعويلها المرعب إلى أن أقطع أجزاء صغيرة من لحاف الإسفنج الصناعى لأسد

بها أذنى. وما إن هدأ قليلا عنف الرياح فى الثالثة صباحا، حتى بدأنا نتجهز للرحيل مع طلوع النهار.





عندما تضيق المساحة، تصبح كل حركة بطيئة صعبة: من ربط الأدوات والأحذية، إلى وضع الزحافات، مع تثاقل الخطوات. لابد من التحرك بلا توقف، وإلا تجمد المرء...!. بعد ثلاثة أيام أخرى من التسلق نهارا، والنوم داخل الجليد ليلا، غادرنا فجرا المخيم الذى أقمناه على ارتفاع ٨٠٠٠م. كافحنا ونحن نغوص فى ثلوج تصل إلى منتصف الجذع، وأحيانا بطول القامة!. البرد قاس عنيف. المسافات بين أفراد الفريق تتباعد.. فكلٌ يبذل أقصى جهده وطاقته. وحين يُفتقد الترابط والانتظام، تتزايد فرص وأخطار التشتت.

الأفكار تتدافع وتستبق فى الذهن المكدود، مع الصمت الممدود: الهيئة، والقوة، الدوافع، والموانع، الشك، والرك (أى الضعف والوهَن)، الأمل، والمَلل، الفشل، فى خجل... وماذا تفكر فى غير ذلك؟، كل فكرة تتبع مسارها، ثم تضاعيفها فى تصورات متلاحقة مختلطة تنبش الماضى، وتَضيق بالحاضر، وتحلم بالمستقبل. وكل خطوة تنزع نفسها انتزاعا من براثن أرضية الجبل الجليدية، التى تُضمر الخطر والغيظ معا، كأن كل خطوة تخطوها بسلام، هى انتصار على هذا العملاق الأبدى المتحدى، الذى طالما أهلك رجالا، وأبطالا، ومازال متحفزا!. لا. لن نتراجع.. لن نستسلم.. فالوصول إلى

القمة.. قمة إفرست، أو إحدى القمم القريبة منها، والتلاقى جميعا فوقها، منظر رائع يداعب خيال كل منا على النحو الذى يمده بمزيد من الصبر والعزم، وتحمل الآلام.

وعند ارتفاع ثمانية آلاف وثلاثمائة متر، سقط «ستيف بوير» متهالكا، ولم نجد له عزما. وبعد قليل، تبعه «سورو دوروتى». تابعت المسير بصحبة «مورو». الزحف على الجليد يزداد إيلاما وصعوبة، الأوكسجين الجوى نادر ويتلاشى تدريجيا. هبطت القدرة الجسدية والذهنية إلى ٢٠٪ من كفاءتها الطبيعية، ونحن على ارتفاع ٨٥٠٠م.

الجبل يزداد شراسة!... بعد كل خمس أو ست خطوات لابد من التوقف قليلا. قلبى يلهث بجنون. يصرخ ويحذِّر، ولا مجيب!. الرئتان كأنهما مذعورتان من تسارع الانبساط والانقباض، والتهوية المفرطة تصحبها آلام مبرحة. لذا.. يتحتم الوقوف لحظات لتخفيف الإيقاع، ولو قليلا. يجب أن نتيح وقتا كافيا، لكى يصل الأوكسجين النادر الثمين إلى الخلايا الحيوية فى الجسم، حتى نتمكن من بذل جهد خارق، نستطيع به المشى خمس أو ست خطوات أخرى...!، إلا أنه على ارتفاع ٨٥٠٠ متر من سطح الأرض، واجهنا صعوبات لم تكن فى الحسبان: حائط صخرى عمودى مرعب، تكسوه طبقات من الثلوج الهشة غير المستقرة، سمكها نحو ٤٠ سنتيمترًا، تشبه المسحوق الناعم الملتصق بالصخور.

يستحيل العبور!. يجب البحث عن ممر آخر. أضعنا ثلاث ساعات فى البحث عنه. وعندما عثرنا عليه، ومضينا فوقه، كان رفاقنا على إثْرنا يكافحون للوصول إلينا، وقد انضم إليهم (بإسقاط من طائرة هيليكوبتر خاصة) «ميشيل بارمنْتييه»، المصور المحترف، وخبير تسلق الجبال العالية، وصديقى. إنه ليس غريبا على جبال الهيمالايا، وله تحقيقات صحفية عالمية مصورة عن رحلات وبطولات سابقة...

ونحن الآن على ارتفاع ثمانية آلاف وستمائة متر. قمة إفرست على مرمى البصر، لكننى أعلم جيدا أن اجتياز المائتى متر الأخرين يستغرق ساعات طويلة صعبة.. ثلاث أو أربع على الأقل. اقترحتُ على «مورو» أن ننتظر حتى يتجمع باقى أعضاء الفريق. وانتهزتها فرصة لتقييم الموقف بأجمعه، وتهيئة النفس والجسم للمرحلة التالية.... الأخيرة!.



سرعان ما اقترب المساء. تقترب معه كتلة ضخمة من السحب. الصعود إلى القمة معناه إذن بالتأكيد حلول الليل، وفى جو عاصف. فلما اقترب الزملاء الثلاثة الآخرون، وتبينْت ملامحهم، تملكنى الخوف. الوجوه والأطراف منتفخة بشكل مفزع بسبب السوائل المرتشحة تحت الجلد، وبسبب التغيرات الحادة المتلاحقة فى درجات الحرارة، وبسبب ظروف الارتفاع والإرهاق والتعب فى نهاية الذروة.

بعضنا لم يتهيأ جيدا بالملابس

الواقيـة المناسبـة لليـل فـى هـذا الارتفاع. هذا يعنى المخاطرة بالتجمد الكامل، بالموت.. أو على الأقل: بتْر بعض الأعضاء من الجسم!. رأيت أنه من واجبى «تسخين» أفراد الفريق نفسيا ومعنويا قبل الزحف نحو القمة. ولكن، بأى ثمن؟!.

بسرعة دقات القلب وجريان الفكر، فرغت من تحليل الموقف، واتخذت القرار نابعا من العقل والغريزة معا: النزول.. الانسحاب!.

أعلنت قرارى بالعزم على التراجع. همهمة، وامتعاض، وجدل... ثم وافق الجميع. واستدرنا- آسفين مغمومين- نأخذ طريق العودة إلى مخيم المنسحبين قبلنا عند ارتفاع ثمانية آلاف متر. الثلوج تتساقط بغزارة. فى اليوم التالى، ونحن فى طريقنا الهابط، إذا بميشيل بارمنتييه (المصور) يخبرنى بأنه قرر العدول عن رأينا، وأنه سيتجه صعودا نحو القمة. تجاذبنا الحوار، كلانا بإصرار.. هو: محاولا إقناعى بصحبته، وأنا: مصمما على إلغاء فكرته.

بقينا وحدنا على هذا المنوال، بعد انصراف رفاقنا فى الحال. وبعد ساعتين، كاملتين، لم أستطع أن أقنعه بسماع صوت العقل، فتركت له جهاز اللاسلكى (الراديو) ومؤونة من الغاز، والأطعمة، والأدوية، ثم ودَّعته، وهبطت كالغاطس نحو الأعماق. فى الليلة ذاتها، وصلت إلى المخيم المركزى على بعد ثلاثة آلاف متر من نقطة التراجع، والهبوط حيث التقيت بزملائى. ما أسرع الانحدار والسقوط، وما أصعب الصعود!.

عندما نادانى ميشيل باللاسلكى، تبينت أنه فى عالم آخر. حاولت جاهدا مرة أخرى أن أقنعه بالعودة. كنت على يقين من أنه لن يوافق وينزل قبل أن يتحقق من سر جاذبية هذا الجبل الساحر له، وهى جاذبية- كما أخبرنى- لا يستطيع مقاومتها.

فى اليوم التالى، علمت منه أنه كسب مائتى متر صعودا، ثم فرغت الطاقة من بطارية جهازه اللاسلكى. وفى اليوم الذى أعقب ذلك، شاهدناه- بالمنظار المقرِّب ـ ينجز مائة متر أخرى فى الصعود، قبل أن يختفى فى الثلوج التى

تطمر فرائسها. ولقد غمرتْه تلك الثلوج وطمرتْه، وأخفتْه إلى الأبد!.

إن ميشيل فى ذاكرتى على الدوام. هو، وكل أولئك الأصدقاء الشجعان الذين اختطفهم الجبل، وابتلعهم أحياء، أو الذين أهلكهم قبل أن يلتهمهم، لكنه أبدا لن يهضمهم، بل يخفيهم تحت طبقات جلده، أو جليده المتراكمة. إننى أذكرهم جميعا فى كل رحلة جبلية، صعودا ونزولا، أقوم بها.

ومضت أيام فى الراحة، واستعادة النشاط والتهيئة والإعداد. وبعدها استجمعت كل قوتى ونشاطى. واستعاد الرفاق كل النشاط والقوة، وعزمنا من جديد على الوصول معا إلى القمة التى تتجاوز فى ارتفاعها ثمانية آلاف مترا: قمة شيشا بانْجما. أعضاء الفريق معى الآن هم: ف. فوليه/ فرنسا، ج. روكونكاج/ تشيك، أ. هينكز/ بريطانيا، م. روسِّى/ إيطاليا، ب. روييه/ فرنسا، إ. ديترى/ فرنسا.

بمجرد أن انسلخ النهار من الليل، انسلختْ معه كل شكوكى، وتغيرت نظرتى إلى الأمور. داخلنى شعور عميق بالثقة فى نجاحنا هذه المرة. عزمتُ على أن نتقدم بسرعة أكبر، وأن نُعجل بالصعود عاليا، لكى نتجنب خلال ساعات أن تفقد أجسامنا قدرا كبيرا من الماء بسبب الشمس.

بداية الرحيل دائما مفزعة.. فالمرء لا يستطيع أن يطرد الإحساس بأنه مقبل على عالم آخر، يقسو على الحياة. ومضينا. النُّعاس يداعب جفوننا كل ساعتين، أو ثلاث. كل منا معلق فى الفضاء، راكع طوال مسيرته الزاحفة، لارتكازه على عصا المِعْول، الذى ينتهى طرفه بكُلاب (خطاف) ينغرس بضعة ملِّيمترات فى الجليد، ويتوقع الخطر المفاجئ فى أية لحظة. وبعد كل مجموعة من الخطوات، يلزم التريث قليلا- لثوان- لاستعادة التوازن والوعى، ومغالبة الإحساس القاهر بالنوم، والتحذير الداخلى لا يتوقف: تيقَّظ.. انتبه.. إياك أن تغفل... أن تنعس.. وإلا تسقط!.

علينا الآن أن نجتاز منطقة تختلط فيها الصخور الخشنة الصلدة بالجليد

المتحجر، وبالثلوج الهشة، ثم نعبر بعدها مزلاجا (ترباس) ضيقا يعترض طريقنا في الصعود: إنه ممر ضاغط يزداد كلما تقدمنا تيبسا وضيقا في الصعود: إنه ممر يبدو أن اجتيازه سهل سريع، ولكنى أعلم جيدا أنه شاق عسر، ويستغرق عدة ساعات من التسلق. ومن أجل ذلك.. وحرصا على سلامة الرفاق، اخترت أن أكون آخرهم، لمراقبتهم، والإسراع بالنجدة إذا دعا الأمر. أمامي: إيف ذورتى.

تذكرت ما أفضى به إلىّ «إيف» في بداية تلك الليلة، حيث قال:

«لن ننجز اليوم شيئا. ليس هو اليوم المناسب. لن نبلغ فيه القمة». وشعرت أننا أخطأنا في توقيت الرحيل!، إلا أننى ذكّرته بأنه ليس وحده، وأنه يملك قدرات لاشك فيها، غير أنه لم يختبرها في المحاولة السابقة، ثم أضفت أنه إذا كان الفريق محافظا على الإيقاع المطلوب للمهمة؛ فلسوف ينجح في الصعود.

كنت واثقا من قيمة وتأثير العمل الجماعى، وروح الفريق إذا ما أُحسن توجيهه عن علم وبصيرة. ظل «إيف» يتسلق أمامي لعدة ساعات، وأنا أشجعه بين الحين والحين بكلمة، وبوجودى على مقربة منه. ورغم أن قدراته ـ فيما يبدو ـ محدودة، إلا أنه تسلق صاعدا خطوة بخطوة، بدافع من طاقته العقلية مثلنا جميعا. وهى في ذاتها قوة!. استطعنا بعد عدة سنوات من الممارسة أن نستثمرها إلى أقصى حد، سواء على المستوى الفردى، أم الجماعى. إنها قوة «الروح»، روح الفريق. إنها قوة تدفع وتسيطر على الفرد وعلى الجماعة إلى أبعد مدى في أقسى الظروف، وفي البيئة البالغة الصعوبة.

طوال الوقت، كنا نمص قطَع الحلوى (البونبون)، وأى شىء آخر تطرده المعدة. إن كل طاقاتنا الكاملة تحركها تلقائيا المراكز الحيوية في أجسامنا. ومنذ بداية التسلق، بدا أن المنطقة غير المألوفة موحشة وخطرة. تكوينها الجليدى من النمط المعروف باسم «الكتلة المهويِّة»، أى كتلة ضخمة بارزة في الهواء، عرضة

للانهيار، ٣٠ أو ٤٠ سنتيمتراً من الثلوج المضغوطة، منفصلة من طبقات الجليد بوسادة هوائية. إنها تزن عدة أطنان، وقد تنفصل عن الجبل فى بضع ثوان. ويكفى ثقل إنسان لكى يدفعها إلى الانهيار.

تجمعنا لنتشاور فى كيفية مواجهة هذا الخطر. قررنا أن نترابط معا بالحبال. دق التشيكى «جوسكا راكونكاج» وتدا من الصلب فى حائط صخرى. انطلق «بيير روبيه» فى المقدمة، فأصبح عاليا فوق المجموعة، ليتمكن من تصويرها، وهى تجتاز هذا المعبر الخطر. الثلوج تحت معوله- وتحتنا أيضا- تئن وتطن. فى تلك اللحظات.. يتمنى المرء لو كان فى خفة البعوضة!. حرصنا على أن نعبر تلك الكتلة المهوية غير المستقرة واحدا بعد واحد. ولم أنس ذلك الحادث التاريخى فى الستينيات فى جبال الألب (الأوربية) حين انزلق أربعة عشر رجلا معا، وهم من المرشدين الجباليين، وهووا إلى الموت. وأيضا فى يونيو ١٩٨٥، وكنت متسلقا وحدى، صاعدا جبل جاشر بروم فى باكستان، وعلى ارتفاع سبعة آلاف متر، وبمجرد أن لمست كتلة جليدية ضخمة جدارية بالجبل، بطول ألف متر، إذا بها تنفصل وتنهار؛ مخلّفة هوة بعرض ٥٠٠ متر!.

عندما رفعت رأسى لألقى نظرة على زملائى الذين تقدمونى، لاحظت أننا نتحرك بسرعة الملّيمتر. فزعت.. ففى هذا الممر الضيق الذى يقودنا مباشرة إلى القمة، يكفى أى انزلاق بسيط، أو تحرك كتلة من الجليد أو الصخور للإطاحة بكل أفراد المجموعة. يجب أن نجتاز بسرعة أكبر... مثل الحيوان الذى يبحث عن مهرب من المطاردة والخروج من المأزق. كان الاقتراب من القمة يمنحنا شعورا بقوة مضاعفة.

ثم ها هى المرحلة الأخيرة!، وكلما اقتربنا من القمة، ازددنا قوة، ونسينا المشقة والإرهاق. وانحصر تفكيرنا فى شىء واحد: الوصول إلى القمة. إنها هناك، خلف تلك الصخور. الأمتار الأخيرة المتبقية ثقيلة الوقع، قاسية، عنيفة، لذيذة!. خلال بضع دقائق سوف نبلغ نهاية المطاف.. نهاية شهور، سنوات

من المشاعر المشتركة.

لقد نجحنا.. معا. نحن السبعة، كرجل واحد، نجْثم فى زهو فوق القمة الحادة مثل نَصْل السكين!. ياللسعادة.. بعد هذا المشوار الطويل الذى قطعناه بالألم والأمل، ها نحن نجلس فى استرخاء ممتع فوق سقف العالم. إنه بحق.. انتصار الفريق.

أغنى وأنظف مناطق الأرض

فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين، تحمست جماعة من المبشرين المسيحيين، وعزمت على الذهاب إلى مناطق الجليد الدائم الشمالية، تدعو إلى الإيمان أولئك الذين يعيشون هناك فى تجمعات متناثرة، فى أقسى ظروف جوية باردة يمكن أن يتحملها الانسان، وفى معزل عن العالم، وما يجرى فيه. كانت الاستكشافات الجغرافية الزاحفة نحو القطب قبيل تلك السنوات، تثير المشاعر والخيالات.

التقى المبشرون ببعض السكان- وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد: الإسكيمو- ودار حوار ونقاش حول الخالق والخلق، الحياة والموت، البعث والحساب، الجنة والجحيم، ثم سأل بعض الحاضرين البسطاء فى براءة لاتشوبها سذاجة:

- وما الفرق بين الجنة والجحيم؟.

- الجنة فيها حياة النعيم الأبدية، والجحيم نار دائمة سرمدية. وعمل الإنسان فى حياته على الأرض- من خير، أو شر- يقوده إما إلى نعيم الجنة، أو إلى نار الجحيم.

وهنا صاح الحاضرون جميعا داخل الخيمة المقامة على طبقات الجليد الدائم:

- رائع ذلك المكان الذى فيه نيران دائمة للتدفئة. إننا نفضل الجحيم إذًا!!!.

تلك واقعه حدثت بالفعل، وليست فكاهة أو طُرفة... فنحن الذين نتأفف ونرتعش ونتلهف على مأوى دافئ إذا انخفضت درجة حرارة الجو إلى الصفر، أو ما يقرب قليلا من الصفر، لا نستطيع أنه نتخيل، أو نستشعر حقيقة ما يعايشه أقوام من البشر، أرضهم البيضاء طبقات من جليد دائم منذ آلاف

وملايين السنين، تهب عليها موجات من رياح باردة، قد تبلغ سرعتها مائتى كيلو ـ متر فى الساعة، وتنخفض درجات الحرارة أو البرودة فى شتائهم «الطبيعى» إلى ٧٠ درجة مئوية تحت الصفر. إنهم يعيشون فى «ثلاجات» هائلة.. عاتية!، لكنهم حقا يعيشون ويتناسلون، ويعملون، ويطربون، ويحزنون، ويكبرون، ويموتون، وكذلك كل الحيوانات والأسماك والطيور من حولهم، كما يحدث فى كل بقاع الأرض..... ولكن على نحو طريف عجيب- بالنسبة لنا بالطبع- وهذا مايستحق المعرفة والتأمل، خاصة بعد أن زحفنا بمدنيات العصر ـ بخيرها وشرها ـ إلى تلك المناطق، وربطت وسائل الاتصال والمواصلات والبعثات العلمية والرحلات السياحية والمشروعات الصناعية والبترولية والقواعد العسكرية، ربطتها «بالقرية» السكانية للكرة الأرضية.

منذ نحو قرنين ونصف من الزمان، كان يعيش فى روسيا عالم أديب مشهور فى الأوساط الفكرية والثقافية، يدعى: «ميخائيل فاسيليفتش لومونوسوف». وكان من عادته أن ينام فى غرفة مُفَتَّحَة النوافذ، ودرجة حرارة الجو ٢٠ تحت الصفر، وكان يردد دائما، أن مستقبل روسيا كامن فى سيبيريا، وفى المحيط المتجمد الشمالى.

بعد مائتين وخمسين سنة، أدركت روسيا صدق هذا الرأى، وبُعد هذه النظرة السديدة، حينما استخدمت تكنولوجيا «البرودة» أكثر من أى دولة أخرى. ولهذا السبب.. فإن أعداد العلماء والفنيين والتكنولوجيين الروسيين فى المناطق شديدة البرودة شمال سيبيريا يزيد ثلاثين مرة عن عدد أقرانهم الأمريكيين فى ألاسكا الباردة شمال كندا.

ولهذا السبب أيضا. وتطبيقا لرأى «لومونوسوف» الحصيف الرشيد، كان من أوائل اهتمامات الثورة الروسية، إنشاء أول معهد علمى قطبى فى مدينة «مورمانسك» فى أقصى الشمال الغربى لسيبيريا عام ١٩٢١، تلك المدينة المطلة

على المحيط المتجمد الشمالى، الذى يفصله عن المنطقة القطبية. فى ذلك العام.. كان عمر المدينة لايتجاوز خمس سنوات، يعيش فيها نحو نصف المليون، وتعتبر ميناء مهمًّا به أكبر أسطول فى العالم من سفن كاسحات الجليد العملاقة التى تعمل بالطاقة النووية مع سفن أخرى مجهزة للعمل فى المناطق القطبية. وهى المركز الأول للصيد البحرى فى روسيا، ونقطة ارتكاز لتصدير الثروات المعدنية الضخمة المستخرجة من أراضى سيبيريا «الباردة»، فضلا عن أنها نقطة انطلاق تسعة وعشرين بعثة علمية دائمة إلى الكتل والجبال الجليدية العائمة (للمقارنة: ليس لدول الغرب إلا خمس بعثات علمية لهذا الغرض).

والأهم، بل الأخطر من ذلك... تعتبر «مورمانسك» مرتكزا لأشد القواعد العسكرية رعبا فى العالم. والعجيب أن تلك القاعدة الاستراتيجية تبدو تقريبا غير منظورة. ومع هذا.. فهى تضم ١٩٧ غواصة، و١١٩ سفينة حربية مقاتلة مع وحدات البحرية المساعدة، وأكثر من خمسمائة طائرة حربية قاذفة ومطاردة، و٧٠ بطارية إطلاق صواريخ سام، وكل هذا الحشد موزع على ١٩ موقعا أو قاعدة عسكرية بحرية، و٢٢ قاعدة جوية رئيسية، و١٨ مطارا ثانويا، بالإضافة إلى البنية الأساسية للقوات التقليدية البرية تمتد إلى حدود النرويج، أى لنحو مائة كم. يضاف إلى ذلك كله... أن تضم تلك القاعدة الاستراتيجية الروسية قوة ردع هائلة رهيبة، ممثلة فى ترسانة، يقدرها الخبراء بنحو عشرة آلاف من الرؤوس النووية.

المدهش، أنه من الطائرة، لا يلحظ الركاب شيئا من ذلك كله، ولا حتى أقمار المراقبة الصناعية، وفى الليل القطبى تبدو المنطقة من الجو مجرد اتساع من التوندرا بلا حدود، مرصع بالبحيرات المتجمدة، يدور من حولها طريق وحيد ثقابى الشكل، يلمع فى ضوء القمر، كأنه شريط متعرج من الفضة. والمدينة هى الوحيدة فى الشمال الروسى التى لا تتجمد مياهها طول العام، بسبب تيار الخليج الدافئ.

ومورمانسك تعتز وتفخر بأنها استطاعت أن تصمد وتقاوم لمدة أربعين شهرا الغزو الألمانى، وأن تعمل ليل نهار آثناءها فى تفريغ سفن الحلفاء (التى فرضت الحصار الكامل على البحر القطبى) لإمداد الجيوش الروسية بالعتاد والمعدات الضرورية، فى الحرب العالمية الثانية.

ومورمانسك، مثل مدن الشمال السيبيرى، تآلفت مع البرودة التى قد تصل شتاء إلى ٦٠ درجة مئوية تحت الصفر. ويعجب المرء كيف مثلا أمكن شق (بالمعنى الأصلى، لا المجازى لكلمة يشق) خط للسكك الحديدية فى أرض جليدية تماما، طوله ثلاثة آلاف كيلو متر، وفى مناطق قد تخلو تماما من شجرة واحدة أو نبات، وتتجول فيها الدببة، طول الواحد منها ثلاثة أمتار ونصف المتر، وقطعان حيوان الرنة، التى تبلغ عددا نحو مائة ألف!. كل شىء فى سيبيريا- فيما عدا السكان- يقاس بالوفرة، والامتداد، بما يتناسب مع مساحتها التى تعادل ثلاثة أمثال مساحة أوربا. فى مقاطعة بها تسمى «يافوتسك»، متوسط درجة الحرارة شتاء ٣٧ درجة تحت الصفر، ومساحتها ستة أضعاف مساحة فرنسا، وفيها مناجم ثرية بالذهب، والماس، واليورانيوم، والتنجستن، وخمسون نوعا آخر من المعادن، بكميات هائلة. كم عدد سكانها؟. نحو المليون، فقط- نصفهم أقل من ١٥ سنة- يعيشون فوق الجليد. كم سمك طبقات الجليد؟. مائتان وخمسون مترًا، وعدد سكان يافوتسك وحدها مائتا ألف!، مساكنهم- مثل معظم مدن شمال سيبيريا- لا تزيد عن خمسة أو ستة طوابق، مقامة فوق أعمدة، ترفعها عن الأرض الجليدية بنحو متر، لكنها من الداخل دافئة، مريحة، مجهزة جيدا، ومعزولة عن البرودة والحريق.

وحتى مطار مدينة ياقوتسك، يتميز بالوفرة فى الطائرات الصاعدة والهابطة، بمعدل واحدة كل أربع أو خمس دقائق، سواء للركاب، أم الشحن، على مدار اليوم.. فالمدينة تعتبر البوابة الرئيسية لشمال شرق سيبيريا.. فى أقصى الشمال الشرقى لسيبريا توجد قرية «أويمياكون»، التى هى أبرد قرية سكانية فى العالم: فى الشتاء تهبط درجات الترمومتر (مقياس الحرارة) إلى ٧٢ تحت الصفر

لعدة أيام!، فإذا ارتفعت إلى ٥٧ درجة مئوية تحت الصفر، تفاءل الناس، واستبشروا أخيرا!. . فالمسألة إذن نسبية!.

تلك القرية يسكنها نحو مائتين فقط، وبها شارع واحد، لكن المدهش أنه إذا لم تهب رياح بادرة، فإن الجو يكون ـ فى مثل هذه البرودة ـ مناسبا، بل أيضا منعشا !. أشهر منتجات السكان: الصوف والفراء. وتشتهر بالمعمِّرين: ٩٢، و١٠٣، و١٠٦ سنة!، يحبون الموسيقى، حتى الكلاسيكية الروسية، وطعامهم المفضل: لحم الخيول السيبيرية المقدد، وشحومها، ولسان الخيل المسلوق، ولبن أنثى الخيل الرائب يضعونه على حافة النافذة، لكى يتجمد، ويصبح كالزبادى. وجهاز التليفزيون أساسى فى بيت كل أسرة. والملابس عند الخروج غالبا من الفراء، ولابد من غطاء الرأس، أيضا من الفراء حتى للأطفال. حول هذه القرية النائية السعيدة، أكثر من ٧٠٠ (نعم سبعمائة) منجم للماس والمعادن الثمينة، يضاف إليها. . البترول والزئبق.

لم تعد سيبيريا ذلك المنفى المنعزل أيام القياصرة. وهى وإن كانت تحتفظ بالكثير من سماتها وظروفها وطبيعتها ـ والطبيعة غلابة لا تُقهر ـ إلا أن تيار المدنية بمتطلباتها وأدواتها زحَفَ عليها، ويُسرع الخطوات والنمو، فى شكل المدن الجديدة والقرى والطرق، وخطوط السكك الحديدية، والمطارات، والمصانع، والمناجم، والموانئ.

وفى الموانئ منظر خيالى، لا يصدقه إلا من رأى بعينىْ رأسه: عشر سفن ضخمة كاسحات جليد، محركاتها تعمل بالطاقة النووية، «تفتح» الطريق طوال الشتاء بين ميناء مورمانسك فى أقصى الغرب وميناء فلاديفوستوك فى أقصى الشرق من سيبريا، أمام عشرات سفن الركاب والشحن. تأتى محملة بالقمح والأسماك، وتعود محملة بالمعادن والبترول وثروات سيبيريا، وبدون هذه الخطوط البحرية الدائمة طوال العام، تعود تلك المنطقة الشاسعة إلى ماضيها وعزلتها الغابرة.

على الجانب الآخر من المناطق الشمالية الباردة المحيطة بدائرة القطب الشمالى، تفصل حدود سياسية بين سيبيريا الروسية وبين إقليم «فينْمارك» شمال شبه جزيرة اسكندنافيا (تضم السويد والنرويج)، تعيش قبائل الرعاة منذ ثلاثين قرنا أو أكثر، على تربية قطعان الرنَّة. قديما كان عددهم فى شمال النرويج نحو أربعين ألف، وفى بقية شبه الجزيرة نحو ثلاثين ألف، واليوم لا يزيدون عن ألفين، لكن للأسف، أهلكت الإشعاعات الذرية التى انطلقت مع انفجار مفاعل تشرنوبيل الروسى، عددا كبيرا من حيوانهم الأثير لديهم، الذى ترتكز معيشتهم عليه، خاصة فى السويد. إنهم بقايا شعب لا يعرف فى لغته كلمة مرادفة «للحرب»، ولا «السلام». وهذا يعكس نمط حياتهم الاجتماعية المترابطة المتآلفة على نحو غير معهود أو مألوف فى عالم يهوى النزاع والعراك والقتال، بسبب ما، أو بدون إبداء الأسباب!.

على بعد ٧٠٠ كم من الدائرة القطبية الشمالية، توجد مدينة «ترومْسو»، الميناء المطل مباشرة على منطقة القطب الشمالى، ويسمونها باريس الشمال، رغم أن عدد سكانها لا يتجاوز الخمسين ألفا، وهى مركز لتجميع زيت السمك، ويشبِّه سكانها رائحة هذ الزيت برائحة النقود أو الثروة.

والليل فى تلك المدينة هو أطول الليالى فى أى مدينة على وجه الأرض.. فهو ليل قطبى، يطول لعدة شهور، ثقيل البرودة والقسوة، لذا.. يخشى علماء الاجتماع من أثر ذلك على سلوكيات الأهالى، لأنهم ينامون قليلا، ويشربون من الخمور كثيرا، فتزداد نسبة الإصابة بأمراض القلب، وهم لا يعْبأون.

وفى السنوات الأخيرة بدأت تظهر فى البحر الذى تطل عليه المدينة رائحة البترول. وثبت بالفعل وجود مخزون كبير منه تحت سطح البحر، لكنها تشتهر أيضا بأسماك السلمون المدخن، وتصدر منه كميات كبيرة، لكنها تواجه بسببه مشكلة: فالسلمون المدخن الذى تصدره من النوع القطبى لحمه أبيض، وهذا يضايق أذواق الفرنسيين، وإن كان لا يُضير الألمان.. فالفرنسيون لا يعترفون بالسلمون، ما لم يكن وردى اللون، فما العمل؟. فكر سكان «ترومسو» المعنيون بهذه المشكلة، وتوصلوا إلى حل عملى وطريف: تؤخذ

أسماك السلمون وهى حية، وتربَّى فى أحواض ضخمة لمدة ستة أسابيع، وتغذى فقط بدقيق الجمبرى، فيتحول لونها إلى الوردى، فيرضى عنها «الزبون» الفرنسى ويتلذذ بها، خاصة وأن هذ الأسلوب فى التربية السمكية حسَّن من طعم لحمها!.

وعلى هذه المدينة، مر كبار المستكشفين الرواد للقطب الشمالى، مثل: نانسن، وأمندسن، ونوبيل...

وإذا اتجهنا شمالا، تظهر على البعد مناظر مدهشة، ولا نظير لها فى أى مكان آخر من عالمنا: مرتفعات جليدية، مثل القطن المندوف، تتخللها الأمواج العالية، فإذا ما اقتربنا منها أكثر وأكثر؛ تكاثفت، وبدت مجموعة جزر «سفالْبارد» الصخرية، وهى صخور من الجزر التى تكسوها المهابة والسحر، لكنها شرسة خطرة، تذكِّر على الفور ببطولة المكتشفين الرواد الأوائل الذين اقتحموا ـ بشجاعة نادرة وصبر ـ مجاهل تلك البقاع، بوسائل عصرهم البسيطة المحدودة.

إن «سفالبارد» تابعة للتاج الملكى النرويجى، لكنها تخضع لاتفاقية دولية أُبرمت فى باريس عام ١٩٢٠، تقضى بمنع أى نشاط عسكرى فيها، غير أنها تمنح الدول الأربعين الموقعة عليها حق إقامة البعثات العلمية، والتنقيب عن الثروات الكامنة فى بحارها، لحساب الدولة المعنية بهذا الأمر. وإلى الآن، لم يُستثمر من تلك الثروات إلا الفحم، لحساب النرويج والروس، لكن لا هذه ولا تلك فى حاجة إلى هذا الفحم، بل هو غالى التكاليف جدا جدا: فالإنفاق على استخراجه يعادل أربعة أضعاف قيمته فى السوق!، فضلا عن أن الفحم الروسى المستخرج ينقل إلى مورمانسك، وبه نسبة عالية من الحصى (٢٥٪ على الأقل)، فهو إذن خسارة اقتصادية محققة.. فلماذا يستخرج؟!. إن قيمته الاستراتيجية أغلى من الذهب، فهو فحم «سياسى» ١٠٠٪!.

إن السبب الحقيقى جغرافى تماما: فموقع «سفالبارد» فى المنطقة القطبية

الشمالية هو فى الواقع يجعلها أهم مزلاج (ترباس) على وجه الأرض.. فهو يتحكم فى مدخل شمال الأطلنطى، وهو المنفذ الرئيسى، الذى لابد منه للأساطيل الروسية الرابضة عند شبه جزيرة «كولا». وإذا كانت الغواصات الروسية من طراز «تايفون» ـ أى الإعصار ـ المزودة بصواريخ ذات رؤوس نووية تستطيع أن تتسلل تحت الماء، وتطوِّق أوربا، انطلاقا من قاعدتها فى «مورمانسك»، فإن حاملة الطائرات «كييف» مثلا ـ فخر البحرية الروسية ـ أو الطرادة «كيروث» وأمثالها، لابد لها من العبور عند «سفالبارد»، وهى بمثابة عنق زجاجة ضيق، لا محيد عنه.

ثم نتجه بعيدا ناحية الغرب، لنتوقف قليلا عند طرف شبه جزيرة ألاسكا، على مقربة من الحدود الفاصلة بين ألاسكا (التى انضمت إلى الولايات المتحدة الأمريكية) وبين روسيا.

فى أطراف القارات، شمالا وجنوبا، توجد مدن صغيرة ـ هى أقرب إلى القرى ـ لها سماتها الخاصة، مواقعها المتميزة جغرافيا واستراتيجيا، فى شبه عزلة عن العالم، لكنها تحظَى باهتمام وقيمة إذا كانت فى المواجهة من دولة كبرى، أو قوة عظمى.

«توكْسوك» قرية حديثة فوق حافة جزيرة صغيرة تبرز من ساحل ألاسكا، تسمى «جزيرة نلسون»، وتطل على بحر بيرنج الذى يفصل الولايات المتحدة (الممثلة فى ألاسكا شمالا) عن روسيا. ليس فى الجزيرة شجرة واحدة. وأقرب شجرة إليها على بعد مائة وخمسين كيلو مترا.. وابتداء من عام ١٩٦٤، بدأ السكان من القرى المتناثرة بالجزيرة يزحفون نحو توكسوك لعدة أسباب، منها: أن يكونوا قريبين من مواقع صيد الأسماك صيفا.. فيأتى بعضهم يحمل «بيته» ومتاعه فوق عدد من براميل الزيت الفارغة، يربطها ببعضها البعض، ثم يجرها فوق الأرض إذا لم تكن مغطاة بالثلوج، أو يسحبها وهى طافية فوق مياه الخليج المطل على بحر بيرنج.

وإذا أقبل الشتاء، حزم بيته وشباكه وأمتعته فوق تلك البراميل المتضامة،

وسحبتها الكلاب المدربة فوق الجليد إلى موطنه.. ويحتاج هذا النقل إلى ثلاثين كلبا، يسيرون تسع ساعات فى اليوم. والحق أنهم يعودون «بغنيمة» تستحق كل هذا العناء: أسماك مجففة، زيت الفقمة، وجلودها، وأشياء أخرى مُربحة، مثل أسماك السلمون والرنجة.

يحرص كل بيت فى توكسوك - وهى بيوت خشبية صغيرة - على وجود حمَّام به، تتصاعد منه أبخرة المياه الساخنة، حيث ينعمون كل ليلة بحمام بخار منعش.

اليوم، ظهرت فى أرجاء القرية سمات «الفخامة» العصرية: مياه نقية عبر المواسير إلى داخل البيوت، أعمدة إضاءة بالشوارع، تيار كهربائى متاح لكل إنسان، وجهاز تليفون. ولكن، كل شىء بثمن: فالكيلوات من الكهرباء مثلا يدفع عنه نصف دولار (بالتحديد ٤٨ سنتا) تسهم فيه الإدارة المحلية بالنصف، وهذه القيمة تعادل خمسة أضعاف ما يدفعه سكان العاصمة الأمريكية (واشنطن). وقس على ذلك... قيمة المكالمات التليفونية، وأسعار الجازولين (الجالون = ٢,٥ دولار)، والآيس كريم، والصابون.

فى موسم الربيع ينشط الصيادون - إضافة إلى صيد الأسماك - بعد ذوبان الثلوج، فيصطادون الفقمة، والثعالب، وحيوان المِنْك (فراؤه ثمين جدا) وطيور البط والإوز.

تستغرق فترة الصيد بضعة أسابيع فقط، يعود بعدها الصيادون إلى مواقعهم، وحصيلة كل منهم تتراوح بين ثلاثة آلاف، وستين ألف دولار، وفقا لمقدرته وخبرته و.. حظه. وهو مبلغ يكفيه للإنفاق حتى الموسم التالى. ويشترك الرجال والنساء - فى الأسرة الواحدة - معا فى الصيد.. فالرجال يستخرجون الأسماك من البحر، والنساء يُصلحن الشبك، ويجففن الأسماك فوق الصخور، ثم يحفظنها فى العلب، أو الصناديق.. فلكل مهمته وعمله التقليدى.. حتى الفتيات لهن عمل: ملاعبة الأولاد الصغار، ورعاية الكلاب.

ويحرص الكبار على تعليم الصغار كيف يحمون أنفسهم من العواصف الثلجية المفاجئة: بحفر طبقة الجليد الأرضية، وعمل جُحر للاختباء فيه.

وأهالي المنطقة لهم لغة خاصة، لذا.. من العسير على الإثنى عشر طالبا من أبنائهم الملتحقين بألاسكا فى مدينة فيربانكس التفاهم بطلاقة مع زملائهم وأساتذتهم. وسرعان ما يشعرون فى تلك المدينة بمرض الغربة. وهذا دليل على الترابط الشديد والعلاقات الحميمية داخل الأسرة.

وشيء آخر متعلق باللغة، ويسمى عندهم لغة يوبيك: وهى أن بعض الكلمات له أكثر من معنى ومغزى.. أو قيمة أخلاقية تربوية: فمثلا، كلمة «اسمع، أو استمِع» هى نفسها تعنى «أطِع»، أى أن السمع والطاعة يجتمعان معا فى كلمة واحدة. والآباء لا يتجادلون ـ وبالتالى لا يتشاجرون ـ مطلقا أمام الأبناء، ولا يعاقبون الصغار أبدا جسمانيا، ولكن يفضلون أن يدخلوا معهم فى حوار أو مناقشة، حتى يكتشف الصغار بأنفسهم أنهم مخطئون.. لكن مشكلة الآباء، أن بعضهم ـ بل أكثرهم ـ يسرفون فى شرب الخمور. وحينئذ يفقد معظمهم أسلوب الوداعة والرقة. والخمور وافد جديد من الخارج.

والقرية كلها كاثوليكية العقيدة، والطلاق لا يكاد يسمع به أحد. والالتزام بشعائر وتعاليم الدين ليس مظهريا، أو مجرد أداء لواجب، فهم جادون فى ذلك كل الجد، وفى كل عام يقام احتفال دينى، يجتمع فيه سكان القرى المتناثرة فى الجزيرة، يؤدون الصلوات، وينشدون، ويغنون، ويتبادلون الأحاديث والسمر.

وينشأ الأطفال على استيعاب مواريث الكبار، سواء فى الجد، أم اللعب. وعندما يفلح الفتى أو الصبى فى صيد أول فقمة بنفسه، وبمفرده، تفرح الأسرة، وتقيم الأم حفلاً، تدعو إليه نساء القرية، تقدم فيه لحوم تلك الفقمة المطبوخة، مع غيرها من الأطعمة المفضلة والمشروبات، وتوزع على الأطفال القادمين إلى الحفل الحلوى والعصائر، ويتلقى الفتى صائد الفقمة الشجاع هدايا

من الوافدين: الأرز، والزيت، والسكر، والملابس، والمناديل الورقية!. وفى نهاية الحفل، تقف الأم - الفخورة بابنها - على باب بيتها، وأمامها كل الأمهات الوافدات وأطفالهن، ثم تقذف نحوهم فى الهواء بأنواع من الهدايا والتذكارات، يتسابقن جميعا مع أولادهن للحصول على شيء منها، والكل ضاحك سعيد مبتهج.

والتعبير الشائع بينهم: أن الأسرة مثل السلسلة، طالما كان أفرادها داخل بيت واحد، فهم مترابطون مثل حلقات السلسلة. ولكل منهم مكانه، وقيمته، وعمله مع من يجاوره من الحلقات.. فإذا تزوج؛ انفصل عنها، ولكنه سيظل طوال حياته جزءا منها. وإذا لم يتزوج؛ بقى مستمسكا بها، وكل ما يكسبه الفتى أو الشاب - مهما بلغ من العمر - يعطيه لأبيه طوال إقامته داخل الأسرة، فيأخذ الأب منه ما يشاء، ويرد إليه ما يرى أنه كاف لمصروفه الخاص.. فإذا تزوج الابن، انتقل إلى بيت جديد، ودارت الحياة دورتها على نفس المنوال.

ثم بدأ مؤخرا تعليم اللغة الإنجليزية فى السنوات الأولى بالمدارس، التى أخذت تنتشر. وفى عام ١٩٧٦ أقيمت فى القرية أول مدرسة ثانوية، تكلفت مليونى دولار أمريكى، وفّرت على الطلاب السفر يوميا مسافة ١٩٠ كيلو مترا إلى أقرب مدرسة فى وادى «يوكون».

وبرنامج الدراسة الجديدة يشمل: الإنجليزية، والرياضيات، والعلوم، والاقتصاد، والآلة الكاتبة، وتجارة السوق، بالإضافة إلى الحرف الفنية التقليدية المحلية، و..... الرقص!. وتناول زحف المدنية المعاصرة أيضا الملابس والأزياء، وأصبح شائعا بين الشباب والأطفال: القمصان الشبابية (تى شيرت)، والبنطلون الجينز، والأحذية الرياضية المطاطية الحديثة، بينما تحافظ الفتيات على ارتداء الملابس الحديثة، ولكن بشرط أن تكون طويلة، والأقراط المدلاة، وسترات (جاكيت) سميكة من جلد الفقمة، أو فراء الثعالب البيضاء، أو الذئاب القطبية الصغيرة. وامتلأت الساحات بالسيارات المقاومة للثلوج، بدلا من الزحّافات التقليدية القديمة.

وخارج المدرسة، ينشغل الفتيان بالصيد، والفتيات داخل بيت الأسرة بالعمل المنزلى مع الأمهات ورعاية الصغار.. فإذا كان الوقت صيفا، خرجن لجمع بيض الأسماك، وأنواع أخرى تصلح للطعام. وخلاف هذا وذاك.. ليس أمام الشبان والشابات من مكان أو عمل يشغلهم، سوى الألعاب الرياضية، لكنها قاصرة على ما يؤدى داخل المدرسة، فى فصل الشتاء الطويل المظلم: فقط للبنات كرة السلة، وللبنين ألعاب رياضية أخرى كثيرة. وتقام المباريات للتنافس مع طلاب المدارس فى القرى المجاورة.

وتنظم المدرسة الثانوية احتفالا سنويا (كارنفال) عامراً بالألعاب والمرح والمسابقات، ومن يخطئ، أو يفشل، أو ينهزم فى المباريات والمسابقات؛ يحتبس داخل «سجن» مقلَّد لمدة دقائق أو ساعة، حتى ولو كان عمدة القرية، أو أعضاء مجلس القرية، أو القسيس!. وفى ساحة الاحتفال المزينة بالأشرطة الملونة، والنجوم اللامعة، ينتخب الحاضرون «ملكا» و «ملكة» للعام الدراسى، ثم يضع كل منهما التاج البراق، ويفتتحان حلبة الرقص برقصة «ملكية».

وعندما تدق الساعة معلنة الحادية عشرة ليلا- ولا نقول قبل منتصف الليل، لأنه ليل يطول لبضعة شهور!- يتوقف كل شىء، ويبدأ الجميع فى الانصراف إلى منازلهم على دقات أجراس الكنيسة. ومن أراد السهر بعد ذلك، ففى البيت متسع مع جهاز التليفزيون أو الفيديو!.

ويعترف الآباء- فى شىء من الأسى- بأن ما يفد إليهم من العالم الخارجى يغير من حياتهم وأسلوب معيشتهم، خاصة منذ تطبيق برنامج إعادة التوطين، والأدهَى من ذلك... مع قدوم بعثات الكشف عن البترول. وتدفقت ملايين الدولارات لإنشاء الطرق، والمساكن، ومتطلبات معيشة القرن العشرين، واقتصادياته، وذلك منذ عام ١٩٧١، مع بداية تنفيذ المشروعات. ومنحت قبائل الإسكيمو، والهنود المحليون والأيويث أموالا وقروضا بالملايين لانتزاع ٩٠٪ من أراضيهم، وأجبروا على الدخول فى تعاونيات بالإسهام مع سكان القرى

الأخرى. وجاء الرجل الأبيض، بأمواله وآلاته إلى تلك الجزيرة ليزداد تضخما وانتفاخا وتكديسا للثروة، جالبا معه أمراض العصر، ونفايات بلا حصر، و«حضارة» مفروضه بإغراء أو قسْر.

وفي اجتماع محلي- وما أكثر الاجتماعات التي تعقد- وقف رجل مسن وقور من الأهالي يقول: «لم تعد الأرض، ولا الماء، ولا الهواء كما عهدناها وألفْناها من قبل. والمشتغلون باستخراج البترول يزعجوننا بالضوضاء، ويقذفون بأشياء ضارة في الماء، وحتى لو توخوا الحرص، فإنهم يغيرون أشياء وأشياء»!. فوقف رجل آخر يسأل: «هل تصغى شركات البترول إلى شكاياتنا؟»، فرد عليه ثالث في تهكم: «إذا كنت قويا بما يكفى، ومعك سلاحك جاهزا للإطلاق في يدك»!. وبعد نقاش حاد ساخن حزين، حسم عمدة القرية الأمر- وهو من السكان الأصليين مثلهم- فقال: «إن رجال البترول لا يعبأون بالأسماك، ولا الفقام (جع فقمة)، ولا بالطيور. إنهم يأتون إلى هناك من أجل البترول، والثروة، لكى يعيشوا حياتهم ويأكلوا طعامهم. وهم لا يأكلون هذا الطعام، ولا يعيشون تلك الحياة، إلا من خلال المال. وعليكم أن تفهموا ذلك، وترضخوا له». فلما أشار أحد الحاضرين إلى تغير سلوكيات الشباب بعض الشيء؛ رد العمدة قائلا: «ذلك لأنهم ذهبوا إلى الجامعات بالخارج، وخالطوا أهل المدن من البيض، وإذا أرغمناهم على العودة إلى تعلم أكل طعامنا من الأسماك المقددة، فسوف يموتون جوعا»!. وصاحت إحدى الحاضرات: «إذا فقدنا ثقافتنا، وفقدنا جذورنا، فإن ذلك يعنى إضعافنا وهدمنا. وعلى أي شيء يحرص الصغار مستقبلا، وعَلاَمَ ينظرون وراءهم؟. هل سيعرفون من أين جاءوا؟!.

وللأسف، بدأ يظهر صراع بين الآباء والأبناء، بين جيل قادم وأجيال مضت، ولا يظن أحد أن هذا الصدع سيلتئم، وليته لا يتسع!.

وداعًا للبساطة، والهدوء، والبيئة الطبيعية النظيفة، رغم خلوها تقريبا من مظاهر المدنية المعاصرة، لكنها ثرية بالوداعة، والترابط والتآلف، والالتصاق بالجذور، والقناعة بالمفطور، والاستمتاع بدفء الأسرة، وإن كان طعامها كِسْرَةً!.

البحر، والليل، والناس، والحب

بكل معانى السيادة، وما تحمل من: قوة، ورهبة، وسيطرة، وسلطان، وعطاء، وأخذ، ومنح، ومنع، ورضا، وغضب، وصفاء وبطش...

لولا البحر، لما كانت على الأرض حياة. ولئن كان من المسلم به أن الماء أصل كل كائن حى، فإن الأحياء تتنفس الهواء.. وبدون البحر لن يوجد على الأرض هواء يناسب تنفس الأحياء. لذا.. فإن البحر يشغل نحو ثلاثة أرباع مساحة سطح الأرض. والبحر عامل أساسى فى توزيع الحرارة على اليابسة، وفى تشكيل صور الحياة عليها، وفى ترتيب مسارات الرياح، وفى قيام حضارات، ومدن، وموانئ، وتجارات، ورحلات، وروابط بين الشعوب واتصالات. والبحر مورد هائل لطعام سكان الأرض، ومصدر للطاقة والمعادن والأملاح، فضلا عن أن ٩٧٪ من مياه الأرض مخزون بالبحار والمحيطات. إن وجود بحر على كوكب من الكواكب معناه تلقائيا وجود أحياء، واستمرار حياة. وانعدامه مرادف للاّحياة.

هل يدرك الإنسان ذلك، ويقدره حق قدره؟.

فى هذا القرن، أى على مدى نحو مائة سنة، انتزع الإنسان- بأنانية وإسراف وجهل- بلايين الأطنان من الأحياء البحرية، وقذف فيه بلايين الأطنان من المواد السامة، دون نظر أو اعتبار للمحافظة على مخلوقات البحر، وهى مكونات أساسية لنظام الحياة على الأرض، الذى يعيش البشر فى نطاقه.

عندما كان سكان الأرض لا يتجاوزون مائة مليون منذ نحو خمسة آلاف سنة، كان تأثيرهم السيِّئ على البحر محدودًا، لا يكاد يضير.

وحتى فى القرن الثامن عشر، عندما ارتفع عددهم إلى نحو البليون (المليار)، كان الأثر السيِّئ على البحر ضعيفا.. لكن العدد قفز إلى خمسة بلايين فى عام ١٩٨٥، وفى السنة نفسها، وما تلاها من سنوات، قل تدريجيا مقدار الكائنات البحرية المستخرجة من البحر. ما معنى ذلك؟. أن أحياء البحر تناقصت، بل واختفت أنواع منها إلى الأبد. ولمّا كان اهتمام الإنسان بالفضاء وارتياده يفوق عنايته بالبحر وكشف أسراره، فإن الكثير من جوانب الحياة البحرية ما زال مجهولا، غامضا، دفينًا فى ظلمات البحر، وأعماقه السحيقة التى لم يصل إليها الإنسان بعد. لذا.. لا أحد يعرف ماذا أصاب تلك الأعماق البعيدة وكائناتها الحية من أدران وأضرار وأمراض بسبب الإنسان، وأفعال الإنسان، وحماقة الإنسان!.

ولو علم الناس أن المحافظة على البحر، وعلى الكائنات الحية فى البحر، وعلى نظام الحياة والنمو داخل البحر، هو فى ذاته محافظة على مياه الأرض، وطقس الأرض، ونظام الحياة على سطح الأرض (وبالتالى حياة الإنسان، والحيوان، والنبات)، عندئذ، سيفكرون جادين، ويعملون متضافرين، بأسلوب جديد، ومنهاج قويم مع البحر وعالمه.. اعترافا منهم بالفضل، وردًّا لبعض الإحسان.. فمنذ آلاف، بل ملايين السنين، والبحر- طائعًا- يقدم للناس المعروف والفضل، ويمنح- قانعا- كوكبنا قوام الحياة، وركيزة نشاط ونمو وعمل.

ولكن...

هل نعرف نحن بحق ما هو البحر؟.

سؤال يبدو ساذجا، لا يحتاج إلى إجابة، وربما لا يَخْفَى على أى طفل أن يفيض فى الحديث عنه.. فقد وقف على شاطئه، و «بلبط»، أو سبح فى مياهه، وقد يكون ركب ظهره فى سفينه، وحتما رآه مرارا فى أفلام السينما، وعلى شاشة التليفزيون.. فإن كان شابا يافعا، أو رجلا كبيرا (ولا ضير أن

تكون فتاة أو سيدة)، فهو قد خاض مياهه سباحة، أو انزلق داخلها غوصا، أو شقها صيدا. . هذا صحيح، ولكن ما زال السؤال قائما: هل نعرف بحق ما هو البحر؟!.

فى كتابه الرائع الممتع الظريف المخيف، يردُّنا «أوليفييه دو كرْزوزون» إلى حقيقة البحر، وعالمه، من خلال كتابه «ذكريات مثيرة»، وهى ذكريات حقيقية، لاخيال فيها، ولا مبالغة أو افتعال، لأنه واحد من أشهر أبطال عالم البحار المعاصرين، الذى دار مرارا حول العالم وحده- أى وحيدا، وهذا مدهش ومثير فى ذاته- بمركب شراعى، وفى أسلوب شاعر بسيط عذب يحدثنا عن علاقته بالبحر وجولاته- خاصه الليلية- فيه، وما رأى، وواجه، وسمع، وتعلم. وبعد ذلك نراجع أنفسنا فى إجابتنا عن السؤال!. يقول:

منذ أن كنت صبيا صغيرا، وأنا شغوف بالسهر ليلا، وكأننى فى موقف التحدى مع النوم، أو على الأقل مع النوم الطويل. كنت أشعر أن هذا الإصرار على السهر يكسبنى قوة. وقد لا أكون مبالغا. . فإن أى إنسان ينام ثمانى ساعات فى اليوم، سيجد أنه فى سن الستين قد قضى عشرين سنة ـ ثلث عمره ـ نائماً، وهذا مخيف![1].

إذن، فأنا أعشق سهر الليالى، وأبجِّل الذين يعملون ليلا، والساهرين مع القمر، فلا يزاحمون الجموع المتدافعة المتضاغطة، الزاحفة مع شروق الشمس، وضجيج الصباح، وصياح المشاه والركبان. وعندما يعود الساهرون فى هدوء مع الفجر إلى مضاجعهم، فإنهم يتركون الأرض للكتل البشرية الصاخبة.

فى جوف الليل، تتفتح مشاعر الكائنات البشرية، فتجرؤ على التعبير بما تعجز عنه فى النهار، ولليل تأثير ضاغط. . فيزداد التيقظ، وتنطلق النفس متحررة من حواجزها، فتنفجر الأحاسيس والرغبات، وهى لا تخلو من جمال.

---

[1] فى دراسه علمية أمريكية نشرت فى أكتوبر ١٩٩٦، ثبت أن نوم خمس ساعات منتظمة ومريحة كل يوم، يكفى تماما لمطالب الجسم البشرى.

والنوم ضرورة، نعم، لكنه فى الواقع غيبة!. تلك هى الفكرة المبهرة التى صاحبتنى منذ سنين، وتشعرنى بالثراء.

عندما أكون فى المركب ليلا، إذا ما صحبنى شىء من ضوء القمر فإننى أرفع عينىّ، وغالبا ما أكتشف خيبة الظن تطل من عليائها الموحش.. فالسحب المتراكمة تسرُع متضاغطة، متجهمة بلا توقف وضراوتها قاسية شرسة، تحتها العالم مظلم تماما، كتلة سوداء ثقيلة، صلدة، لا تسمح بنفاذ.. فيستحيل علىَّ رؤية المركب، أو حتى طرف ذراعى، أو قدمى.

عندئذ يحدث شىء غريب، كأننى أكبُر وأمتد وأتضخم، إذ يصبح بدن المركب بأكمله هو جسمى.. فضربات الموج فى صدر السفينة أشعر بها مباشرة فى ذراعى، وقدمى، والكليتين. وبفضل هذا الإحساس، ومع انعدام الرؤية البصرية، يمكن قيادة المركب، والسيطرة عليه، وتوجيهه بدقة بالغة، والدخول فى سباق، دون أدنى شعور بتأثير السرعة. ينتاب المرء حينئذ إحساس قريب من الدوار، وهو يرتفع عاليا بإيقاع منتظم، لكنه فى واقع الأمر ثابت لا يتحرك من مكانه، وسط عالم خال تماما من المعالم، مغمور فى الظلام، منقطع عنه الأفق لا يتبين- أو حتى يلمح- أى بروز للموج، أو منظور يحدد له الموقع والمكان الذى هو فيه.

تميل الليالى غالبا إلى الهدوء، فتجلب معها فيضا آخر من السعادة والنشوة. وتفرض الظلمة نفسها، فلا يبقى فى الوجود أحلى من التأمل خلال أهداب فسيحة من الظلال اللامعة، الكثيفة التى تحيط بالمركب والأشرعة.

تلك الليالى الجاثمة فوق البحر بصوتها الشامل، تحتضن الرجل الممسك بالدفة، وكأن الظلمة عباءة تنسدل على كتفيه، نديَّة ناعمة، وهو يحتمى من البرد داخل غطاء واق محكم من المشمَّع تحته رداء سميك، والجسم تسرى فيه موجة من النشاط والانشراح البهيج، فيبدأ الإحساس بالغموض الساحر.. ليس من معالم واضحة، إلا نبضات إشعاعات متقطعة صادرة من البوصلة، ثم

تتضخم الظلمة، وتتراكم، صارمة، موحشة. وهنا تسيطر الأذن على الحواس الأخرى جميعها، وتتولى هى توجيهها وقيادتها، وبالتالى، فإن كل عمل فنى تقَنى يرتبط على نحو ما بها. وهى على اتصال مباشر ومستمر بصوت انسياب المِياه بطول بدن المركب، وبرعشات الأشرعة وباصطفاقها المفاجئ، الذى يعنى انفكاك واحد أو أكثر من أربطتها، أو حدوث خلل فى توجهها بعرض البحر.

ثم فجأة، يكتمل ظهور القمر فى لياليه المضيئة. يرتعش فوق الماء، أو يسقط على سطحه بحدة، فيلمع كل شيء، ويصير فضيا. وينشأ أفق جديد فى غُلالة فاخرة من الأنوار، مبهمة، لكنها تتوالد، وقد تصحبها بعض الألوان. لابد للظلام من نور، والعكس صحيح...

فى البحر، أرقب القمر كل الليالى. إنه صاحب رفيق مشجِّع يؤنس الوحدة. أحيانا أحدثه. إنه مرآة فى السماء، عين تبصِر وتبصِّر، أنثوى فى بعض الليالى النادرة. شاهد على العالم، ساخر من تناقضات سكان الكوكب المطل عليه، أهل الأرض، ومن مدنهم التى فيها كل شيء يسرع، ويتصارع.

فى البحر المحيط الفسيح، لا يغفل ربان المراكب والسفن فى بعض الليالى عن الصلاة، خاصة عند اقتراب خطر، أو تصادم، أو موقف تتجاوزه السيطرة... وهنا يكون الجحيم. أذكر مرة أننى كنت على وشك النوم، وإذا بأمواج جامحة تتكسر ضاربة المركب من كل جانب. واندفعت كتل من الثلوج المتجمدة تتطاير فى كل اتجاه، ضربت وجهى بعنف، أفقدتنى الرؤية، ثم تسارعت وتسارعت فى ضباب من الزبد الأسود.

ومع ذلك.. فمن رأيى أن الجو الليلى السيِّئ أقل إرهابا من النهار. ففى الليل، يحمينا نوع من عدم الإدراك، من اللاوعى. ومع أول إشراقة الفجر مع بداية ظهور ملامح البحر، فى لون أزرق أخضر- رمادى قبيح، وقذر، مضر بالصحة بقوته البغيضة المنفِّرة، عندئذ يصاب المرء بالفزع من حجم الأمواج، وتنقبض النفس، ويتسرب إليها القلق من تداعيات الماضى، فيكون من الأفضل عدم التفكير فيما يبذل من جهد شاق، والإغضاء من المغامرة.

كثيرا ما قلت لنفسي في بواكير الصباح إنني سعيد الحظ إذ خرجنا بسلام وبلا إصابة، المركب وأنا. في البحر، تأتي أوقات يحسن فيها ألا يفكر المرء فيما حدث. وفي منطقة قريبة من شواطئ الجنوب عند رأس الرجاء الصالح، كان ربابنة السفن الشراعية الكبيرة فيما مضى، يمنعون الرجال العاملين على الدفة أن ينظروا خلفهم، مخافة.. أن يفزعهم حجم جبال المياه البيضاء المتصاعدة من ورائهم.

ويمضي الليل في سباق، ولا بد لمنافسيه غالبا من الاستسلام، فتعتريهم فترة حاسمة من التحفز للهجوم. وهنا، أصبح في غاية التوتر والعداونية، وأنصرف بكل كياني إلى العمل. تلك الأعباء الليلية مدهشة... فالنشاط العضلي يستهلك الوقت، ويغفل الجسم والفكر عن الإحساس بالليل، ولا يبقى إلا نضال خشن لا يكاد يتوقف.

ثم يأتي طلوع النهار، تسرية عن النفس ومواساة، فتعود العين تبصر بوضوح وتتعرف، وتصلح ما فسد وتقيم ما اعوج، ثم يمضي كل شيء عاديا على سجيته، وتنتعش النفس، لأن عملا شاقا قد تم إنجازه، ويخلد الجسم إلى نوم قصير يستعيد فيه نشاطه.

إن فترة انسحاب النهار أسوأ وأشد قسوة من فترة طلوع الفجر وإشراق النهار. عندما تغرب الشمس وتختفي خلف الأفق، تترك وراءها ضوءا باهتا، وهذا يعني انتهاء السكينة والمرح، والناس- على اليابسة- لايحبون ذلك. وفي معارك الحرب لا يدفع الجنود عادة إلى القتال في تلك الساعة مع غروب الشمس، ويتحاشى القادة اتخاذ قرارات فيها. ولو كان طاقم مكونا من أربعة عشر رجلا محترفا، فإنهم جميعا يستسلمون في تلك الساعة التي تُخْمد شجاعتهم. وربما كانت هذه رجعة خوف من الليل لا شعورية موروثة منذ آلاف السنين، لا تلبث أن تزول.. فالنهار يحتضر، والليل لم يُولد بعد، فيخيم على النفس شعور بالخواء المقيت.

فى الليل كل شىء يجرى بسرعة، وبسرعة أكبر إذا ما قابلت سفينة أو مركبًا. وفى أكثر الأحيان لا ترى منها إلا أنوارها: خضراء، وحمراء، أو بيضاء. إنه غموض، يضاف إلى غموض، يضاف إلى غموض. إن صوتها واضح، ورائحتها أيضا إذا كان الجو ساكنا.. فسفينة الشحن تفوح منها فى لحظة ما رائحة قوية نفاذة، أو رائحة المعدن المصنوع منه بدنها، أو الرائحة المميزة للمطابخ. إن رائحة سفينة الشحن تختلف عن رائحة سفينة الركاب، وعن السفينة الحربية.

تمضى السفينة فى طريقها، ويعود المرء وحيدا من جديد تحت سماء تكون أحيانا صافية، لامعة، ومُزدانة بما ينتثر عليها من ملايين النجوم.

أحيانا، تطوف بالنفس المخاوف، والقلق، والضيق، فتكون شديدة الوطأة. ويتمنى المرء أن يُسرع الفجر بالشروق. وأسائل نفسى: ماذا لو أن النهار لم يشرق أبدا؟. سيصير الليل إذن بشعا، دميما، معاديا بلا رحمة.

والليل فى المناطق الاستوائية متقلب بين الجمال الرائع والكآبة غير المألوفة. والسماء فيها متخمة بالنجوم، فإذا كان الجو صافيا، والحرارة معتدلة بعد نهار شديد القيظ والقسوة، فإن الإحساس باللذة لا ينقطع حتى مطلع الفجر. لا يكاد المرء يشعر بسيطرة الليل، وإنما هى مداعبة وملامسة وملاطفة المحبين، لا تتوقف حتى الصباح.

عند الرحيل فوق مياه البحر، لا أحد يعرف على وجه اليقين أنه سوف يرجع، وهنا تكمن الريبة... ألهذا الشك ارتباط بالمشاعر المختلطة المتضاربة التى تدور فى صدور الذين يجوبون البحار؟. أعتقد ذلك.. فهم دائما يتساءلون عما إذا كانت الرحلة سالمة آمنة مقطوع بنهايتها السعيدة المثمرة. إنه شىء يقرب من قصص الحب العنيف، حيث تتصاعد المشاعر والعواطف، وتبلغ ذروتها؛ فتطمس إدراك «العبور» نحو المستقبل، ورؤية احتمالاته بوضوح جارم.

فى البحر ـ كما فى الحب ـ يتوارى المستقبل، ويحتجب منفلتًا من بين أيدينا، ويبقى فقط فى الذهن «إن شاء الله» (هكذا نص تعبير المؤلف) ولا أحد مطلقا يضمن تتابع الأحداث.

هذا الشعور غلاب.. وعادة ما تكون آثاره عميقة مسيطرة. وهنا تجدر الإشارة إلى المبالغة فى الظن الشائع من رغبة البحارة دائما فى النساء. ربما ظهرت تلك الرغبة عند الاقتراب من الشاطئ، لكنها فى عرض البحر لاتبدو إلا فى الأحلام، بعيدا عن تلك المخلوقات الحوّائية. فى أى مدينة بالعالم لاتخلو الشوارع والطرقات من إحداهن كل خمس دقائق. أما فى البحر، حيث لا وجود لهن، فإن النبض العاطفى نحوهن يخفت، ويتلاشى، فلا دافع يثير الرغبة إليهن، ويبدو هذا أمرا طبيعيًا ومحتملا.

على الأرض، من المألوف أن يؤكد أحدنا لصديق أو قريب: «ياعزيزى سوف أراك بعد أسبوع، أو بعد أسبوعين، يوم كذا، فى تمام الساعة...... لنتناول معا قدحا من القهوة!»، أما فى البحر، فإن هذا غير متصور.. يكفى أن الرياح تعاند، فلا تهب أو تتحرك، فيصبح الارتباط بموعد ضربًا من (الهُراء). ولا علاقة بين ذلك وبين الخوف من الضَّجر، أو الغرق. كلا، إنه مرتبط بالعلاقة بين ركوب البحر وانسياب الزمن. لا وقت محدد باليوم والساعة والدقيقة، أو ببساطة: مبرمج.. إذ تتساوى عند البحَّار مساحات الزمن، فلا فرق عنده مطلقا بين ثلاثين أو سبعين يوما فى البحر، إلا عند أولئك الذين هم غرباء عنه، عندما يصيبهم الضجر والسأم، فيبدأون فى العد... «متى سنصل إلى الميناء؟».. «لا أدرى، ربما بعد أسبوع، أو بعد شهر.. لا يستطيع أحد أن يقرر بالحسم». إننى أحب هذا الشك، هذا التواضع المهدئ من غرور الإنسان. والأفضل الكف عن الحديث حول الوقت والتوقيت، وتجنب الأحكام الجزئية الطائشة- كما يقول أهل الأرض- التى تفتح بابا للحماقة والعبث...

لذا. . تعودت أن أعيش اللحظة بكل كيانى وطاقاتى، ومع المحركات وآلات المركب- خاصة إذا كنت فى سباق- ومع الأشرعة، ومراقبة السرعة واتجاهات الرياح وقوتها، وكل ما تتطلبه اللحظة من تفكير أو عمل أو مواجهة، وأشعر كأننى مروض أمام حيوان مفترس تبدو عليه الوداعة والهدوء، لكنه مستعد للفتك على حين غفلة. وأصبح ذلك عندى مألوفا محبوبا، أهواه وأستريح إليه. أحيانا، عندما أكون مصادفة على الأرض، أجوب شوارع مدينة ساحلية، يعترينى الضيق فجأة، فأسرع عائدا إلى سكون بيتى، إلى المركب، وهناك يتلاشى ما بالنفس من كآبة أو أحزان. . .

قبل الدخول فى سباق للمراكب الشراعية، أقضى نحو شهر فى معزل بأحد الأحواض المائية، أعايش الوحدة مع المركب ساعات طويلة كل يوم، ثم اليوم السابق على الرحيل بأكمله. ويأتى الزوار يتجمعون على الرصيف للمشاهدة، ولكننى لا أكاد أشعر بهم، فرأسى مشغول، كما لو كنت قد بدأت الرحلة بالفعل. ولو دار حوار معهم، لأنهم يحبوننى وأحبهم، فإننى أقصره مضطرا على كلمات المجاملة الموجزة، لاستغراقى فى عالم آخر مختلف.

والذى اعتاد ركوب البحر لمسافات وشهور طويلة، يشتاق دائما إلى العودة إليه، والأنس به. أحيانا ألمح بعض الربابنة القدماء، يأتى أحدهم ينظر ويتأمل من بعيد، فهو لا يملك مركبا، واعتزل السفر، فيرقب فى هدوء وكأنه يخشى أن يراه أحد.

فى داخلى أود لو أحييه وأكلمه، لكننى أحترم مشاعره، وحرصه على المسافة بيننا، فأتشاغل بتجهيزات المركب، وسرعان ما ينصرف. إنها عاطفة- وربما غريزة- حب البحر، تستيقظ وتنشط بين الحين والحين.

وخبرتى بالسفر الطويل فى البحر تجعلنى أصدق أنه لا وجود فيه للصدفة أو الحظ، أما عناية الله، فتعم. والملاحة البحرية المستمرة توقظ لدى الملاح- إن لم تكن تنشئ- غريزة من نوع خاص، تدفعه دائما إلى التيقظ والحذر.

فى أعالى البحار، يشعر المرء بقدرات كبيرة مستجدة كانت خافية تماما، تدفعه فجأة إلى القفز، أو الإسراع باتخاذ القرار المناسب، وتنفيذه بدقة على الفور، خاصة فى المواقف غير المتوقعة أو الطارئة. أذكر أننى مع غروب الشمس ذات مساء، وأنا فى طريقى إلى «جوادلوب»، وكنت جالسا أمام لوحة القيادة، وأمامى الخرائط، وإذا بى أشعر بوجود شخص خلفى، بكيانه وجسمه. لم أكن رأيت أحدا من البشر منذ سبعة عشر يوما. أسرعت بفتح جهاز الاتصال بالراديو، وناديت: «آلو، فيليب والْد»؟، فأجابنى: «هل أنت أوليفييه؟!»، وتبادلنا الحديث عن مواقعنا، فكانت المسافة بيننا ستين ميلا!. وعلمت منه أنه فى اللحظة نفسها التى شعرت فيها بوجود شخص يقف خلفى، أحس هو بى، وكان على وشك الاتصال بى لاسلكيا. وكم أدهشنى ذلك!.

ليست هذه حالة نادرة.. بل تتكرر كثيرا. وإنه لأمر شائع أن يسمع الناس من أحد البحّارة المسنين فى جزر البولينيز (فى المحيط الهادى قرب المنطقة الاستوائية) يعلن فجأة: «الجيولويت (مركب شراعى بصاريين) ستصل غدا»، وليس بينه وبين المركب أى اتصال، ولا يدرى شيئا عن ظروف رحلتها، وما تعرضت له من عوائق، أو عواصف، أو رياح، أو تنقلها من جزيرة إلى أخرى، لكن العجوز لايخطئ.. ففى اليوم التالى مباشرة تلوح المركب من بعيد، وتقترب حتى تتوقف عند المرساة!.

فى كتاب جان فرانسوا دانيو «البحر مستدير» إشارة إلى ذلك النوع من الإدراك الساحر بين الملاحين البحريين، عندما يحدث اتصال تلقائى بين رجل ومركب يخترق الزمان، والمكان، فتُقْفَل الدائرة؛ فيصيران سجينين معا داخلها، وفى الوقت نفسه متحررين من قيود المادة. وهذا لا علاقة له بالعقل، أو بتبرير منطقى، وإنما بالإحساس والوجدان. وعلى ذلك.. فكل البحارة مترابطون بصلة ما فيما بينهم، بشىء لا يمكن تفسيره، لكنه قوى، متين، وعجيب حقا، وهو فى النهاية قائم ومسلم به، وكأنه أمر طبيعى.

لا يوجد سلاح على مركبى، ومن المفترض أن يوجد، لكن القانون الفرنسى الذى أخضع له يمنع ذلك. والبديل عن السلاح غاز للدفاع. إن البحرية التجارية عبر العالم جديرة حقا بالتقدير والاحترام، ولكن أحياناً ـ وقليلا جدا ما يحدث ذلك ـ تقع مفاجآت محفوفة بالأخطار، تجعل المرء يفكر فى قيمة السلاح المناسب والفعال للدفاع عن النفس، ودرء الخطر.

فى أول رحلة لى عبر طريق جبل طارق، جلست متراخيا، والمراكب تمضى بسلام، وكل شىء يعمل فى هدوء على نحو جيد. وفجأة، فى الواحدة صباحا إذا بسفينة شحن، طولها نحو مائة وأربعين مترا، سيئة المنظر، لقذارة سطحها الخارجى، وما به من بقع وخدوش وصدأ، إذا بها تهجم مباشرة نحوى، دون أن تنحرف بعيدا درجة واحدة. فى لحظة خاطفة أيقنت أن الصدام بها واقع لا محالة. أسرعت بتغيير اتجاه مركبى، وانعطفت قليلا مبتعدا عن مسارها، والغيظ يغمرنى لابتعادى عن اتجاه الرياح الشمالية الغربية التى تدفعنى، وهذا قد يؤخرنى أربع أو خمس ساعات.

فى الثامنة صباحاً ظهرت سفينة الشحن نفسها، تشق طريقها نحوى مباشرة، لا تنحرف عن مسارى ولو بدرجة واحدة، توشك أن تصطدم بى!.

لا، ثم لا!. انحرفت مبتعداً، فانحرفت معى فى الاتجاه نفسه، ثم تقدمت تقترب منى، متزايدة السرعة. تضخم صوت هدير آلاتها، وكأنه كابوس مفزع. لسنا متكافئين، لا فى الحجم، ولا فى القوة، ولا فى السرعة. إن مركبى الشراعى بالنسبة إليها كالدمية. سألت نفسى: ماذا بالله يجرى أعلى هذا العملاق المجنون؟، إما أن القبطان مخمور من فرط الشراب ـ وهذا يحدث أحيانا ـ وإما أن عامل الدفة أصيب بلوثة عقلية، أو أنه غاضب إلى درجة الهوس؛ ففقد رشده، ويريد الانتقام على أى نحو !. لم أستغرق وقتا فى التفكير، وفضلت بَذْل كل محاولاتى للاتصال بالسفينة عن طريق الراديو، فهى لا تجيب. مرة أخرى غيرت اتجاهى، ففعلت السفينة الشىء نفسه. واستمر هذا

الطيش المخيف والقلق الداخلى. بعد لحظات لمحت السفينة تأتى مباشرة من خلفى، وكأنها تريد أن تسحقنى. وفجأة يبرز شخص على سطحها، ويشير إلىَّ بإشارة سوقية غير مهذبة. فى تلك اللحظة، لو كان معى سلاح جاهز للاستخدام، لما ترددت فى استعماله.

فى المقابل، أذكر أننى كنت فى جزر الآنتى، ومعى زميل من فريق السباق، وقبل الوصول إلى ميناء النهاية بستة أيام ساءت صحته من مرض أصيب به فى تلك الجزر. كانت الرياح فى مواجهتنا، ومن العسير تغيير الاتجاه، والعودة إلى مرفأ البداية، وحتى لو فعلت.. فإن طول المسافة كان كافيا للقضاء عليه. إذن لابد من الاتصال بطبيب على وجه السرعة.

فشلت محاولات اتصالى بالراديو. وبالمصادفة أمكننى الاتصال ـ عن طريق موجة اللاسلكى عالية التردد ـ بسفينة شحن قريبة من موقعى بالبحر، واسمها «مون ـ كالم» أى الجبل الهادئ. وكانت على بعد نحو سبعين ميلا. شرحت لها حالة صديقى، فغيرت اتجاهها فى الحال، واتجهت نحو مكانى الذى حددته بدقة عن طريق القمر الصناعى.

لم تكن الأحوال الجوية مريحة، والأمواج عالية قوية مضطربة. عن طريق المنظار المقرب رأيت أشباح ثلاثة رجال فى قارب إنقاذ يضىء إشارات الخطر. وما إن بلغ قمة الأمواج العالية، حتى اختفى عن نظرى تماما، ولم أعد أرى شيئا، ثم ظهر بعد فترة، وكأنه كومة صغيرة من القش، تتقاذفها الأمواج، ثم اختفى من جديد. شعرت بانقباض.. فأنا وحدى بالمركب، ومن العسير جدا أن أناور فى تلك الظروف، وأتجه نحو القارب، أو أصل إلى سفينة الشحن، خروجاً من هذا المأزق.

مضت ساعات صعبة على النفس، قاسية مؤلمة.. فهذا صديقى يقترب من الهلاك، وهؤلاء الثلاثة الشجعان يتعرضون للخطر من أجل تقديم عون إنسانى نبيل. وأخيرا وصلوا بسلام، يحملون معهم كمية من النبيذ والفاكهة

والخضروات. وهذا هو السلوك المهذب الحميد لرجال البحر. بعد أن تبادلنا التحية والشكر والتمنيات الطيبة، حملوا صديقى معهم، وعادوا إلى سفينتهم، التى تضم بين طاقمها طبيباً.

أحسست براحة نفسية كبيرة بعد الخلاص من تلك المشكلة، التى أرَّقتنى بضعة أيام، وانتهت على هذا النحو. وما إن بدأت أستعد للاسترخاء، وإضاءة الأنوار مع دخول الليل، حتى ظهرت لى على مقربة سفينة شحن أخرى، داخلنى الشك فى اتجاهها نحوى. أسرعت إلى جهاز اللاسلكى، وعلى الموجة السابقة نفسها. إنها مركب شراعى فى الطريق إلى الشمال الشرقى: «هل ترانى على شاشة الرادار عندك؟.»

مضى وقت غير قصير قبل أن يجيبنى بلغة إنجليزية مفككة تدعو إلى الضحك: أنا مركب يونانى. . . . سفينة شحن.

تبادلنا الحديث، وأخبرته عن شهامة رجال «مون ـ كالم»، وما فعلوه إزاء صديقى المريض؛ فأخبرنى بلهجته المفهومة بصعوبة:

ـ أوه!. سوف يقابلك طقس سيئ هذه الليلة. وأنت بمفردك. . . . . . . ثم ساد صمت طويل قبل أن يقول لى:

ـ سوف أصلى وأدعو لك الليلة!.

كان هذا رائعا! ومدهشا!. «سوف أصلى وأدعو لك الليلة». . فلا أحد يعرف على الإطلاق مدى قوة تأثير الطقس السيئ. أحيانا تخبرنا محطات الأرصاد الجوية مقدما، لكن ما يحدث لا يكون دائما على نحو ما تذكره!.

على الأرض اليابسة، يستطيع المرء أن يتابع رحلته بزهو، ولو فى تسلق الجبال، وهو يعرف تماما كيف ستنتهى. أما فى البحر، فهو دائما على استعداد لمواجهة نوع ما من الأخطار، ومن المستحيل أن يختار بكل الثقة والتحديد برنامجه مفصلا.

وفى البحر مناطق عظيمه الخطر، ويستعد لها المرء من مسافه الفى ميل. وعلى بعد أربعة أو خمسة كيلو مترات فقط من حدود تلك المناطق الخطرة تعبر المراكب والسفن بسلام، وفى هدوء، وهذا أمر عجيب!.

وفى البحر، تأتى على المرء أحيانا لحظات، أو ساعات، يشعر فيها بالعجز الكامل عن السيطرة على المركب، فيظل تحت رحمة العوامل المحيطة به.. فالعاصفة مثلا لا تعنى فقط هياج البحر، أو ارتفاع الموج، وإنما أيضا تعنى إصابه المركب «بحالة من التمرد أو العصيان»؛ فلا تستجيب لأى توجيه أو سيطرة، وفيها يظهر ضعف الإنسان، وعجزه وحيدا فى خضم هذا الوحش الهائل الرهيب، وعندئذ يترك مستحدثات العلم والتكنولوجيا المتقدمة، ويستسلم لرحمة الله، حين يتنازعه الإحساس بالخوف، والاعتراف بالضآلة والعجز....

على اليابسة، وحتى فى أشد الأوقات كآبة وسوادا، لا تتوقف الحياة، بل تعود وتبدأ من جديد، فى الغد، أو بعد الغد، أما فى البحر أثناء العاصفة، فلا يشعر المرء إلا بالحصار، والوقوع فى الفخ إلى الأبد. لايدرى ماذا يفعل، ولا أين يتجه، ويصبح «المستقبل»، ولو بعد ساعة، خارجا عن نطاق الإنسان وقدراته. إنه حقا يراقب، ويحاول، ويجتهد، لكن القلق يتصاعد إلى الذروة. والعطل البسيط فى آلة من الآلات الضخمة فى السفن، كما فى المراكب، يجُر إلى سلسلة من الأعطال، وتأتى «المصائب» جملة، وعندما تتلف آلة أو جهاز فى المركب الشراعى، يتحول الموقف إلى مأساة تقترب من الكارثة، إذ إن المفروض أنها تعمل بكفاءة، وبأحسن قدراتها فى مثل هذه الظروف. إنها ساعات صعبة نفسيا وعمليا معا. ولهذا.. فإن البحر يعلم الكثير، ومن أهم دروسه المستفادة: الصبر، ورجاء الحظ. يضاف إلى ذلك: التيقظ الحذر، فإن خطأً واحدًا يُرتكب فى اختيار الشراع أو الطريق، أو السرعة، أو زاوية الانحراف.. تكون نتيجته فى غاية الخطورة، وربما الهلاك. وفى مثل هذه الظروف الصعبة، لا يشعر المرء بالجوع، ولا تأتيه الرغبة فى طعام أو شراب،

وربما طوال اليوم والليلة يكتفى فقط ببعض أقراص الفيتامين، أو علبة من طعام محفوظ سريعة التناول. ولا أحد يعرف متى تنتهى الأزمة.

والعدو هو الإجهاد الشديد، وإنهاك القوة. من الواجب المحافظة على الطاقة الجسمانية، وانضباطها لأطول فترة ممكنة. وهذا يعنى السيطرة على المركب، وإلا فالهلاك محتم. تلك مسألة تفكير شديد، وسكينة النفس، والتصرف بحكمة، وتقدير ما يحدث تقديرا سليما متزنا، أو بمعنى آخر.. أن يظل المرء «قائدا» حتى النهاية. وهذا هو الفرق بين الطقس العاصف الذى فيه يسيطر المرء على نفسه وعلى المركب، والطقس السيئ الذى فيه يضعف ويستسلم.

أحيانا، تهجم أمواج ضخمة تختلف عن المعتاد، وتُرى قادمة من بعيد، وقد يبلغ ارتفاعها ثمانية عشر مترا. وتزداد خطورتها إذا كانت المسافات الفاصلة بينهما متقاربة. إن قوة البحر مثل قوة الرياح، لا حدود لها. ويقال إن الموجة التالية من هذا النوع هى القاتلة: فالأولى تهجم، والثانية تتلف المركب، والثالثة تغرق.

وأثناء العاصفة، كل شىء يتصادم، وبعنف مخيف، وليس أمامك إلا الماء والهواء، ولا شىء سوى ذلك. أطنان من المياه تعلو فى الهواء، ثم تهبط بشدة فوقك. وتصبح المركب كأنها قطعة من الخشب، تعلو، ثم تسقط، والخوف كل الخوف أن تنشطر إلى جزئين. فى العاصفة، لا مجال للهو أو الراحة على الإطلاق، فالمقارنة بين قوى الصراع غير مجدية، لأن الفروق هائلة.. لكننى أهوى مواجهة العاصفة فى البحر، ما دامت المركب فى حالة ممتازة.. فأرقب الموجة العالية قادمة من بعيد، وسرعان ما يضطرب كل شىء حولى، يضرب ويصدم ويعوى بصوت يثير الفزع، لكن المركب تعلو وتنساب فوق الموجة، فهى خفيفة، كأنها تطير فى الهواء؛ فأهتف: «رائع!. هذا رائع!»... إنها لحظات حقا ممتعة. أشعر أننى فى حصن آمن، وكأن ما يجرى حولى إحدى تراجيديات فاجنر، كأننى أطير، فالمركب هى أنا، وهذا مدهش.

عندما أعود إلى الشاطئ يُخيَّل إلىّ أننى فى قاعة سينمائية ضخمة تعرض فيلما ذا ثلاثة أبعاد، مجسما، بكل الألوان والأشكال، وصيغ الحياة. أعود إلى الأرض بعد عدة شهور متواصلة، لم تر عيناى فيها إلا مئات الدرجات من اللون الأزرق، فى البحر، وفى السماء، أما اللون الأحمر، فلا يرى إلا عند الغروب، فإذا دخلت غرفة، رأيت خليطا من الألوان: أصفر، وأخضر، وأزرق، وأحمر، وبنيًّا، وأسود.

فى الشارع تلبس النساء ألوانا فى مثل قوس قزح. أعود، وليس فى أنفى إلا رائحة البحر، يغلب عليها اليود والملح، فأجد على الأرض خليطا من روائح الأدخنة والأشجار، والعرق، والأطعمة، ومختلف العطور لكل مستويات المجتمع، والزيوت، والمركبات الكيمائية، والجلود، والحقول، والبلاستيكات... هذا نوع من الجحيم... وآلاف، بل ملايين الأصوات والكلمات تهجم على الأذن. وبعد شهور من الصمت، أجدنى مضطرا إلى الكلام، فتخرج الكلمات أحيانا متقطعة، مبهمة، خافتة..... وإيقاع الحياة على الأرض مختلف. وهذا محير.. حتى فى التعامل مع النقود.

فى البحر، أعيش بإيقاع يغلب عليه الانتظام والهدوء، وبدافع ذاتى المحور، دون أى تدخل بشرى من الخارج. إن كل إحساس، وكل انفعال، وكل إدراك، يكون قويا، واضحا، حاداً قاطعا، لا تشويش فيه، ولا اضطراب، أو إبهام، وفق منهج أو نظام بسيط فطرى. ولذلك.. لا تجد بحارا راجعا من رحلة طويلة فى البحر يثرثر، أو يكثر من الكلام فى بداية العودة!.

يوم أن غضبت القديسة

الناس يغضبون. . فالغضب فيهم ركيزة وغريزة وطبيعة. ومَن لا يغضب فهو «بارد» خامد، خامل أو مريض. وفى مواقف الغضب الصائب المتصاعد، يُكشف ما فى الناس من قوة أو ضعف، من شجاعة أو خوف، من حكمة أو رعونه، من حلم أو حمق. ويأتى القياس من سؤال الناس: متى ولماذا تغضب؟، أين وكيف يستثمر هذا الغضب؟.

الشرفاء الصالحون يغضبون، ولغضبهم باعث، وقيمة، وأسلوب، ومعنى. والأشرار المفسدون يغضبون، ولغضبهم دافع، وحيلة، وجنوح، وقسوة. . فشتّان بين غضب وغضب. . فغضب هؤلاء إنعام ورحمة، وغضب أولئك فجور ونقمة. وكل مُيَسَّر لما خُلق له.

الرياح تغضب: فتثور عاصفة عاتية. والسحب تغضب: فتنهمر سيولا دافقة مُهلكة. والأنهار تغضب: فتفيض مياهًا غامرة كاسحة. وطبقات الأرض تغضب: فتهتز مزلزلة مدمرة. . فيجدُّ علماء النفس والأخلاق والطب والأحياء والفيزياء والأرصاد وطبقات الأرض (الجيولوجيا)، يكتشفون ويفسرون وينظرون - كل بأسلوبه وأدواته - أسباب ذلك كله، ومظاهره، ونتائجه، وتوقعاته، لعل البشرية تنتبه وتحذر، أو تنجو - ولو قليلا - من ويلات الغضب وكوارث جموحاته.

بين هؤلاء الأساتذة العلماء مَنْ لا يروق له استعمال كلمة الغضب مع الرياح، والسحاب، والأنهار، والبحار، وطبقات الأرض، لأنها فى تقديرهم -

بحق ـ ظواهر «طبيعية» لها أسبابها ومبرراتها، وإن كانت أحيانا لا تبلغ اليقين القاطع. وأهل الإيمان والعقيدة لا يجادلون فى صحة تلك الأسباب والمبررات، ما دامت لا تصادم العقل الراشد، والمنطق السديد، والمشاهدة المتبصرة الواعية، إلا أنهم يضيفون: إن الكون مخلوق، وليس بخالق، وأن ما يحكمه وينظمه ويسيِّره هى قوانين مُخضعة قاهرة ليست من صنعه وتدبيره، فلا فكاك له منها، ولن يحيد أبدا عنها، إلا بإرادة الخالق القاهر الحكيم المبدع، وإن تلك القوانين ـ ما عرفنا منها، وما لم نعرف ـ لا تتبع أفكار البشر، ولا تقيم وزنًا لمزاعمهم وأهوائهم، ولا يعنيها فى شىء تقديراتهم، ونظرياتهم، وترجيحاتهم، ومناهجهم، لأن الكون وكل مخلوق فيه، من: أرض وسماء ونجوم وكواكب ومجرات، ماض هكذا بنظمه وقوانينه، قبل أن يوجد على الأرض إنسان بملايين وبلايين السنين، لا يعلمها عدداً أو بداية إلا خالق الإنسان والأكوان.

وما دام «الشىء» مخلوقًا، فهو خاضع ـ طوعا أو كرها ـ لسلطان الخالق. لذا يسلِّم أهل الإيمان والعقيدة والتوحيد تسليما كاملا بأن الكون لم يُخلَق عبثا «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين».. وأن كل شىء فى الكون المنظور أو المدرَك مطيع بفطرته ومَنْشَئه لخالقه: «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوعا أو كَرها قالتا أتينا طائعين». وأن كل «شىء» فى أصله، ومرتكز كيانه، وتكوينه.. شاكر عابد مسبِّح: «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» سواء صَدَّق ذلك أهل الأرض كلهم جميعا، أم أنكروه كلهم أجمعون.

فلا ضير إذن أن يظن أهل العقيدة والإيمان أن مخلوقات الأرض والسماء تغضب، وليس بالضرورة أن يكون غضبها ـ كغضب البشر ـ دافعا ومَظهرا وأسلوبا ومعنى.. فكما أن البشر لا يفقهون تسبيحها، فلا عيب أنهم لا يفهمون فحوى غضبها، لكنهم يعرفون جيدا أنها قد تكون «أداة» تذكرة وإنذار، أو تبصرة وعقاب، وسبحان من له الخلق والأمر.

من هنا يجوز القول بأن الجبال تغضب. . . وتزمجر، فتثور وتتفجر. هذا أمر مخيف مفزع، لأن ثورة جبل معناها انفجار بركان. . انطلاق كميات هائلة مدمرة مهلكة من الدخان والغبار والأبخرة والغازات والحمم، أو الصخور الملتهبة السائلة فى تدفق متوهج كالجحيم. وإذا كان أهل الأرض إلى الآن مازال يروِّعهم اسم «هيروشيما» بعد خمسين سنة، لارتباطه ببداية عصر التدمير النووى بإلقاء أول قنبلة ذرية على تلك المدينة اليابانية، فإن قوة الطاقة التى تحملها رياح عاصفة، مثل الهاريكان أو التورنادو تعادل أكثر من قوة طاقة قنبلة ذرية أو اثنتين، وكذلك قوة انفجار بركان متوسط.

ظل بركان قمة جبل سانت (أو القديسة) هيلين ـ غرب الولايات المتحدة الأمريكية ـ نائما خامدا طوال مائة وثلاثة وعشرين عاما، وفجأة أخذ يتثاءب نحو ستة أسابيع، ثم انفجر غاضبا مزمجرا فى ١٨ مايو عام ١٩٨٠، مُطْلقًا أطنانا من الدخان والغبار، بلغ ارتفاعها ستة عشر كيلو مترا، وحوَّل المنطقة المحيطة به إلى صحراء جرداء، تغطيها طبقات من القمم البركانية ومخلفات الرماد، واختفت قمة الجبل مع انفجار قوته ١٠ ميجاتون[1] أى ما يعادل قوة انفجار قنبلتين ذريتين. تطايرت كل تلك القمة الضخمة إلى ارتفاع ٢٠ ألف متر، ثم تكرر الانفجار فى ٢٣ يوليو التالى. كانت ـ كالعادة ـ كارثة!، عاشها وشاهدها وفزع لها سكان ولاية واشنطن. وهذا بعض ما ذكروه عنها، من رواية شاهدة رؤية، أو «شاهد عيان»، زارت المنطقة عقب الانفجار.

حلَّقت الطائرة المروحية فوق الحافة الشمالية الغربية للجبل. الأرض كلها، كلها مغطاة بجذوع الأشجار مُلقاة أفقيا. وهى لكثرتها وتراكمها تبدو من أعلى كالقش. والجبل ـ سانت هيلين ـ مبقور البطن، تتصاعد منه أدخنة مخيفة. هذا الفُرن الهائل المتَّقد يسيطر منظره على سلسلة الجبال المجاورة، وقممها هى الأخرى بركانية. وقد تُطلق من جوفها فى أية لحظة ألسنة القذائف الملتهبة. . فالأجهزة القياسية تسجل كل يوم هزات أرضية.

---

(١) الميجاتون: قوة انفجار تعادل مليون طن من ثالث نيترِيت التولوين (TNT).

أسفل الجبل يجرى نهر «توتل»، يحتضر مختفيا، بما يملؤه من المخلفات، والشظايا، والحطام المختلط بالطين الأسود من أثر الرماد. إنه منظر مروع، بعد أن كان من أيام قلائل من المشاهد الجمالية فى ولاية واشنطن، ولما كان فيه من غابات خضراء ومساقط مياه لامعة بيضاء، فكان موقعا مفضلا لأولئك الذين ينعمون بقضاء أيام وليال فى معسكرات صيفية، يمرحون ويفرحون فى الأعالى بين الصيد، والسباحة، وتسلق القمة، والاستمتاع بالخضرة والماء و. . .

خفضت الطائرة من ارتفاعها، فأخذت ملامح الصورة البشعة تتضح: أحسست كأننى انقطعت عن العالم، ودخلت فى عالم آخر. . لا أثر للحياة فى هذه الصحراء الرمادية القاتمة، الرخوة، المليئة بالجروح المفتحة، الغائرة، البنية اللون. من حولها يسود اللون الرمادى، وأكداس الجذوع الممزقة تدعو إلى الرثاء، غارقة فى المياه والوحل، تنبت فوقها أشباح الموت.

إنه منظر يذكّر بالصور الأولى التى التقطها رواد الفضاء من فوق سطح القمر: صخور رمادية، أحجار مستديرة، ثقوب وحفر، دعامات زرقاء ضاربة إلى الخضرة، تربة موحلة مخططة تعترضها نتوءات. إنها باختصار نتيجة تحرر قوة تعادل ضعف قوة الطاقة المتحررة من انفجار قنبلة هيروشيما. لا ترى العين أى أثر للحياة، ولا الألوان.

الحرارة المنبعثة من الأرض تجعل الطائرة المروحية (الهيليكوبتر) تقفز كما يَجْفل الفرس، لأنها تثير موجات هوائية مضطربة صاعدة، قال الطيار: «إنها ٤٠٠ مئوية»! ثم أضاف: «من هنا يبدأ العذاب»!.

تقدمنا، واقتربنا من القمة. نفس المنظر يتكرر حولها. الشكل الخارجى للجبل مغضّن مثل وجه عجوز تملؤه التجاعيد.

ـ انظر. . ما هذا؟.

ـ لوح معدنى منبعج يبرز من بين الهمار. كان جزءا من كوخ.

ـ وتلك الكتلة المتوهجة القريبة منه؟.

ـ تلك سيارة. بالمنظار المقرب شاهدنا داخلها ثلاث جثث مسلوخة مثل الدجاجات المذبوحة، شوهَتها الحرارة الشديدة فى لحظة، قبل أن تُتاح لها فرصة للفرار.

اقتربنا أكثر نحو الفوهة البركانية. محيطها الصخرى يتمزق، يغلفها دخان أبيض. اقتربنا أكثر وأكثر. رائحة الكبريت غالبة، نفاذة. من داخل فتحة جانبية واسعة تتصاعد كتل من الأبخرة الحلزونية الشكل تتدافَع نحو السماء. الفوهة من الداخل تغلى. إنها عين الجحيم. حرارة الجو داخل الطائرة شديدة لا تطاق.

ـ أنا لا أرى حممًا بركانية.

ـ لا، إنها لم تخرج بعد من الفوهة. سوف تظهر عما قريب. هذا ما يتوقعه علماء البراكين، وقد صرحوا به أمس.

الأرض مزدحمة بالكتل الصخرية. تبدو رخوة، مستديرة، كثيرة الثقوب، تخرج منها أدخنة، لكنها ليست حمراء اللون مثل فوهة البركان من الداخل. سألت مرافقى الأمريكى بالطائرة، فأجاب:

ـ هناك أماكن من الجبل بها صخور حمراء متوهجة، لكنها لا تُرى من هنا.

حلقنا فى بحيرة سبيريت (أى الروح). تحولَّت إلى غلاية ضخمة، تغطى الأدخنة سطحها، وكتل وشظايا الحطام. سألنى المرافق:

ـ هل ترين الذى هناك.. إلى اليمين؟

ـ لا. لا أرى شيئا.

ـ بالتأكيد. إذ لا يوجد شىء. هناك كان يعيش العجوز «ترومان»، الذى رفض أن يغادر مسكنه مثل الآخرين. لقد اختفى هو والمسكن معا، ولعل جثته الآن مدفونة تحت مائتى قدم بين الطين. فى الليلة السابقة على انفجار البركان،

تَلَقّى المقيمون بالمعسكر الصيفى إنذارا عاجلا من السلطة المحلية بالنزوح فورا والبعد عن المنطقة الحمراء (منطقة الخطر التى حددها العلماء)، وأرادوا أن يصحبوه معهم، فقال لهم: اذهبوا أنتم، ودعونى لشأنى، فالجبل لن يؤذينى بشىء. إننى عاصرت عاصفتين شديدتين، وثلاث هزات أرضية، حطمت إحداها كل الأوانى. وفى مارس الماضى اهتز الجبل وتصاعِدت منه أبخرة، وكنت انظر من نافذة بيتى، فخاطبته قائلا:

حسنا.. هيا.. أرنى ماذا يمكن أن تفعل... فلم يفعل شيئا!.

ابتعدنا بالطائرة عن الفوهة. المنظر كما هو: لا حياة. والصمت مطْبق ورائحة الكبريت النفاذة، رائحة الموت... وداخل الطائرة بدأت الحرارة تنخفض تدريجيا. ومن بعيد، بدأتْ تظهر الخضرة. أف!. الآن نتنفس!.

هناك، بعيدا، حيث أجزاء من الغابات لم تُمس، تظهر بقع بنية كبيرة. لقد تيبست الأشجار من أثر الحرارة الشديدة، وهى على بعد بضعة كيلو مترات من القمة الجبلية. قال الطيار وهو يبتعد بنا نحو مدينة فانكوفر: «لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا مطلقا إزاء قوى الطبيعة».

فى الليلة السابقة على بشائر انفجار البركان الأول، اتصلتْ «شارلوت كينج» تليفونيا بمذيع الأخبار «ويلسون» بالقناة التليفزيونية المحلية بمدينة بورتلاند، وقالت:

ـ أشعر أننى عاجزة عن المشى. لقد فقدت توازنى: صداع رهيب يكاد يحطم رأسى. أعتقد أن البركان سوف ينفجر خلال اثنتى عشرة ساعة.

إن شارلوت معروفة ومشهورة منذ عام ١٩٧٦، عندما أعلنت أن طنينًا يتصاعد فى أذنيها، يتوافق تماما مع إشارات جهاز قياس الزلزال. وبعد يومين وقع زلزال كاليفورنيا العنيف. كما أنها تنبأت بوقوع الزلازل قبل حدوثها بثلاثة أيام فى اليابان، وكندا، وإيطاليا، والمكسيك، وألاسكا. وأصبحت «نجمة» نشرات الأخبار المحلية فى ولاية كاليفورنيا، تشرح أصوات الطنين أو

الصفير الذى تسمعه، ودرجته تحدد لها إذا كان الزلزال أو الانفجار البركانى قويا أو ضعيفا. وأثبتت الوقائع المتلاحقة صحة ذلك!... إذا كان الصفير مصحوبا بآلام شديدة فى الرأس، فهذا معناه توقع انفجار بركانى.

فى السابعة والنصف من صباح ١٨ مايو، نظرتْ شارلوت إلى يديها.. الشرايين منتفخة بوضوح، نبضات القلب ودورة الدم تتزايد، وكأن القلب على وشك أن يقفز، والدم ينبثق. لم تستطع النهوض، وعندما تحول الطنين فى أذنيها إلى صفير متقطع، أدركتْ أن البركان سينفجر بالتأكيد فى الحال. وقد كان هذا ما أخبرت به زوجها فى حينه، وشرحته بالتفصيل من خلال التليفزيون.

فى الثامنة واثنتين وثلاثين دقيقة بدأت الكارثة!.

مع هزة أرضية مقدارها خمس درجات بمقياس ريختر، ترنح الجبل، ودوى صوت انفجار يصم الآذان، بقوة تعادل انفجار قنبلتين ذريتين، فاندفع تدفق الغاز وفتات الصخور مع اللهب والغبار إلى ارتفاع ٢٠ ألف متر. انسحقت وانمحت ثلاثة أرباع القمة من الواجهة الشمالية، مكونة فجوة، اتساعها ثلاثة كيلو مترات طولا، وكيلو متر ونصف عرضا، وبلغت درجة الحرارة الجهنمية ٢٧٩ مئوية، أذابت طبقات الجليد فى الحال، وحولتْها إلى سيول هادرة متدفقة تكتسح كل ما يعترض طريقها، يسبقها الرعب القاتل. بعد بضع دقائق كانت «بحيرة الروح» ـ سبيريت ليك ـ تغلى من شدة الحرارة، تملؤها الصخور الملتهبة والحطام المدخن.

اقتلع الانفجار كل الأشجار، والبيوت، وفتك بكل الحيوانات والبشر فى دائرة قطرها ثمانية عشر كيلو مترا حول القمة. وتطايرت كتل من اللهب إلى الغابات المجاورة، فأشعلت حرائق، عجزت فرق الإطفاء عن السيطرة عليها، مع تقدم الحرائق وانتشارها. وكان لابد من إغلاق الطريق السريع بين مدينة بورت لاند، ومدينة سياتل. والحيوانات التى نجت من الانفجار أو الحريق،

أفزعتها الصدمة؛ فتجمدت بلا حراك فى أماكنها، جاحظة العيون، متسعة الحدقة، وسرعان ما طَوَتْها كتل الطين.

تصاعدت من فجوة القمة أعمدة حلزونية ضخمة سوداء ورمادية من الغبار والأبخرة، وغطت الوادى بأكمله، وتفجرت أيضا كتل الطين، وتناثرت فى حجم كرات التنس؛ فاتشحت السماء بالسواد، وبدأ الغبار يتساقط، تصحبه رائحة الغاز، والموت. وصنعت السحب المتصاعدة إلى ارتفاع شاهق فى الجو، غشاء قاتما، حجب أشعة الشمس، فانخفضت درجات الحرارة فجأة خارج دائرة الجحيم حول الجبل، وانسابت السيول نحو النهر. ومع امتداد شاطئيه، جرفت الأوحال الساخنة المدخنة كل شىء فى طريقها، وبلغ ارتفاعها بين ثمانية وعشرة أمتار، مكتسحة البيوت، والقوارب، والسيارات والأشخاص والحيوانات والنباتات...

فى بعض المناطق تجمعت نفايات البركان والحطام والمياه والطين، وتراكمت حتى صنعت سدودا وبحيرات تتزايد اتساعا وارتفاعا مع توالى تدفق السيول وما تحمل، حتى إذا تزايد الضغط عليها انهارت، واندفعت المياه من جديد نحو الوادى، تجرف كل شىء فى مسارها.

اختفت الشمس كما لو كانت فى الكسوف، وأصبح منظر السحب الضخمة السوداء المتصاعدة من فوهة البركان شبيهًا بمنظر السحابة العملاقة التى أعقبت انفجار قنبلة هيروشيما. حَجَب الغبار الرؤية، وانتشرت الغازات الخانقة. يا له من جحيم!.

على بعد بضعة كيلو مترات من مركز الانفجار، أسرع السكان بالفرار، تاركين كل شىء من مال ومتاع، لكن السيول الملتهبة كانت أسرع من سياراتهم التى اعترضتها الأوحال وجذوع الأشجار المتساقطة، فهلكت أُسر بأكملها، ومات أفرادها وهم أحياء تحت كتل الطين والحطام، أو تفحمت أجسامهم داخل سياراتهم.

فى الساعة الثامنة وخمسين دقيقة صباحا، اختفى النهار تماماً، وساد ظلام ليل بارد ثقيل. وفى الساعة العاشرة صباحا بدأت فرق الإنقاذ تمارس عملها ومعها سبع طائرات مروحية (هيليكوبتر)، وفريق من علماء البراكين والجيولوجيا، فى دائرة واسعة تتجاوز مدينة «مورتون» التى تبعد عن سانت هيلين بنحو أربعين كيلو مترا، وقد غطاها الرماد تماما. وقد ذكر أحد علماء الثلاجات الطبيعية أن تأثير الغبار البركانى على الجو سيستمر سنة على الأقل، وسوف يكون ذلك واضحا مع غروب الشمس كل يوم، مثلما حدث مع بركان أجونج عام ١٩٦٣، ومع بركان كراكاتوا الرهيب عام ١٨٨٣.

فى أغسطس عام ١٨٨٣، تفجرت جزيرة صغيرة فى مضيق «سوندا» بين جاوا وسومطرة (فى إندونيسيا الآن) مُحدثة أعلى وأضخم صوت عُرف من قبل على سطح الأرض. لقد سُمع صوت الدوىّ الهائل على بعد أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر فى جزيرة «رودريجز». وسجلت أجهزة القياس فى لندن أثر الاهتزاز الناجم عن الانفجار العنيف، وظلت تسجل وتسجل على مدى تسعة أيام متصلة عقب ذلك، إلى أن فرغت أصداء الانفجار من الطواف حول الأرض عدة مرات. وارتفعت أمواج البحر نحو مائة متر، ثم تناثرت فى كل الاتجاهات، وأطبقت على الفنارات المضيئة، وكأنها عيدان ثقاب فى جوف تلك الأمواج، وجرفت معها إلى البحر ستة وثلاثين ألف شخص من فوق اليابسة، ودفعت السفن لمسافة ثلاثة كيلو مترات، لتستقر فوق وادى سومطرة، بينما ـ على الجانب الآخر ـ تدفع السفن على بعد ثمانية آلاف كيلو متر، لكى تنفلت من مراسيها، فتمضى بعيدا عن شواطئ جنوب أفريقيا.

كان هذا بركان «كراكاتوا» الثائر المتفجر لأول مرة. وعند انفجاره أطلق عمودا هائلا من الدخان والغبار، اندفع نحو سقف الغلاف الجوى، وبلغ ارتفاعه أكثر من خمسين كيلو مترا. وبعد خمسمائة كيلو متر من البركان،

سقطت أكثر المواد كثافة، فصنعت طبقة غطّت سطح اليابسة وسطح البحر. وفى الوقت نفسه أظلمت السماء، حيث اختفى ضوء الشمس، أو تحول إلى اللون الأزرق والأخضر.

ربما شاهدنا يومًا الشمس الخضراء، لكن أحداً لم ير السماء من قبل خضراء اللون، مثلما كانت يومذاك. شوهدت بها بقع متناثرة تميل إلى اللون الأخضر المشوب بالرمادى، ثم تغيرت إلى لون الدم الأحمر القانى، أو لون غبار الطوب الأحمر القاتم، ثم تحولت فى لحظة إلى لون النحاس غير المصقول، أو إلى لون النحاس الأصفر اللامع.

بعد عشرة أيام من انفجار ذلك البركان، وعلى بعد عشرة آلاف كيلو متر أو يزيد من موقعه، كتب أحد رجال الدين فى جزيرة هاواى يقول: إن السماء قبل الظهر بدت بيضاء متوهجة، بدلا من لونها الأزرق المعروف، وحول هذه الهالة البيضاء اللامعة حلقات، أو أطواق من اللون القرنفلى، والأحمر والبرتقالى الوردى، والبُنى. ومن هنا سُميت مجموعة هذه التأثيرات اللونية البركانية باسم «طوق الأسقف»، وظلت تظهر بعد ذلك فى العامين التاليين نتيجة لنفس سُحب الغبار الدقيق الذى جعل غروب الشمس حول الكرة الأرضية كلها براقا لامعا.

كما سجلت التقارير: «تحوَّل لون الأفق الغربى لمنتصفه كله تقريبا إلى اللون النارى القرمزى. ومع مرور الوقت، ففقدت المناطق الشمالية والجنوبية من الأفق بهاءها وتألقها، وتقلصت ألوان الليل الرمادية، بداية من الناحية الشمالية، وبسرعة. أما ناحية الشرق، فقد ظل اللون الرمادى كما هو عادة، وأعتم الجنوب، ثم ظهر توهج قادم من ناحية الغرب يشبه توهج حديد الصلب الأبيض الملتهب، ازداد احمراراً وهو يتصاعد نحو الذروة». فى الشتاء التالى، كان الأهالى فى لندن وباريس - رغم البعد السحيق عن موقع انفجار البركان - يقرؤون الصحف بالطرقات ليلاً على ضوئه.

فى منطقة تقلبات الطقس بالطبقة السفلى من الغلاف الجوى، تلاشى الغبار بكل أحجامه تدريجيا خلال فترة تقرب من أسبوع، بينما ظلت العوالق فى الطبقة العليا (الاستراتوسفير) لزمن أطول. واستمر الغبار زمنا أطول وأطول فوق القطبين.

وبعد ثورة بركان «جونونج أجونج» فى جزيرة بالى (إندونيسيا) عام ١٩٦٣، أظهرت عينات جمعتها طائرة استكشاف بالارتفاعات العالية، أن هناك منطقة تتميز بتركيز جزيئات الغبار، على ارتفاع بين عشرين وخمسة وعشرين كيلو مترا من سطح الأرض، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم : طبقة الهواء الشمسى.

مغامرات اكتشاف القطب الشمالى

من الناس من يدخل فجأة من بوابة التاريخ بلا توقع أو انتظار. ومن الناس من يُمهد له التاريخ، فيعده على مهل، ويوجه مساره، وإن اعترضتْه مصاعب وأخطار.

إن منطقة القطب الشمالى ـ قمة سقف العالم ـ ظلت لسنوات طويلة، ومازالت حتى اليوم، تشغل خيال ورغبة المكتشفين والمغامرين والعلماء. ولكم بذلوا من أجل تحقيق تلك الرغبة الكثير من وقت وجهد ومال وتضحية؛ فنجح بعضهم وخلده التاريخ، وفشل آخرون بعد طول صبر ومعاناة ومشقة بالغة. ومنهم من هلك واختفى أو اندثر تحت طبقات الجليد التى لا ترحم ولا تعبأ بأحد ولا تلين.

إنه القطب الشمالى: هدف العلماء، وحلم المغامرين، وغُنم المكتشفين، وهو المتحدى الصامد الصامت لأهل الأرض أجمعين. لا يفوقه صلابة وصرامة وقسوة، إلا قرينه فى الطرف الآخر من الأرض: قطب الجنوب.

قبل أن نتوقف قليلا مع قصة من نجح من المغامرين المكتشفين فى الوصول إلى القطب الشمالى سيرا على الأقدام وعلى الزحافات، نلقى نظرة على ما سجله التاريخ للرواد الشجعان الأوائل:

* فى عام ١٨٩٣: يكتشف المهندس السويدى آندر ANDRE بعض المنطقة القطبية الشمالية، وهو فى بالون هوائى.

* ١٨٩٥ الإنجليزى فردريك جاكسون Jackson يكتشف جانبا من تلك المنطقة، يطلق عليها: أرض فرانز جوزيف.

* ١٩٠٩ المكتشف الأمريكي روبرت بيرى R.Beary أول إنسان يصل إلى القطب الشمالى.

* ١٩٢٦ الأمريكيان فلويد بينر F.Benner، وريتشارد بيرد Pyrd يحلقان بطائرتهما فوق القطب الشمالى.

يتبعهما في العام نفسه بالمثل: الأمريكى لينكولن السوورث L.Ellsworth، ثم المهندس الإيطالى أمبرتو نوبيل Um. Nobil.

إن «قصة» روبرت بيرى مع القطب الشمالى تثير الدهشة وتسر النفس، وتنزع الإعجاب، ولأنها حدثت بالفعل - ليس فيها خيال مؤلف أو حبكةفنان - فهى جديرة بالدراسة والتأمل، لما تنطوى عليه من شواهد ومشاهد: شواهد على روح العصر، وأساليب فى مجتمعات البشر، وأشكال من الحياة، ومشاهد من تطلعات الإنسان وطموحاته، وقدرته على تحقيقها والتكيف معها والإعداد لها، بعزيمة وإصرار وفكر وشجاعة وصبر وجَلَد، وإن كان قليلَ - بل معدوم - المال، مغمور الحال، وقديما قال أبو الطيب المتنبى:

على قدر أهل العزم تأتى العزائـمُ

وتأتى على قـدْر الكرام المكارمُ

وتعظُم فى عين الصغير صغـارها

وتكْبر فى عين العظيم العظائم

إنها - بحق - درس عظيم للشباب! . . .

سوف نوجز «قصة» رحلته الأخيرة إلى القطب، وهى من أعجب وأطرف الرحلات التى أنجزها إنسان، وذلك من خلال يوميات بيرى ذاته، التى سجلها بقلمه يوما بيوم أثناء تلك الرحلة. والمدهش، أن هذه اليوميات ظلت سرا دفنيا فى الأرشيف القومى للولايات المتحدة الأمريكية خمسة وسبعين عاما من بدايتها، ولم يُنشر شىء عنها إلا فى عام ١٩٨٨! . . . .

لكل فتى - أو فتاة - رغبة، أو طموح أو تخيل: ماذا يتمنى أن يصبح فى المستقبل؟. رغبات وطموحات وخيالات قد تتشابه أو تتقارب، وهى لا تخرج بعيدا عما يجرى فى دنيا الناس - أما أن تكون الرغبة الوحيدة والمؤكدة لغلام صغير يعيش فى بيت الأسرة المتواضع فى بنسيلفانيا، أن يكون أول من يصل إلى القطب الشمالى ويقفز إلى قمة الشهرة والمجد، فهذا ليس مألوفا ولا متوقعا من أحد على الإطلاق!، لكنه حدث بالفعل مع روبرت الصغير الذى عاش حياته كلها من أجل هذا الحلم، وهذا الهدف، لا يحيد عنه، لا يرجو سواه.

ولد فى ٦ مايو عام ١٨٥٦. بعد ثلاث سنوات يموت أبوه، شارل، فتتكفل أمه - ميرى - الحزينة الضعيفة برعايته، وتمنحه كل ما تملك من حب وعطف وتضحية، عوضا عن فقد الأب، وعن قلة المال، تتحمل آسفة باكية إعراض الأهل، وتنتقل لتعيش فى أماكن أقل من متواضعة لكى تكون على مقربة من مدرسته ثم كليته بولاية «مين» بأقصى الشمال الشرقى، وهو يرقبها حزينا صابرا صامتا، وفى قرارة نفسه يتعجل اليوم الذى يستطيع فيه أن يرد إليها بعض ما قدمَتْ من معروف وفضل، وأن يهديها - هى وحدها - مذاق الفرحة باسم تعتز به وتُفاخر بين الأهل وبين الناس.. كل الناس. «صبرا يا أمى! الغد العظيم يقترب». يقولها كل ليلة بينه وبين نفسه، ويجتهد روبرت فى مدرسته. وإلى أن تتاح فرصة عمل، يشغل وقت فراغه بالرياضة والإقامة أحيانا فى خيام المعسكرات، وتصحبه الأم - خوفا عليه - فى بعض رحلاته بالجبال!.

ثم لاحت فى الأفق فرصة عمل: أعلن مكتب مراقبة السواحل وقياس المسطحات فى العاصمة واشنطن عن مسابقة لاختيار رسامين معماريين، بعد فترة اختبار مدتها ستة أشهر بأجر عشرة دولارات فى الأسبوع، استعطف أمه لكى ترضى وتأذن برحيله واشتراكه فى المسابقة، فكان فراقا حزينا دامعا لكليهما. وعندما انتقل من التدريب إلى الوظيفة الدائمة، كتب فى يومياته: «لقد مات الماضى، ليحيا المستقبل».

من واشنطن يكتب إليها فى رسالة طويلة، وقلبه (يعتصر)، يخبرها عن حياته فى العاصمة، ومخالطته لرجال يكافحون بضراوة، ويتعالون عليه وعلى طموحه، ثم يقول لها: «ها أنذا فى سن الرابعة والعشرين، وماذا فعلت؟ لا شيء». ثم يشير إلى أن ما يبذله من جهد شاق فى العمل المتواصل لا يجنى منه إلا السآمة والصبر المر، ولن يصبح «إلا مجرد اسم فى كشف (قائمة) الأجور». . . بينما هناك فرصة عمل فى نيكاراجوا (بأمريكا الوسطى) تحمل معها «بشائر المجد الذى يجعل اسم ابنك مرادفا لكل من أحرزوه منذ بدء التاريخ!» كانت المهمة فى نيكاراجوا الكشف عن طريق للسفن يربط بين المحيطين: الأطلنطى والهادى.

يفوز بيرى بوظيفة مهندس مدنى بالبحرية الأمريكية، ويلتحق بالهيئة التى تعد مشروع القناة المقترحة للربط بين المحيطين، ويحظى بالشهرة فى محيطه كمهندس كفء، بقدر ما نال الرضا والقبول من جوزفين ديبيش ابنة أستاذ فى العلوم مرموق.

حلم الصبا مازال متوهجا لم يفارقه. . فهو عند مستنقعات نيكاراجوا ـ مجال دراسة المشروع ـ يتخيل أرض الشمال القطبى وشعابها الجليدية وثلوجها الذائبة، ويتجسد فى ذهنه الحلم حقيقة، فيكتب من هناك إلى أمه: «إن شهرة كولومبس مكتشف العالم الجديد، سوف تضاهيها يوما شهرتى عندما أقف بقدم ثابتة عند القطب الشمالى كأول مكتشف له. . . .».

ثم يخطو أول خطوة عملية على طريق تحقيق الحلم الكبير: فى إبريل ١٨٨٦ يقف أمام أعضاء أكاديمية العلوم القومية فى واشنطن، يتلو عليهم ورقة عمل لبرنامج بعثة كشفية، يعتزم القيام بها قريبا إلى جرينلاند، فيلفت إليه الأنظار ويكتسب احترام وتقدير الصفوة من العلماء المجتمعين. ينْجز ما وعد. ويصعد فى جرينلاند جبالا تغطيها الثلوج إلى ارتفاع سبعة آلاف وخمسمائة قدم على بعد مائة وخمسين كيلو مترا من الساحل.

ويكتب إلى أمه، موضحا منهاجه للمستقبل: «أولا: اسم جدير بالاحترام والشرف.. ثانيا: الاحتفاظ بالعمل فى البحرية. ثالثا: مكانة اجتماعية ممتازة.. سوف أرتبط بأصدقاء ذوى سلطة ونفوذ لأشكِّل بهم مستقبلى.. لست أنانيا تماما يا أمى، وإنما أريد الآن حظى من الشهرة، بينما تسعدين أنت وتستمتعين بها».

فلما تكونت (شركة القناة البحرية) فى إبريل ١٨٨٧، اختير رئيسا لإدارة البحوث، وتحت قيادته خمسة وأربعون مهندسا: الآن - كما أراد - يصبح تحت نظر أصحاب السلطة والنفوذ. ألزمهم باحترامه وتقديره.

فى واشنطن يلتقى بـ «ماثيو هنسون» الذى سيصبح رفيق حياته ورحلاته، وباعتراف بيرى فيما بعد: «لن أستطيع المضى قدما بدونه». إن ماثيو يصغره بعشر سنين، قصير نحيل، لكنه قوى حكيم، ذو جلد وذكاء، وفوق ذلك قارئ واع مجد. علمه الكابتن «شيلدز» كيف يقرأ ويكتب، ثم صحبه معه فى رحلاته الاستكشافية فى البحر، فأجاد وتآلف مع حياة البحار، لكنه لم يكرس نفسه لها، وكأنما كان القدر يؤهله لمساعدة مكتشف آخر. يأخذه بيرى معه إلى نيكاراجوا مساعدا له: فهو يصمم ويرسم الخرائط، والقطاعات، ويسجل المستويات، ويختبر معه كل أجزاء الطريق المقترح لشق القناة من المحيط إلى المحيط، ثم ها هو بيرى يصبح من المرموقين فى مجتمع الصفوة، فلا يجد حرجا أن يصرح لمراسل النيويورك تايمز: «إننى أرتقى بنفسى، وأكتب اسمى أمام العالم».

من الآن فصاعدا، سوف يجر النجاح وراءه، بقدر ما يحمل من تصميم وعزم، وما يبذل من جهد، مع رصيد مرحلة حياته السابقة. توافق الشركة على قبول دراسته للمشروع واختباراته، وتضمن حقوقه وامتيازاته، وتبدأ التنفيذ العملى للمشروع، ولكن لاح فى الأفق مشروع آخر بديل: قناة پاناما. يستقر الرأى النهائى على تنفيذه فى تلك الأثناء. فى أغسطس ١٨٨٨، يتزوج

جوزفين، ويرحلا معًا - بصحبة أمه - إلى شاطئ نيوجرسى لقضاء شهر العسل. وتكتب «جو» - العروس - إلى أمها: «إذا كان بيرى فى مثل ما أشعر به من سعادة، فنحن إذن أسعد زوجين فى العالم»، لكن السعادة مسألة نسبية، وأحيانا وهمية. . فإن ما يشغل ذهن وخيال زوجها يتردد مع كل نفَس من أنفاسه، ولابد أن الزوجة الشابة لاحظت مرتفعات جرينلاند الجليدية، عبر الطريق القصير الذى كان بيرى يعد نفسه لاجتيازه، فيعقد العزم على اكتشاف شمال شرق جرينلاند عبر طريق أطول وأشق.

مايو ١٨٩١ : يمنح أجازة مدفوعة الأجر لمدة ثمانية عشر شهرا للقيام بأول محاولة لاكتشاف القطب الشمالى. لقد أتم سن الخامسة والثلاثين، تلك السن التى عندها يبلغ معظم المكتشفين قمة نشاطهم وحيويتهم.

كانت هذه الرحلة (فى يونيو ١٨٩١) هى البداية. وعلى مدى أحد عشر عاما من المعاناة بعدها، يخرج بيرى فى ثلاث رحلات كبرى إلى ما اعتبرها منطقته المألوفة: جرينلاند وجزيرة الزمير، يقضى فى ربوعها الجليدية سبع سنوات وأربعة أشهر، ويقطع فى أسفاره بها أربعة عشر ألف كيلو متر، ومعه كلاب الجر. إنه حقا عمل شاق وجهد غير مسبوق، جدير بالتقدير والإكبار لأشجع وأفضل مسافر قطبى فى عصره. ومع ذلك، لم يتوغل داخل المحيط بالمنطقة القطبية الشمالية لأكثر من مائة وعشرين كيلو مترا تقريبا. ورغم الخبرات الجديدة تماما فى ظروف صعبة للغاية، فإن سبعة من المغامرين والمكتشفين لم يتركوا له سوى خمسمائة كيلو متر لم تُكتشف بعد.

فى الرحلة الأولى من تلك الثلاث، لعب ثلاثة أشخاص أدورا رئيسية فى حياته: أولهم ما ثيوهنسون، الذى تأثر بيرى كثيرا بذكائه وإخلاصه وموهبته. والثانى، الطبيب الجراح فردريك كوك الذى عالج بنجاح قدم بيرى التى انكسرت لاصطدامها بعنف بذراع الدفة الحديدية الصلبة، والثالث: الزوجة، جو أوجوزفين، التى تولت تمريضه بعناية شديدة حتى شفى، ولكن للأسف،

انتقلت العلاقة الطيبة بين بيرى وكوك - الذى شاركه رحلة حياة أو موت فى مغامرته الأولى - إلى مشاكسة، ثم إلى كراهية. وهو ما حدث بعد ذلك مع كثيرين من رفاق الرحلات التالية إلى القطب. لقد كان بيرى منظما ومخططا ممتازا، لكن شغفه الشديد بالشهرة، لم يسمح له بأن يعطى حق الآخرين.

قطع أكثر من ألفى كيلو متر عبر المنطقة الشمالية الشرقية الجليدية الشاقة المجهولة آنذاك، ولم يستطع أن يواصل تلك الرحلة، لأنه لم يعثر على ثور يأكله، فخشى الموت جوعا. وفى هذه الرحة وضعت جو طفلتهما الأولى «ميرى أهنيغيتو»، (أى: طفلة الثلوج بلغة الإسكيمو). والحق أن جو - الزوجة والأم - كانت فى غاية الشجاعة والمساعدة وحسن الصحبة، وقد شهد لها بذلك.

الرحلة الثانية، فى عامى ١٨٩٣ - ١٨٩٤، كانت مأساة قاسية: المرض، وآلام التجمد، والعواصف الثلجية القارسة. ورغم ذلك.. اندفع بيرى بمن معه للتقدم ومواصلة السير، خلاف ما يقضى به العقل والرأى السديد، إلى أن تفشى مرض فى كلاب الجر، قضى على معظمها؛ فاضطر إلى العودة.

ثم رجع ليعيد الكَرة برحلة ثالثة عبر جرينلاند قطع فيها نحو ثمانمائة كيلو متر عسيرة مؤلمة، ولم يبق من كلابه الاثنين والأربعين سوى أحد عشر، وانتابته آلام مميتة فى ظهره، ولم يجد عزاء إلا فى رسالة تلقاها من أمه، تقول له: «إذا لم تحقق بعد كلَّ ما كنت تأمله، فلا تحزن ولا تيأس... فكثيرون قبلك فشلوا...».

قوبل بيرى بالترحاب والتهليل، لأنه حقق بعض الاكتشافات العلمية، خاصة فيما يتعلق بالطقس، ومصادر الحديد الثرية لدى الإسكيمو، بل إنه أحضرمعه أربعة وثلاثين طنا متريا من صخور النيازك، حملها فى سفينته، فكان عملاً فذا أفاد العلماء فى مدينة نيويورك.

ظل الطريق إلى القطب الشمالى مسدودا فى وجهه. لابد من

البحث عن مسلك جديد. لم ييأس، ولم يتراجع، وتذكر مقولة «سينيكا»[1]: «سوف أجد طريقا أو أصنعه». ورغم الآلام الشديدة نتيجة الجروح فى قدميه، فإن قلبه وفكره ونظره ظلوا جميعًا معلقين بالشمال، بالقارة القطبية، ويردد على الدوام: «رغم كل شىء، لابد من دفعة نحو الشمال». ثم كانت مؤازرة طيبة، ومؤثرة، أن يكّون أصدقاؤه «نادى بيرى القطبى»، ويُرزق بطفلة ثانية: فرانسين.

كان لابد من مضاعفة الحزم والحماس، بعد أن تلقى أنباء عن محاولات «آخرين» الجادة لبلوغ القطب الشمالى. فى الثامن من مارس ١٩٠٠ يعبر - مع هنسون - لأول مرة المحيط القطبى الشمالى، يشق طريقا جديدا لم يسلكه أحد قبله، لكنه يتراجع بعد فترة، حيث كانت الكتل والجبال الجليدية العائمة المترصدة أشق وأخطر مما كان يتصور، ثم يعيد المحاولة: بين العاشر من يونيو ١٩٠٠ إلى الخامس من إبريل ١٩٠١ لم يستطع أن يقطع فى هذه الشهور العشرة أكثر مما قطع فى المحاولة السابقة، وفى طريق أبعد إلى القطب، فعاد مهموما إلى قرية «فورت كونجر»، ثم خرج منها فى رحلة تالية، وقطع نحو سبعين كيلو مترا فى ثمانية أيام، ثم اضطر إلى العودة. لاشك فى أنه صار مكدودا، مكروبا يكاد أن يكون محطما.

فى طريق عودته يتوقف ليقيم فترة فى كوخ بميناء «دورفيل» للاستراحة بين الإسكيمو، ويتلقى رسالة من زوجته تشكو من أنها لم تتلق منه أية رسائل منذ تسعة أشهر، وتواجهه بما بلغها عن علاقته بامرأة من الإسكيمو - أليكازينا - وإنجابه طفلا منها، ورسالة من أمه تبدى أسفها لما سمعته من أخبار محزنة «عما تعانى من متاعب وآلام، وما حدث من بتر وتشويه فى قدمك.... آه يا بنى!، عد فورا إلى بيتك، ودعك من تلك الملاحقة..». ثم يتلقى رسالة

---

(١) سينيكا: (٤ق.م - ٦٥ بعد الميلاد) كاتب تراجيدى مسرحى رومانى وفيلسوف رواقى، ورجل دولة سياسى. يجمع فكره بين العاطفة والعقل، وتشير مسرحياته إلى انتصار الشر على روح الإنسان الفرد. مازالت تسع من مسرحياته تمثل إلى الآن، منها: «ميديا»، «فيدر»، «أجا ممنون».

أخرى من جو: «ابنتنا المحبوبة الصغيرة التى لم ترها قط، اختطفها الموت منى بعد شهور من مولدها.. آه يا زوجى، يا حبيب قلبى، ليتك كنت معى لنتقاسم الأحزان، ولكن وحدى، فهذا كثير، حقا كثير!».

السادس من مايو ١٩٠١، فى ذكرى يوم مولده الخامسة والأربعين تلتقى به جو ومعها ابنتهما ميرى بعد نحو ثلاثة أعوام. لم يكن أمامه بديل آخر، ثم يتلقى نبأ كان له وقْع الصاعقة: وفاة أمه.

السادس من إبريل ١٩٠٢: بيرى وأسرته ومجموعة من المساعدين يتجهون فى رحلة إلى الشمال القطبى، يكافحون باستماتة فى قطْع كتل الجليد التى تعوق مسيرتهم الشاقة. لم يتقدموا سوى مائة وعشرين كيلو مترا طوال خمسة عشر يوما. ثم يتوقف ليرفع العلم الأمريكى فوق تل جليدى، ويدوِّن فى يومياته تلك العبارة المحزنة: «انتهت اللُّعبة. تلاشى حلم ستة عشر عامًا من العمل المهلك».

لكن الرئيس الأمريكى له رأى آخر. إن تيودور روزفلت يَحْدب على بيرى كرجل على شاكلته، ويريد أن ينال شرف اكتشاف القطب الشمالى بطل أمريكى، تتهيأ له الفرصة المناسبة؛ فيأمر بأن يُمنح بيرى إجازة بمرتب لمدة ثلاث سنوات، وأن توضِع تحت إمرته السفينة «روزفلت»، فتبحر من ميناء نيويورك فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٠٥، وعلى ظهرها بيرى الذى بلغ التاسعة والأربعين، قبل مولد ابنه «روبرت الأصغر» ببضعة أسابيع. الآن، يشعر بيرى - مع حدب الرئيس، وقوة تلك السفينة - أن السنوات القاسية السوداء قد ولَّت إلى غير رجعة.

باتّباع استراتيجية جديدة، وأسلوب جديد، يصحب معه عددا أكبر من الرجال (الإسكيمو)، ومن الكلاب المدربة. بعد ثلاثة أسابيع من الصراع مع الجليد، يصل رأس «شريدان». وفى شهر فبراير التالى يكون مستعدا للتقدم لمسافة سبعمائة كيلو متر إلى القطب بمعدل ستة عشر كيلو مترا فى اليوم..

ويعلق مرافقه «هنسون» قائلا: «إذا شاء الله، ورضيت الرياح، والزحافات، والجليد، والثلوج، وجحيم تلك الأراضى المتجمدة»!.

لكن لم يشأ الله، فلم يَرْض كل هؤلاء!. بعد سبعة عشر يوما لم يقطعوا سوى مائة كيلو متر، بالكاد ستة كيلو مترات فى اليوم، والأرض تميد من تحتهم!، ثم واجه ما كان يخشاه: «المتاهة فى أرض شاسعة مكشوفة، تمتد شرقا وغربا لأبعد من مدى رؤيتنا الصحيح إلى القطب»، فكان أمام خيارين: إما أن يعود أدراجه، وإما أن يخاطر بحياته وحياة كل من معه. يكفيه أنه اكتشف أرضا جديدة، ومواقع جديدة، وبلغ حدا لم يسبقه إليه غيره، فوق طبقة من الجليد المتحرك: «شكرا لك يا إلهى، فقد بلَّغْتنا منطقة من خط العرض، تعتبر قياسية»، هكذا سجل فى يومياته. ثم قرر العودة إلى حيث ترسو «روزفلت»، قائلا لمن معه: «سوف نعود إلى هنا فى العام القادم».

لكن جو التى كانت تنتظر رجوعه بفارغ الصبر تستعطفه وتلح عليه: «لن أسمح لك بالرحيل مرة أخرى.. إن لابنك وابنتك حقا عليك يا زوجى، يا حبيب قلبى.. فكر جيدا فى الحياة التى أوْشكت على الانتهاء، وأننا فقدنا معظمها».

وكيف تدخل هى فى تنافس مع قدره ومصيره؟. فى ديسمبر ١٩٠٦ أقامت «الجمعية الجغرافية القومية»، (التى مازالت تصدر مجلتها بتميز واقتدار حتى اليوم، وتجاوز عدد اشتراكاتها الثابتة، بخلاف التوزيع بالأسواق ثلاثة عشر مليونا)، أقامت مأدبة حضرها الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت، وقدم بنفسه ميدالية تذكارية إلى بيرى لوصوله إلى أبعد نقطة فى الشمال، محققا إنجازا جديدا، وأثنى على المكتشف الشجاع «والعمل الفذ الذى قمتَ به».. فماذا يكون جوابه على جو إذن؟. «بالنسبة لى، فإن الحل النهائى والكامل للغز القطب.. هو الشيء الوحيد الذى يجب أن يؤدَّى من أجل شرف وسمعة هذا البلد، وهو الشيء الذى ينتظر منى أداؤه، وهو الشيء الذى يجب علىَّ أن أفعله».

بعد تسعة عشر شهرا، يستقبل بيرى على ظهر السفينة روزفلت الرئيس الأمريكى، الذى جاء بنفسه للتحية، مودعا بيرى والذين معه قبل رحلتهم إلى القطب، فيقول وهو يشد على يده: «إننى أثق بك يا بيرى، وأثق من نجاحك، طالما كان فى مقدرة إنسان».

منحه الرئيس مرة أخرى ثلاث سنوات إجازة بمرتب، لكن العقبات المالية كانت قد تراكمت، خاصة بعد وفاة «موريس جزوب» أهم الذين كانوا يحمون ظهره بالمال.

وهكذا فى السادس من يوليو ١٩٠٨، بعد تأخر سنة كاملة عن موعدها، ترحل «روزفلت» من ميناء نيويورك بين الهتاف والتهليل من الجموع المحتشدة، وصفير السفن الرأسية بالميناء الكبير تحية لبيرى ورجاله. إنها فرصته الأخيرة لتحقيق الأمل الذى ظل يراوده ويطارده طوال حياته. وماذا تحمل السفينة؟. فيها كمية ضخمة من الفحم، تكاد تبلغ حافتها، سبعون طنا من لحم الحوت، لحوم ودهون خمسين فقمة، اثنان وعشرون من رجال الإسكيمو الأشداء المتحمسين مع أدواتهم للصيد، يصحبون سبعة عشر امرأة «ثرثارة تجيد الفكاهة والطرب» ومعهن عشرة أطفال، وبالسفينة أيضا مائتان وستة وأربعون كلبا مدربا على المشى فوق الجليد. ويدوّن بيرى مع بداية الرحلة: «يسبقنى فى هذه الرحلة حلمى، وقدرى، والهدف الذى لم يتوقف نبضه، ولم أستطع مقاومته، والذى ظل يجرفنى فى مساره ثلاثة وعشرين عاما.... هل سأنجح؟ هل سأعود؟».

قضى بيرى فصل الشتاء القطبى الأخير فى «رأس شريدان» يحسب متطلباته من الطعام، الذى كان ـ لا البرد ـ السبب فى فشل رحلته السابقة. وفى الحادى والعشرين من فبراير ١٩٠٩ اختار المجموعة التى ستصحبه إلى القطب، وترك الباقين بالسفينة، ثم كتب فى يومياته: «عندما أخلد إلى النوم فى هذه الساعات الأخيرة، يستقر فى اللاشعور.. أنه مع بداية الصباح سيتم سحب الخيط الذى سنطلق به آخر سهم فى جُعبتى».

فى اليوم الأول من مارس، ومع نهاية الليل الشتوى، كان أربعة وعشرون

رجلا - من بينهم بيرى ومساعده - وتسع عشرة زحافة، ومائة وثلاثة وثلاثون كلبا، يبدأون أولى خطواتهم التاريخية فوق المحيط القطبى المتجمد عند خط عرض ٨٣ْم، فى اتجاه القطب.

سارت المجموعة، وفى المؤخرة بيرى لحماية ظهرها، وبعد قليل هبت ريح قطبية عاتية، أثارت ضبابا رماديا من شظايا الجليد التى تحتها من طبقته السطحية، حتى تلاشت الرؤية. ثم انقسموا إلى سبع مجموعات صغيرة، مع كل منها أدواتها وطعاما يكفيها وكلابها لمدة خمسين يوما، وتمشى بمعدل أثنتى عشرة ساعة فى اليوم، ويمشون بالتتابع، ويواجهون ما لم يكن متوقعا، وبين الحين والحين يجرون زحافاتهم - لإراحة الكلاب - حتى أصبحت عضلاتهم «هشة» بتعبير بيرى، والجليد يتهشم بصوت صاخب، ويَميد من تحت أقدامهم.

فوجئت مجموعة بيرى وهى تعبر فوق مياه بحيرة متجمدة عرضها عشرة كيلو مترات بانهيار الثلوج من تحتهم، مما أخر زحفها، وأصيب بعض الإسكيمو بالمرض. تأخرت المسيرة أربعة أيام، ثم خمسة. وبدأ القلق ينتابهم والرياح تشتد، وراودت بيرى فكرة إلغاء الرحلة، لكنه تماسك... فهو الوحيد الذى يستمد منه الجميع الشجاعة والصبر والتحمل، ورؤية القطب الشمالى تزيده حماسا واصطبارا.

فى السادس من إبريل، يكتب بيرى فى يومياته بالمعسكر المتنقل: «أعتقد الآن أننى أول إنسان فى العالم يجلس على هذا الموقع المتقدم من سقف العالم»، ثم ينام قليلا، ويصحو شارد الذهن، قلقا. ويمضى وحده سيرا بزحافة القدمين بضعة كيلو مترات، ومعه علم أمريكى، ثم يتوقف لإجراء قياساته وحساباته، وبعدها يثبت سارية العلم فى الثلوج، ويدوّن فى مذكرة يومياته: «القطب أخيرا!!!». جملة قصيرة مثيرة شهيرة!.

شعر مساعده هنسون بغُصة: لماذا مضى بيرى وحده ولم يصحبه معه فى هذه اللحظات التاريخية الفريدة؟!. إنه المساعد الذى صنع الكثير، وضحى بالكثير من أجله طوال سنوات، بما لم يفعله أحد آخر!.

يعود بيرى إلى المعسكر. ويصف هنسون حالته عند عودته: «كان وجهه ممطوطا متجهما. لم يشأ أن يكلمنى. علمتُ من الولدين اللذين كانا معه أنه يُجرى ملاحظات أبعد من القطب بكيلو مترات». ثم يتابع هنسون كلامه فى مذكراته: حسنا مستر بيرى. نحن الآن عند القطب . ألسنا كذلك؟.. لم يجُب. ظل صامتا شاردا. فتابعتُ كلامى: حسنا . لقد أحصيتُ قياسات المسافة، وحسبتُ مقدار الزمن. فإذا كنا بالفعل قد مضينا فى الاتجاه الصحيح، فإننا الآن حقا عند القطب. وإن لم نكن قد سلكنا الاتجاه الصحيح، فإنه يكون خطؤك أنت.

لاذ بيرى بالصمت ولم يجب. نزعتُ القفاز من يدى اليمنى، ثم مددتها لأصافحه مهنئا بنجاح جهد دام ثمانية عشر عاما، لكن هبّت ريح عاصفة أطارت قذًى غشى عينه.. فرفعَ على الفور كلتا يديه ليغطى وجهه، ثم أصدر إلينا أمرا بألا نتركه نائمًا أكثر من أربع ساعات».

أجرى بيرى مراسم حفل صغير عند العلم الأمريكى المرفوع فى القطب، ثم كتب يقول: «ألقيتُ نظرة خاطفة أخيرة على العلم، ثم أدرت وجهى نحو الجنوب، نحو المستقبل». ولكن كيف سيكون المستقبل لو أنه رجع بالفشل؟ لو أنه لم ينجح، فأى واجب يكون قد أداه نحو زوجته وأسرته؟ نحو الذين آزروه وساعدوه بالمال والرجال؟ نحو البحرية التى ينتسب إليها؟ نحو الرجل الذى كان شديد الإعجاب به: تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، الذى كلفه برفع العلم المخطط ذى النجوم عند موقع القطب، ليفتخر شعبه بإنجاز مهمة علمية إنسانية كبرى مُلهمة للشباب؟. لعل هذه الأفكار الضاغطة كانت تشغل ذهنه وهو فى طريق العودة، فتفسر ما كتبه هنسون فى مذكراته عنها:

«منذ ذلك الحين، أدركنا جميعا أنه يجب ألا نُكثر من الكلام مع القائد بيرى.. إذ نادرا ما كان يتحدث معى.. فشعرت بجرح فى قلبى.. لم يعد يلتفت إلىَّ كلما استيقظنا فى الصباح، وطوال زحفنا على الجليد، كما تعودنا».

بعد السير على مدى ست عشرة مرحلة، وصل بيرى وجماعته إلى رأس كولومبيا، وهناك استراحوا بالنوم ليومين، قبل أن يركبوا السفينة. فى الثانى عشر من إبريل، بعد اثنين وخمسين يوما من مغادرة تلك السفينة إلى القطب، يوقّع على لوحة تذكارية من النحاس، رفعت فوق نصب يشير إلى اتجاه القطب كتب عليها: «القطب الشمالى، ٦ إبريل ١٩٠٩ ـ ٤١٣ ميلا».

فى طريق العودة بالسفينة جنوبا، يتلقى بيرى مجموعة من الرسائل، من بينها واحدة من جو، تقول له فيها: «إذا كنت قد أحرزت نجاحا، فإنك حقا سعيد، ولن يضيرك شىء بعد ذلك، وإذا لم تكن، فآه يا أغلى وأحب الناس إلى قلبى، حاول إذن أن تكتفى راضيا وتهدأ بالا بيننا، وماذا لو أنك لم تعد؟ إننى ببساطة لن أستطيع مواجهة شتاء آخر بدونك... فيجب، حقا يجب أن تعود إلى بيتك».

يُستقبل بيرى استقبالا حافلا، ويتلقى عديدًا من الميداليات الذهبية، والتهانى والشهادات الفخرية من كل أنحاء العالم، ويرقّى إلى مرتبة العميد البحرى، والشكر رسميا من الكونجرس، والشهرة التى يبتغيها مدى الحياة، والثناء بكل أشكاله ورموزه على شجاعته وتحمله وصبره. ولكن ماذا كان ثمن النجاح؟. فى مذكرة خطية لزوجته ـ لم تنشر من قبل ـ جاء فيها:

«لن يعلم أحد مطلقا مدى تأثر زوجى بالشكوك التى وُجهت إليه من البعض حول ملاحظاته العلمية، وهو الذى كان دقيقا خاليًا من الشك فى كل شىء، وفى كل وقت طوال حياته.. إن الاستجواب القاسى الذى تعرض له بين يدى أعضاء من الكونجرس، بينما كانت ملاحظاته العلمية تُفحص ويؤخذ بها وبصحة معلوماتها التى ثبتت تماما، إن ذلك أدمى قلبه أكثر من كل الصعوبات التى واجهها وتحملها طوال ستة عشر عاما من البحث والاكتشاف فى مناطق القطب الشمالى، وهو ما هَد جسمه ومزاجه أكثر من أى شىء عالجه فى اكتشافاته».

دهمته الأنيميا الخبيثة. وفى العشرين من فبراير عام ١٩٢٠ فارقت الروح جسد هذا الرجل العجيب ذى النمط الفريد. وفى آفاق التاريخ، يرتفع نجم بيرى كرائد من الطلائع الذين أسهموا بنصيب متميز فى الإنجازات البشرية. ظل مدفوعا ـ منذ صباه ـ بفكرة آسرة، وهدف استحوذ على كل نشاطه وطاقته، وأفسح نطاق المحاولات الإنسانية الكبيرة المثمرة.

....

* فى عام ١٩٩٠ نجح اثنان من شباب النرويج المغامرين المدربين على الانزلاق فوق الجليد، نجحا فى تتبع مسار رحلة بيرى، ووصلا إلى القطب الشمالى، ثم عادا بسلام.

* وفى عام ١٩٩٥ غامرت مجموعة من الشباب: من الولايات المتحدة واليابان، والدانمارك، وروسيا، وبريطانيا، باختراق المنطقة القطبية الشمالية من شمال روسيا إلى القطب، ومن القطب إلى شمال كندا (قريبا من مسار بعثة بيرى) فقطعوا مسافة تبلغ نحو ٢٠٠٠ كم سيرا على الأقدام فى ١١٦ يوما، وفى درجة حرارة متوسطة ٤٠ تحت الصفر.. صيفا!.

على هامش المغامرة:

إذا كان خطأ الجاهل هفوة قد تُغتفر، فإن خطأ العالم ـ عن عمد ـ جريمة لا تَنْدثر.

فى يوم من سبتمبر عام ١٩٠٩ استقبلت كوبنهاجن (عاصمة الدانمارك) دكتور فردريك كوك استقبال الأبطال بالتهليل والهتاف والموسيقى والطبول والورود. رحب به عند وصوله إلى الميناء كبار رجال الدولة ونساؤها وحشود من الأهالى، مرحّبة به، وأفاضت فى الثناء عليه كل صحف العالم بعد عودته من رحلة رائدة شاقة مضنية عبر المنطقة القطبية الشمالية.

بدا د. كوك يومها.. من خلف ابتسامته وبريق عينيه ـ وقد أتم عامه الرابع والأربعين ـ بدا مسرورا مزهوا مثل نجوم السينما، محاولا إظهار شيء من التواضع من خلال صوته الخفيض، وحركاته المحسوبة بدقة، وبساطته فى المظهر. إنه عائد لتوه من مغامرة تفوق قدرات البشر العاديين، وفى ظروف جوية لا تطاق... فهو إذن بطل القطب ومكتشفه كما يقول، ومعه الصور الفوتوغرافية التى تظهره واقفا بجوار كومة من الجليد، رفع فوقها العلم، بعد محاولات فاشلة بدأت مع مغامرين منذ نحو أربعة قرون.

ها هو يسبق الأمريكى بيرى، وأباروز الإيطالى، وأمندسن النرويجى. وهو ـ كوك ـ ليس غريبا على المنطقة، فقد سبق له أن صاحب بيرى فى رحلته إلى المنطقة كطبيب، عام ١٨٩١، وعام ١٨٩٢. وفى عام ١٨٩٧ صحب مجموعة بلجيكية أرادت التعرف على المنطقة، وقد حظى بالشهرة منذ أن كان أول الذين بلغوا قمة أعلى جبل فى أمريكا الشمالية «ماك كينلى» وارتفاعها ٦١٨٨ مترا. فانتصاره إذن على القطب الشمالى ليس غريبا أو بمستبعد على رجل مثله. خرج إلى هذه الرحلة فى ١٨ مارس عام ١٩٠٨ من طرف جزيرة آكسل هايبرج التى تبعد ثمانمائة وثلاثين كيلو مترا عن القطب مع أربعة من رجال الإسكيمو وستة وعشرين من الكلاب المدربة، وعربتين زاحفتين، أى أقل كثيرا من عدد الرجال والكلاب والزحافات التى اصطحبها بيرى معه.

انهالت عليه حفلات التكريم والمنح والهدايا ومقالات المديح بالصحف والتذكارات الثمينة من كل الوزارات والهيئات والأثرياء. ودُعى إلى حفل تكريم بالقصر الملكى بكوبنهاجن، حيث تلقى من الأمير ولى العهد ميدالية قيمة، وتسابق الشعراء والمشاهير لالتقاط صور معه. وبعد أيام قلائل كان يشكو من كثرة الحفاوة به، وأسئلة الصحافيين التى لا تنتهى، وتريد أن تعرف تفاصيل كل شيء عن الرحلة، وما كان فيها يوما بيوم... لكن أيام الحظ أو السرور قليلة لا تدوم... فقد وصلت برقية من الأمريكى بيرى تفيد بأنه رفع العلم فوق القطب الشمالى يوم السادس من إبريل، إعلانا عن نجاحه فى تحقيق حلمه.

حاول كوك أن يظهر إعجابا بما حققه بيرى، لكنه فى نفسه شعر بأنهما سيدخلان فى مواجهة، بل فى منافسة قد تتطور إلى عداء. وأخذت أحاديثه وتصريحاته تبدو متناقضة، وفى نظر العارفين من العلماء غامضة مثيرة للشكوك، ومع ذلك ظل فرحا مزهوا بما نال من تكريم وأموال وافرة وميداليات وأوسمة. ولما عاد بيرى وبلغه أن كوك أعلن عن نجاحه فى الوصول إلى القطب، لم يصدق. كيف وهو - بيرى - لم يجد أى أثر لإنسان قبله عند القطب، ولا علامة، أو علم؟!. اتصل بيرى بالرجلين (الإسكيمو) اللذين صحبا كوك، فعلم منهما أنهم لم يتركوا بحر الشمال المتجمد، ولم يتجهوا نحو القطب. وعلى الفور أرسل بيرى برقية إلى كوبنهاجن يعلن، فيها أن كوك كذاب أشر!.

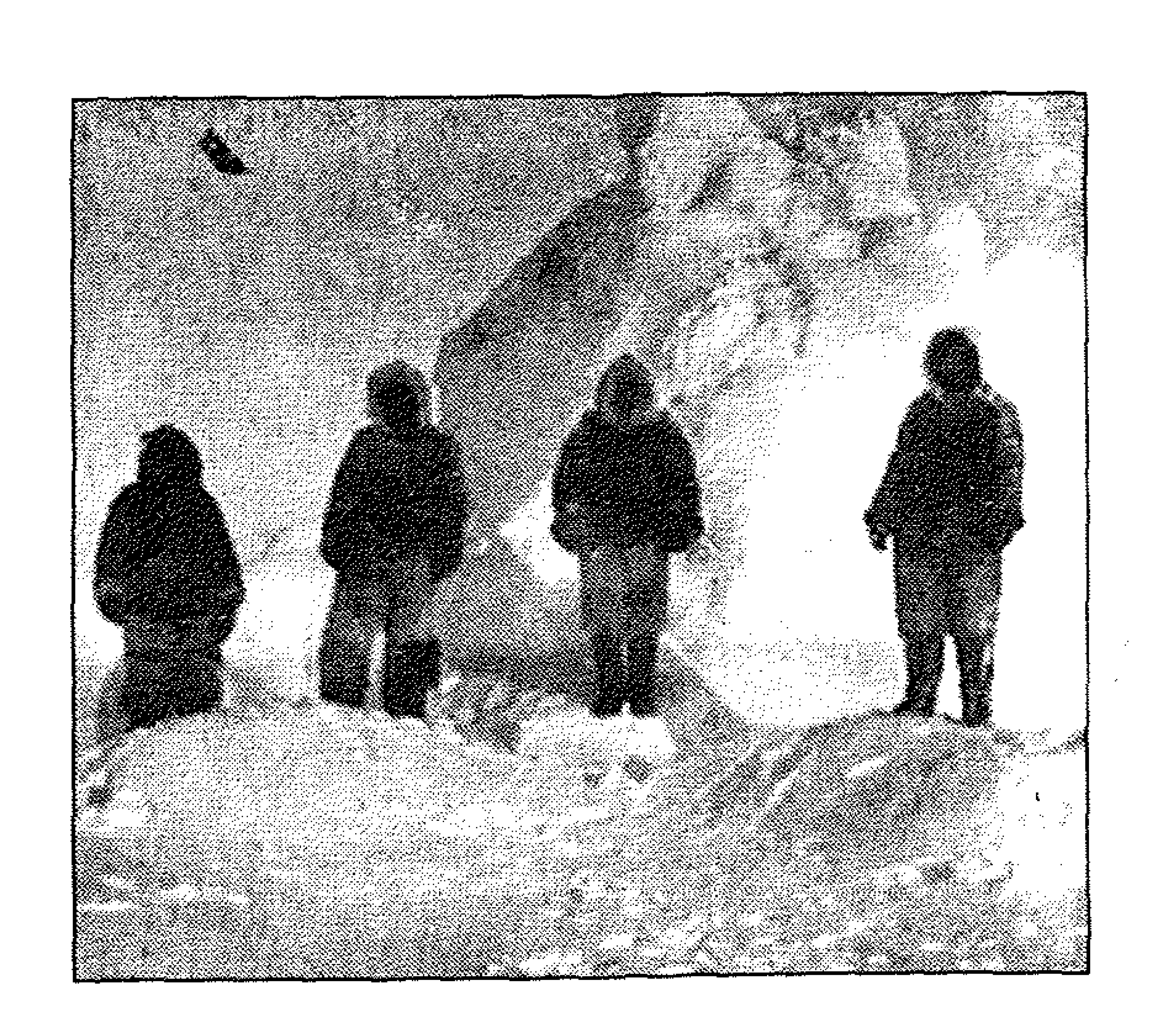
واجتمع فريق من العلماء بكوك، يسألونه ويحاورونه بأسلوبهم ومصطلحاتهم ومقاييسهم، وهو يراوغ ويجادل مدعيا - عند محاصرته بالاستفسارات والأسئلة - ضعف الأجهزة التى معه، أو كثافة الضباب الذى حجب عنه الرؤية، أو جعله يخطئ فى الحسابات الفلكية والتقدير... فزادت شكوكهم، حتى بين أولئك الذين كانوا يؤازرونه والمعجبين به. ظل صامدا لما بدأ يوجَّه إليه من نقد، وأحيانا بتجريح وذم. وظن أنها عاصفة سوف تنقشع، يكفيه أن يطأطئ لهاالرأس، ويتسم بمظهر البساطة والبراءة.

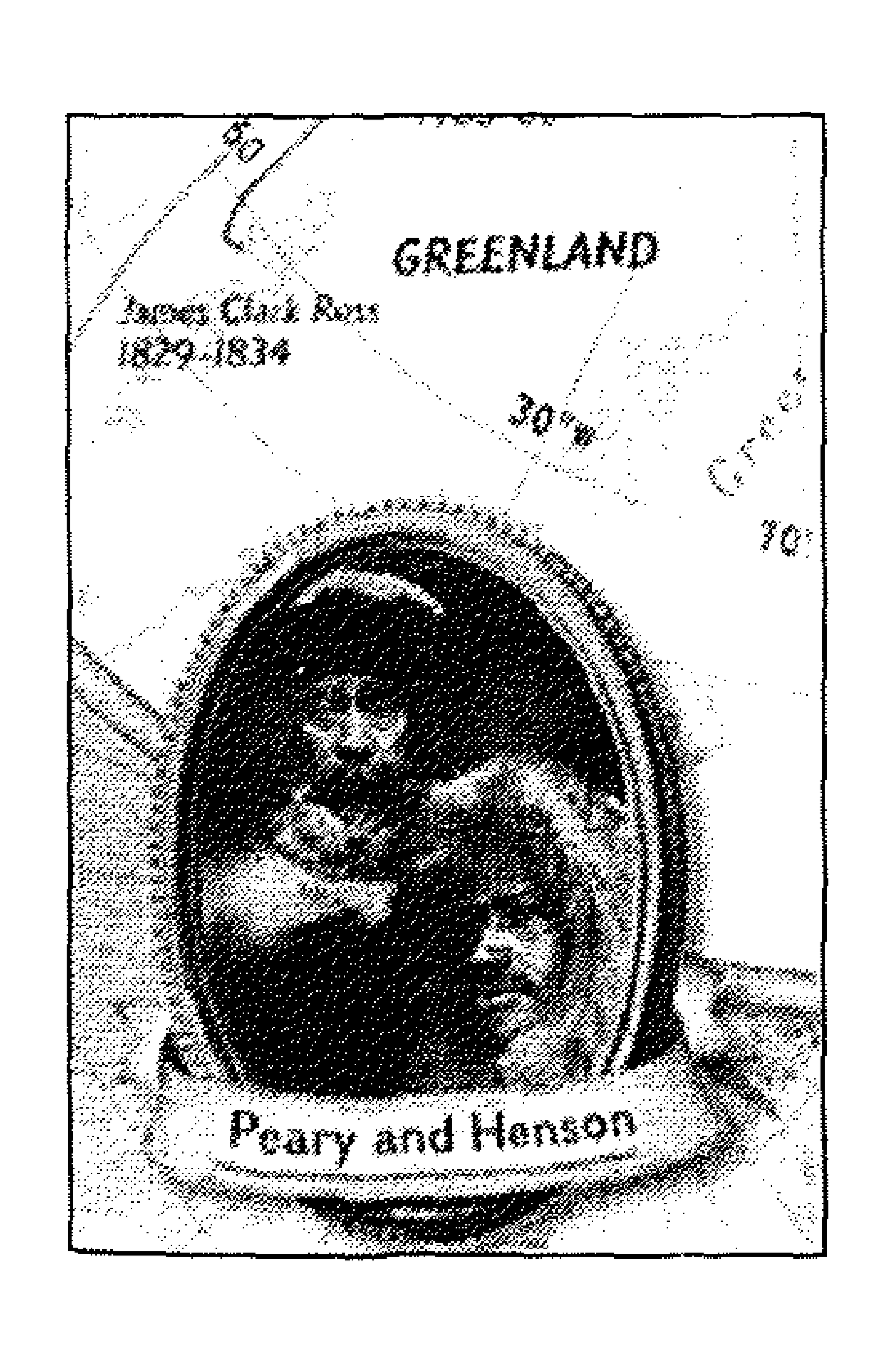
ويشاء القدر - لسوء حظه - أن يكشف النقاب فى هذا الوقت ذاته عن كذب ادعائه بأنه مؤلف قاموس إنجليزى - باتاجونى[1]، وهو فى الحق من عمل «بريدج» أحد رجال البعثة الدينية الإنجليزية، الذى عهد بمخطوطته عندما حضرته الوفاة إلى كوك، وكان يثق به كطبيب، لكن كوك ادعى أنه صاحب القاموس. وهذا فى ذاته أمر جد خطير. وأخذ الناس يشككون فى زعمه بأنه نجح فى الوصول إلى قمة جبل ماك كيفلى. وبالضغط على المرشد الذى

(١) باتاجونيا منطقة فى أقصى أمريكا الجنوبية، تمتد من جبال الأنديز إلى المحيط الأطلنطى، معظمها فى الأرجنتين، وجزء منها فى جنوب شيلى.

صاحبه فى تسلق الجبل، اعترف بأنهما لم يصعدا إلى القمة، وأن د. كوك وضع بنفسه سيناريو هذا الادعاء، وأنه وعد المرشد بمبلغ كبير من المال نظير صمته، ولم يفِ بوعده!. ولم يتراجع كوك أو يهتز، بل زعم أن هذا المرشد باع ضميره للحاقدين عليه من أصدقاء بيرى!، لكنه أصبح فى موقف يدعو إلى الرثاء. انطفأ بريقه، وتتابعت عليه الاتهامات؛ ثم الإهانات، بقدر ما تلقى من حفاوة وإنعامات.

ثم كان الفصل الأخير من المأساة (التى صورتها السينما الأمريكية فى أحد أفلامها) أن المكتشف المزعوم ومؤلف القاموس المنتحل، كوّن شركة وهمية للبترول جمع لها مساهمات ضخمة من الجمهور، أفضت به إلى قفص الاتهام، ثم الخروج منه لقضاء خمس عشرة سنة فى السجن، وغرامة قدرها اثنا عشر ألف دولار. لكن أفرج عنه بعد قضاء خمس سنوات «لحسن» سلوكه فى السجن! وبعد عشر سنوات دهمه المرض، وأصيب بشلل كامل؛ أعجزه حتى عن الكلام؛ ومات دون أن يشعر به إنسان!.





في مايو ١٩٩٧ نجحت طبيبة الأطفال الفرنسية «كريستين جانان» في الوصول إلى القطب الشمالى، في رحلة سيرا على الأقدام، بدون كلاب، أو حيوانات أخرى قطبية لجر العربات الزاحفة، بعد اثنين وستين يوما من بدايتها، قطعت فيها مسافة ألف كيلو متر من سيبيريا، ومعها رفيق طريق مدرَّب، هو الروسى «سيرجى أوجُورود نيكوف»؛ فكانت أول امرأة في التاريخ تصل إلى القطب الشمالى سيرا على القدمين.. فقط!.

احتفلت كريستين في الطريق بعيد ميلادها الأربعين، وكانت هدية سيرجى إليها بهذه المناسبة أن خفف حمولة عربتها الزاحفة التى تجرها خلفها بحبال حول وسطها، فحمل عنها عشرة كيلو جرامات من المواد والأطعمة والأجهزة، نقلها إلى عربته الزاحفة التى يجرها خلفه.

تعرضا للهلاك عدة مرات في مواجهة: الجليد الدائم(متوسط درجة الحرارة ٤٠ْ تحت الصفر) والرياح والعواصف القطبية القاتلة، والانهيارات الجليدية، وتكسر طبقات الجليد تحت الأقدام فجأة، والدب القطبى الذى فوجئا به مرتين على باب الخيمة أثناء نومهما، وكانت تكفى ضربة واحدة من يده العملاقة لتطيح بالخيمة؛ وتقتلهما في الحال، لكنه استدار - في كلتا المرتين - من تلقاء نفسه وانصرف!.

أثبتت كريستين مقدرة فائقة غير عادية على تحمل المشى المستمر طوال تلك المسافة وفي هذه البيئة المهلكة والأجواء القاسية العنيفة، التى تسميها «الجحيم الأبيض»!، ولا ليل على الإطلاق، فالشمس ساطعة (بلا حرارة) طوال اليوم، لكنها في النهاية نجحت في تحقيق هدفها ورغبتها الخطرة!.

إنسان العصر الحجرى فى القرن الحادى والعشرين

نسمع عن إنسان العصور القديمة: عصر الكهوف، حيث كان يسكن ويعيش، وعصر الأحجار، التى منها صنع أدواته وأسلحته، وعصر الحديد، وعصر البرونز قبل الميلاد بنحو ألفى سنة... وكلها عصور تسبق التاريخ المدون. تحتفظ المتاحف بما يعثر عليه المنقبون منْ بقاياها وآثارها. ويتخيل العلماء والفنانون (المصورون، والرسامون، والسينمائيون) ما كانت عليه حياة هؤلاء البشر الذين سبقونا على أرضنا بآلاف السنين.

لكنهم لم ينقرضوا....

على نفس هذه الأرض، مازال أقوام يعيشون اليوم، تماما كما عاش إنسان العصر الحجرى، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويمرضون ويتعاركون، فى بقعة محدودة منعزلة لم يغادروها، ولم يخرجوا منها، ولم يدخل إليها أحد أو يقترب نحوها، فى مناطق متفرقة من عالمنا: كحوض نهر الأمازون شمال أمريكا الجنوبية، وجُزر بالمحيط الهادى، ومواقع متناثرة شمال وغرب أستراليا ونيوزيلاندا.

«جان بيير روتيبسُّو» بلجيكى سينمائى، رحالة مستكشف، متخصص فى علم دراسة السلالات البشرية ، وخصائص وسمات كل منها وتطورها الحضارى. ساقته قدماه إلى مكان بعيد بعيد ، فى أقصى الجنوب الشرقى من قارة آسيا.. أو شمال أستراليا .. فى الجزء الشرقى من جزيرة غينيا الجديدة، أو بالتحديد فى منطقة

«بابوا»، وتسمى أيضا بابوازى، من تلك الجزيرة [1]. وهناك يشهد ويصور موقفا تاريخيا إنسانيا نادرا ما يتكرر:

مجموعة من الناس.. من سكان بقعة معزولة كلية عن العالم، يخاطر بالوصول إليهم ثم يحتال ـ بعزيمة وذكاء ومشقة وصبر طويل ـ لكى يقتربوا منه، ويروا بأعينهم لأول مرة إنسانا غريبا، حسبوه من كوكب آخر. إنهم يشهدون لأول مرة فى حياتهم وحياة آبائهم وأجدادهم كيف تشتعل النار من عود ثقاب (كبريت)، وسحْر المرآة التى تُظهر الوجوه، ويعرفون لأول مرة طعم الأرز، والسكر والملح والبسكويت، وملمس الملابس... فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٩٤ بعنوان: «الهندى الأبيض» يسجل هذه اللحظات المثيرة، لرحلة خاطفة عبر الزمن من العصر الحجرى إلى القرن الحادى والعشرين..... ولم تستغرق أكثر من ٣٦ساعة!.

السبت ٢٧ نوفمبر ١٩٩٣م.

بمجرد حصولى على تأشيرة دخول سياحية، ركبتُ السفينة المتجهة نحو ميناء «موريسبى» عاصمة إقليم بابوازى فى غينيا الجديدة. أخفيتُ آلات التصوير داخل معدات المعسكر. مهمتى المحددة: العثور على سكان من بابوا لم يروا إنسانا أبيض أبدا من قبل. بدا لى أن هذا الأمر مستحيلاً. لقد حدثنى البعض عن قبيلة «لياوِب»، ولكن بعد أن تحريت، تأكد لى أن بعثة عملية تقيم الآن فى قريتها.

أطلعنى صديق فرنسى مقيم فى بابوازى على قصاصة من صحيفة محلية، تذكر شيئا عن قبيلة مجهولة، علمت اسمها فيما بعد: «تولامْبى». فقد شاهد موظف الصحة من أهالى بابوا رجلين من تلك القبيلة فى منطقة جبلية شديدة العزلة بين إقليم «الخليج» وإقليم هايلاندز الشرقية فى قلب السلسلة الجبلية «أوين ستانلى».

---

(١) غينيا الجديدة: أكبر جزيرة فى العالم بعد جُرينْدلاند بالشمال ومساحتها ٧٧١٩٠٠كم بدون الجزر الصغيرة الساحلية، وموقعها شمال أستراليا. منطقة غابات استوائية غزيرة الأمطار قليلة السكان، وهم بدائيون، نصف الجزيرة الغربى تقريبا فى حوزة إندونيسيا وتسميه إيريان الغربية (مليون نسمة) والنصف الآخر تحت إدارة أستراليا، والجزء المسمى بابوا أو بابوازى يقع جنوب شرق الجزيرة، ويسكنه نحو ثلاثة أرباع المليون. والجزيرة عامة قليلة الاختراق، سكانها بالداخل(بعيدا عن السواحل) قبائل متناثرة منعزلة..

لكننى كثيرا ما حلقْت منذ عام ١٩٨٥ بالطائرة الهليكوبتر فوق السهول العليا لغينيا الجديدة، ولذا. . يداخلنى الشك فى وجود قبائل كاملة العزلة فى هذا الجزء من الجزيرة. وذكَرت قصاصة الصحيفة أن موظف الصحة الذى شاهد الرجلين طلب من المفتش المختص بالإشراف على المنطقة، ابتعاث دورية حكومية للبحث عن أفراد هذه القبيلة، لتطعيمهم وإحصاء عددهم. شعرت بحيرة.

٢٠ نوفمبر. . .

ركبتُ الطائرة إلى «جوروكا» التى منها جاء الخبر لأستطلع الحقيقة، وتركت فى «موريسبى» زميلاى: فيليب، وميشيل، اللذين كانا فى صحبتى بالفلبين، وانتهينا من تصوير شاق لقبيلة «أجْتا».

نزلت بفندق «عصفور الجنة»، وبدأت تحرياتى. فعلمت أن الحكومةالمحلية لم تفعل أى شىء لتنفيذ مطلب موظف الصحة، وذلك بسبب عجز الميزانية. ثم كانت المعجزة!. . «آللا» موظف الصحة الذى أشار إلى وجود «تولامبى» موجود حاليا فى «جوروكا». أفلح موظف بالفندق فى العثور عليه، وجمعنى به. أخبرنى أنه ممرض، وأن هؤلاء المنعزلين الرحل، لم تصل إليهم حتى الآن أية دورية حكومية، ولا بعثة تبشيرية، رغم أنهم موجودون فعلا بالمنطقة. وأبلغنى أيضا أن هذين الرجلين من قبيلة تولامبى، علم من لقائه بهما أنهما لم يشاهدا مطلقا أعواد الثقاب (الكبريت)، ولا السكين، ولا الأرز، وهى أول الأشياء المعهودة عند أهل الغرب، كما أنهما لم يشاهدا مطلقا إنسانا أبيض.

ترددت، وانتابنى القلق يوما كاملا. إذا كان فى الأمر خدعة. . فإن تكاليف هذه الرحلة الباهظة، التى لم يسهم فيها أى أحد، أو أية جهة، سوف ترهقنى كثيرا. ثم غلبنى الفضول وحبى للاستطلاع كالعادة. استدعيتُ رفيقاى إلى جوروكا، وعرضت على «آللا» أن يصحبنا؛ فوافق على الفور. اشترينا على عجل قطعة كبيرة من البلاستيك الأزرق، ومرتبة من الإسفنج الصناعى، وناموسيات، وبعض أوانى الطعام، ومائة كيلو جرام من الأرز، وكمية من البسكويت، والبن، وعددا من علب الكبريت والمرايا. . . لكنى فى حيرة وحذر.

فالاستعداد لهذه المهمة غير كاف، نظرا لطبيعتها وسريتها. ولكى نصل إلى الموقع الذى شوهد فيه الرجلان التولامبيان، لابد لنا من طائرة هليكوبتر، إذ لا يمكن عبور الأنهار التى تجرى عند حدود «أويا - أويا»، ومن عندها تبدأ رحلتنا.

استأجرت خدمة طائرة صغيرة من طيار أسترالى، أبلغنى أنه حاول منذ فترة قريبة أن يهبط فى هذا الموقع بطائرته المقلة لبعض الجيولوجيين، ولكنه اضطر إلى العودة من حيث أتى، نظرا لسوء الأحوال الجوية. وقال لى صراحة أنه لا يضمن لنا عودته لاسترجاعنا. وهذا يعنى أننا نغامر بأن نظل محصورين لبضعة شهور فى أشد مناطق العالم عزلة وخفاء.

٣٠ نوفمبر. . . . .

فى لحظة الاستعداد للإقلاع من جوروكا، كان لزاما علينا أن نستغنى عن نصف أحمالنا، تخفيفا عن الطائرة الهليكوبتر الصغيرة. بعد أربعين دقيقة من الطيران، هبطنا نحو المواقع الجبلية المغطاة بالغابات الكثيفة. تردد الطيار فى عبور الممرات التى تتخلل الجبال، خوفا من عدم وضوح الرؤية، بسبب السحب الكثيفة المحملة بمياه الأمطار.

لامسنا بالطائرة أطراف الأشجار، متنقلين من واد إلى آخر، لكى نهبط فى النهاية. . . فوق مساحة مكشوفة وحيدة، قَطع أشجارها أفراد قبيلة «أويا - أويا» الذين لم يروا فى حياتهم كلها طائرة هليكوبتر.

قابلنا رئيس القرية (اسمه واوى) التى تسكنها هذه القبيلة. وبمساعدة «آللا» شرح لنا كيف كان اتصاله بأفراد قبيلة أويا - أويا. قال واوى: «كان الأويا - أويا فى نزاع وحرب دائمة مع التولامبى. وكانت الحدود الفاصلة بيننا وبين أعدائنا القدامى تسمى «النهر الكبير». وذات يوم التقطْتُ غلاما كان يمشى وحده على شاطئ نهر. إنه تولامبى يتيم، ربما كان تائها أو مهملا، لم يهتم به أحد. اصطحبته إلى قريتنا وعلّمته لغتنا، وأطلقنا عليه اسم «جيون». بعدفترة، خرجت يوما مع جيون إلى حدود المنطقة التى تفصلنا عن تولامى، لكى أشرح لهم أننا يجب أن نعيش فى سلام. وبفضل جيون استطعت أن أنقل إليهم هذه الرغبة ويفهمونها جيدا. . فرجع معى إلى قريتنا اثنان من المحاربين عندهم،

فشاهدوا لأول مرة سكينًا، ومرآة، وبعض الأشياء التى أحضرناها من العالم الخارجى. فى نفس ذلك اليوم حضر إلينا الممرض «آللا»، لكى يعطينا بعض الأدوية. ثم أكد لنا شيخ القرية وجود خمسين على الأقل من التولامى على بعد ثلاثة أيام من السير. وهو الوحيد الذى يعرف الطريق المؤدية إلى هناك».

فى صباح اليوم التالى رحلنا إلى النهر الكبير. تضم قافلتنا عشرة أفراد، تتبعهم خمس نساء يحملن مواد الطعام، وفى القافلة آللا، واوى، جيون ميشيل، فيليب، وأنا. اخترقنا جحيما من جذور الغابات المتسلقة المتشابكة المتطاولة، وسيقان الأشجار المتساقطة، والأوحال المتراكمة العطنة، مع تواصل الأمطار الغزيرة. إنها تهطل بلا انقطاع اثنتا عشرة ساعة فى اليوم.

إن الغابة كثيفة بدرجة لا تصدَّق. والحشرات مصاصة الدماء تخترق قماش السروال السميك (الجينز)، وتتسلل إلى داخل الحذاء المسدود بمادة لاصقة. والسماء لا تُرى من داخل الغابة. أصيب ميشيل بجرح فى قدمه. وشج أحد الحمالين أصبع قدمه بضربة خاطئة من بلطة، فوجدا صعوبة متزايدة فى مواصلة المشى. وكلما عبرْنا قمة أو مرتفعا، سمعنا من بعيد صوت هدير النهر الكبير، ثم يتلاشى الصوت مع انحدارنا نحو السطح. وكلما انتقلنا من واد إلى آخر، خُيل إلينا أن الأمل الذى نسعى ونشقى من أجله يتباعد عنا شيئا فشيئا، وبلا توقف، إلى أن بلغنا آخر المدى فى التحمل والصبر. وأخيرا فى اليوم الرابع، لم يعد صوت النهر الهادر يخفت أو يختفى.. فقد وصلنا بالفعل إلى الحدود التى تفصل أويا - أويا عن تولامبى. من المستحيل متابعة السير بسبب الجرحى والمكدودين. قرر واوى أن يرحل مع جيون، بحثًا عن أفراد من التولامبى. كان مقتنعا بأن الاتصال بهم لا يجب أن يأتى جبرا.. بمعنى أننا لا نتصل بهؤلاء القوم، إلا إذا رغبوا هم فى ذلك. وطال الانتظار والفكر.

هل سيأتى إلينا التولامبى؟. قطعنا شجرة طويلة صنعنا من ساقها جسرا مؤقتا مرتَجَلا، يرتكز طرفاها على صخور الشاطئين. أثناء الليلة الأولى، جرف النهر الجسر الذى أقمناه؛ فمددنا جسرا آخر. ساءت حالة ميشيل، وخشيتُ أن تهدده الغرغرينا. وتعفَّن الجرح بسبب ميكروبات تطلق غازات تتلف الأنسجة.

أخرجنا من جرحه كميات كبيرة من الصديد والدم المتخثر. قررت أن نمهد مساحة مناسبة من الأرض تصلح لهبوط الهليكوبتر، ثم أُرسل إشارة استغاثة بجهاز اللاسلكى معى، محددا موقعنا بالتقريب، وموعد انتظار الطائرة، ولكن الجهاز تعطل.

الاثنين ٦ ديسمبر...

انطلق اثنان من الحمالين داخل أعماق الغابة يحملان رسالة الاستغاثة إلى مراواكا، فيصلان إليها مشيا بعد عدة أيام، فهناك أقرب راديو إلينا. ومن هناك يتم تبليغ شركة الهليكوبتر فى جوروكا. عند منتصف النهار فى كل يوم، نشعل نيرانا كثيفة، ونبسط بجوارها قطعة البلاستيك الكبيرة الزرقاء، لعل أحدا يرانا بوضوح من الجو. لكن للأسف، لم نر أبدا هليكوبتر، ولم يرجع إلينا الحمالان من ماراواكا. لم يعد لدينا تقريبا طعام، والسماء لا تكف عن دفع الأمطار، النفس ينتابها الضيق والاكتئاب الشديد. هل قامرتُ بنفسى وبمن معى فى هذه المغامرة؟، هل نحن ضحية ماكر خبيث من بابوا، يريد أن يبتز مالا؟.. وفجأة، إذا بنا نسمع صياحًا من الناحية الأخرى من النهر. إنه واوى، ومعه جيون يبشرنا بأنه نجح فى العثور على مجموعة من ستة وعشرين تولامبى، وأنه بعد نقاش ممل طويل، وافق سكان الغابة الرُّحل على مقابلتنا، وها هم ليسوا ببعيد.

فى داخل المعسكر حيث نقيم، بدأ الاستعداد للمعركة!. أمرتُ كل الحمالين أن يختفوا تماما، حتى لا يُخيفوا التولامبى، وأنا أعلم أنهم سرعان ما ينفرون بشدة ويغضبون. تحامل ميشيل على نفسه، واستعد بدوره لأداء واجبه إذا تطلب الأمر، من بعيد. لم يبق إلا فيليب. قَبع على بعد نحو عشرين مترا، مختفيا داخل عريش أخضر من فروع الأشجار، لا يظهر منه إلا عدسة الكاميرا، فلا يلحظها أحد. ووقفت أنا عند حافة الجسر المصطنع. من خلال المنظار المكبر، أخذت أبحث بدقة عن أية حركة تستبين من ثنايا النبات والأشجار على الشاطئ المقابل من النهر. مر الوقت متثاقلا بطيئا. نظرتُ إلى ساعة يدى عندما لمحت أول اهتزاز يتحرك بين أوراق الشجر. إنها الواحدة ظهرا وثمان وأربعون دقيقة بالضبط.

اقتربَتْ مجموعة صغيرة من أفراد القبيلة تنحدر فى حذر نحو النهر. رأونى واقفا. تقدم ثلاثة محاربين وهم يطلقون صيحات. إنهم عراة، إلا من شرائط تتدلى حول أسفل البطن، مصنوعة من القش، أو لحاء الشجر، يزين الرأس ريش طويل من طائر عصفور الجنة، وعظْمة من طائر النعام الأسترالى (نوع من النعام يسكن الغابات) تنفذ من الأنف، وشيء يشبه الوشاح أو العقد الطويل يتدلى على الصدر، مصنوع من قواقع النهر (من المرجح أنه علامة على الانتصار وهزيمة القبائل المعادية) وسلاحهم القوس والرماح.

لوَّح أحدهم عاليا بفأس من الحجر (لم نبالغ إذن عندما قلنا نحن فى المقدمة إن العصر الحجرى يعيش بيننا!..)، فتوقفوا جميعا عند منتصف الجسر. رجعوا، ثم عادوا وأقبلوا مشْرعين الرماح فى اتجاهى. يا للهول!. الخوف يتملكنى لقد أخبرنى (واوى) من قبل أن التولامبى لا يعتقدون أن الرجل الأبيض له وجود، فإن وجد، فهو يقينا قادم من مملكة الأموات. إن خوفى يتحول إلى رعب. وقد راودتنى فكرة أنهم ربما قذفونى برماحهم، ليروا هل ستخرق جسمى أم لا، لمجرد المعرفة!. ولماذا لا يكونون مكتشفين مثلى؟!. إن حركتى بطيئة، متثاقلة. لقد توقف الزمن. وفى داخلى يغمرنى شعور بأننى الآن كريستوف كولومبوس و«ا ـ ت» (E . T. القادم من عالم آخر فى الفيلم الأمريكى الشهير) معا!.

هأنذا أمد نحوهم ذراعاى منبسطيْن، وكفاى نحو السماء، وتلك علامة السلام.. فإذا بالذى يبدو أنه رئيس الجماعة ـ علمت فيما بعد أن اسمه أُنجيو ـ يتقدم نحوى. أشار الرجل ذو البلطة الحجرية إلى النسوة المصاحبات للمجموعة أن يبتعدْن إلى الشاطئ الآخر من النهر. علمت بعد ذلك أن اسم هذا البلطجى (أى حامل البلطة!) سانجوجا. ثم عاد يقترب منى، فلمح فيليب الذى تسلل ليكون غير بعيد عنى لحمايتى إذا لزم الامر، وفى يده آلة التصوير، يلتقط مناظر الحدث التاريخى، فلا تضيع فرصة.. فوقف صاحب البلطة متأملا فيليب فى دهشة، وربما ظنه حيوانا ذا عين براقة واسعة (عدسة الكاميرا!). ثم أخذ يقترب أكثر وأكثر. مد إليه فيليب يده. وقف سانجوجا مترددا، ثم مد يده.

تلامست الأصابع أخيرا. وفجأة يستدير سانجوجا ويتراجع مهتزا، كأنما أصابه مس كهربائى!. ابتعد يرقب فيليب بحذر. ثم يعود. يتلامسان مرة أخرى، ثم قفزة ثانية متباعدة كالمصعوق. الآن، وقد أصبحتُ وحدى منفصلا عن زملائى، استدرت جاعلا ظهرى إلى النهر، فإذا بى فى مواجهة آنجيو كبيرهم، ومعه شخص آخر تولامبى (اسمه آند يوتو) يبدو عليهما الحذر الشديد.

إننى أتوقع الخطر فى كل لحظة. والخطر هنا هو عين الهلاك. لكننى ابتسمت وأنا أُظهر لهما علبة كبريت. ببطء شديد فتحت العلبة، وأخرجت عودا، ثم حككته؛ فاشتعل. قرَّب آنجيوأصابعه من نار الثقاب، فلسعتْه. صرخ وأسرع نحو النهر يغسل يده ويهدئ من آلام الالتهاب. أحسست أن نبضات قلبى تتزايد. إن التولامبى يعرفون أن النار تشتعل بالاحتكاك المتواصل الشديد، فلم يدرك آنجيو أن هذا اللهب اشتعل بمجرد حكة واحدة من طرف عود رفيع صغير. عاد نحوى. وبعد اهتزازات بسيطة بجسمه، كأنها رقصة كهنوتية، تناول من يدى علبة الثقاب، فأخرج عودا وضعه فى فمه. حاول أن يلوكه، لكنه بصقه فى الحال. إنه غريب عن مذاق ما تعوده من مأكولات. احتفظ بالعلبة، وفى المقابل.. أعطانى قوقعة. وهكذا تم الاتصال، وسقط حاجز الحذر والخوف. بعد عشرين سنة من الاكتشافات والمغامرات والتجوال العلمى داخل الغابات كان هذا بالتأكيد أكثر المواقف عندى إثارة، وأشدها شعورا بالغبطة والانفعال العميق. تشابكتْ أيدينا، علامة على السلام والتكاشف. وقد استغرق «حفل» التقارب أو التعارف هذا نحو ساعتين.

مال المحاربان الآخران نحوى يَدْعكان ذراعى، ليعرفا: هل لون جلدى مصطنع؛ فيزول باحتكاك أيديهما؟، ثم أخذا يجسان ويتحسسان، ليتأكدا أننى من لحم وعظم مثلهما. أمسكا شعر رأسى، وتشمما رائحة إبطى. أدهشتنى رقة حركاتهما. صاح آنجيو بتعليقات، لكى يُسمعها النساء والأطفال وهم يرقبون المشهد من الشاطئ الآخر، فى مزيج من مشاعر الخوف والإثارة. قدمتُ بعض الملح إلى سانجوجا. فلما تذوقه ضرب بقبضة يده على مؤخرة رأسه. إنها

علامة على السرور الشديد عند التولامبى. ثم اصطحبتُ تلك المجموعة الصغيرة إلى معسكر إقامتنا على بعد نحو مائة متر داخل الغابة. جلسوا يرقبوننا بكل الدهشة والاستغراق. لقد اختفى الخوف والحذر. وبدأت سلسلة من التعجبات: فهذا سكين، وحبات من الأرز يطحنونها بأسنانهم، ويتذوقونها لأول مرة، وجهاز تسجيل يعيد سماع أصواتهم. ثم قدمت إليهم مرآة صغيرة. لم ير هؤلاء المحاربون فى حياتهم من قبل شيئا كهذه. أمسكها آنجيو فاكتشف صورته بها. تراجع قليلا. غطى سطح المرآة بورقة شجر كبيرة. نظر إلى ظهرها، ربما ليتأكد أنها خالية من روح متوارية بها. رفع ورقة الشجرة ثم«بحلق» فى صورته المنعكسة بالمرآة، تحسس ـ وهو ينظر متعجبا ـ ريش الطائر فى رأسه، والعظْمة البارزة من أنفه، والأصداف المتدلية على صدره. لم يعرف أن الوجه المطل من المرآة هو ذات وجهه.

يحزننى أن هذا اللقاء لم يدم أكثر من ست وثلاثين ساعة، صمموا بعدها على الانصراف. حاولت بكل جهدى فى تلك الفترة أن أصورهم فوتوغرافيا وتليفزيونيا، وأن أتعرف على بعض طباعهم وسلوكهم، ولغتهم. أعطيناهم كمية من الكينين تكفى لستة أشهر، لوقايتهم أو علاجهم من الملاريا. وعَدنى «آللا» أن يعود قريبا إليهم، ليطمئن على حالتهم الصحية وتطعيمهم. وفى حالة تشبه الهَوس جمعت كل ما أستطيع من معلومات. تولى الصغير جيون ترجمة الأحاديث والحوار مع آنجيو، ثم حولها آللا إلى إنجليزية ركيكة مبهمة، لكنها حافلة بكلمات بسيطة، رقيقة، نبيلة، أثارت مشاعرنا من الأعماق، ومنها:

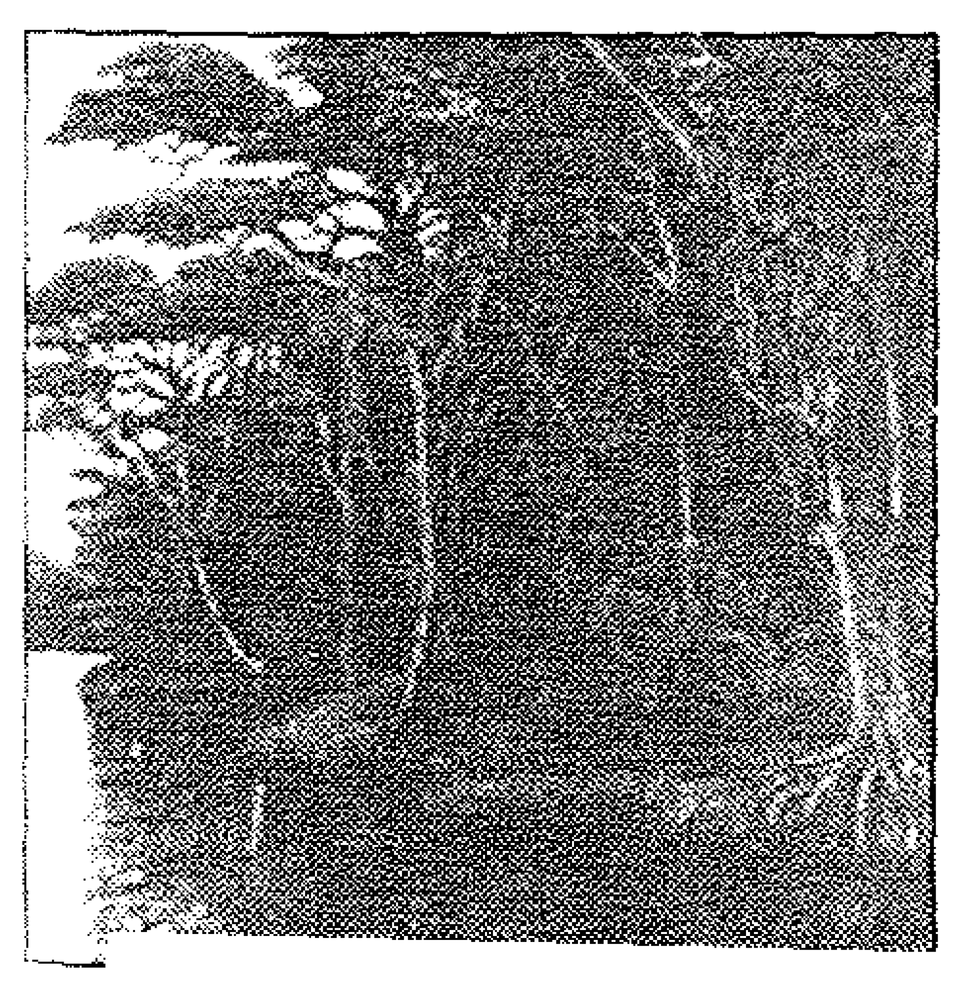
«نحن قوم فى عزلة بعيدة. ليس لنا أى اتصال خارج عالمنا. أول غريب قابلناه هو واوى. جئنا لكى نعالَج. إننا نؤمن بالسحرة، لكن علاجهم لا ينجح فى كل الأحوال. إننا نموت تقريبا جميعا بسبب الملاريا. لا نملك القوة الكافية لكى نمشى إلى ما وراء الجبال العالية، والأنهار الكبيرة. دعانا واوى إلى المعيشة مع قبيلة أويا ـ أويا، لكننى رفضْت حتى لا نترك نهرنا الملىء

بالأسماك، وكذلك رفض قومى. إننى إنسان. كنت وحيدا فى بطن أمى. لست كالخنازير التى تلد من بطنها الكثير فى كل مرة. أخبرنى جدى أن الإنسان الأبيض لا وجود له.

الآن أعرف أنه موجود. انتهى كلامى. أريد العودة إلى غابتى. هذه نهاية الحكاية.....».

عبر التولامبى الجسر، ثم سرعان ما اختفوا فى الغابة بعد نحو عشرين دقيقة. جرف تيار النهر المندفع هذا الجسر الذى أقمناه بسرعة وبلا إحكام، لكى يعبروا إلينا ويلتقوا بنا. لم يبق فى المكان أى أثر للعبور، كأننى عشت حلما مذهلا. وما زلت أجد صعوبة فى تصديقه. ومع ذلك، فكل ما تبقى يؤكد لى أنه كان لقاء فريدا رائعا. كان اللقاء الأول فى نوعه، وربما كان الأخير على هذا النحو فى بابوازى، وإن كان البعض يؤكد أن الأيام ستثبت العكس.







دجاجلة، أم جهابذة؟

نتردد كثيرا أن نقول عنه دجال أو محتال.. بل لا يليق هذا بأى حال.. ونتردد أكثر وأكثر أن نصدق كل ما يقول، وإن كان من الخير لنا أن نسمع جيدا كل ما يقول، ونتفحص جيدا كل ما يكتب..

فهو أستاذ طبيب. وهل فى ذلك شيء عجيب؟.. وإنه عضو فى أكاديمية العلوم الروسية. آه.. يستحق إذن مرتبة فى التقدير. وقضى أكثر من ثلاثين عاما فى البحث والدراسة العملية والمعملية، وضعته فى منصب مدير معهد التدريب الطبى المختبرى فى «نوفو سيبيرسك» بسيبيريا. أحقا؟.. حينئذ فهو لا يهذى شذرا ولا ينطق هدرا، أو كما قال حكماء العرب: لا يَهْرف بما لايعرف..!. وهو عضو بارز له صوت مسموع فى المؤتمرات الدولية «المغلقة» أو محدودة العدد، القاصرة على المتخصصين فقط فى «علم» جديد، هو حقا مثير..!. وماذا يا ترى هذا «العلم» الجديد المثير؟.. قوى الإنسان غير المحسوسة، ذات القدرات الخارقة للمألوف والمعروف.

إذن.. هنا، لابد من وقفة..

اسمه: دكتور (بروفيسور) فليل كازْناتشيف. ورغم أن مجال بحوثه ودراساته الأكاديمية العملية ـ والتى تضم نخبة من كبار المفكرين والعلماء الروس ـ كانت فى توصيف الدعاية السوفيتية المعلنة قبل انهيارها وزوالها، هى نوع من الترف البورجوازى الرأسمالى الفاسد، إلا أن هذه النخبة من العلماء كانت ـ بموافقة الدولة ـ تمارس عملها وتشترك فى المؤتمرات الدولية فى أمريكا وفرنسا وألمانيا (الغربية آنذاك) وتعرض اكتشافاتها المدهشة. ويسعى الآن علماء هذه الدول

المتخصصون فى هذا المجال إلى أن يقنعوا رؤساء الدول ـ خاصة تلك التى تدعى لنفسها «ضبط» مسار العالم ـ أن يتفقوا على وضع نظام دولى للسيطرة على إنجازات اكتشافات هذا «العلم» الجديد. (وفى نفس الوقت رفع الحظر أو السرية عن المعلومات التى يستأثر بها علماء هذه الدول، نتيجة بحوثهم واكتشافاتهم، فتكون متبادلة بين زملائهم فى الدول الأخرى)، والسبب فى ضرورة وضع هذا النظام الدولى المسيطر هو، كما يقول د. كازناتشيف المتزعم لهذا المطلب: أن نتائج هذا العلم يمكن أن تستغلها استغلالا سيئا مدمرا بعض الدول، أو المنظمات، أو عصابات الإجرام، كما أنها بالتأكيد سوف تسهم ـ على نحو مهلك ـ فى الحروب القادمة. ولن تنتهى الحروب، طالما وجد ظالم ومظلوم، غالب ومغلوب، طامع ومطمع.

وكيف كان ذلك.....؟.

بداية، تلعب البيئة دورها فى حياة الناس، وتفكيرهم، وبناء شخصياتهم، وتشكيل أعمالهم، وإنجازاتهم (مع عوامل أخرى بالضرورة). إن كازناتشيف من أبناء سيبيريا. ومعروف أن لسيبيريا ظروفها البيئية، وطابعها الخاص المميز، من حيث الموقع، والطقس، والاتساع، والمستوى الاقتصادى المنخفض للسكان (رغم ثرواتها الطبيعية الهائلة)، وبعدها عن الحكومة المركزية فى العاصمة (موسكو)، وكثرة معسكرات الاعتقال والتعذيب بها، باعتبارها منفى، التى تضم آلاف المفكرين والمعارضين والمغضوب عليهم من السلطة الحاكمة. وسيبيريا بعيدة عن مركز أكاديمية العلوم بالعاصمة. واهتمام هذه الأكاديمية ـ فى الجانب الطبى ـ ينحصر معظمه فى علاج الأمراض الشائعة فى «الاتحاد السوفيتى». وهذا أمر مطلوب مشكور لابد منه. لكن سيبيريا، التى يسكنها نحو أربعين مليونا، تواجه «أمراضها» الخاصة المزمنة، التى جعلتها سنوات الثورة الحمراء مستعصية.. فإلى جانب قسوة المناخ، توجد مشكلة التغيرات السكانية (النقل الجماعى الإجبارى للإقامة فى مناطق معينة). ومعسكرات الاعتقال فيها حركة دائمة وعدم استقرار: وافدون ومرتحلون، فلا هم يستقرون ليتكيفوا مع البيئة الجديدة ـ جسمانيا وعصبيا ـ ولا هم يُفحصون طبيا عند

مقدمهم، لمعرفة مدى استعدادهم الطبيعى لتقبل هذه البيئة. فإذا لم تكن لأجسامهم هذه القابلية، أصيبوا بأمراض وأعطاب لا تُعرف فى مناطق أخرى من روسيا. . والسلطة لا يهمها علاجهم أو شفاؤهم، فموتهم عندها أفضل. .

فرضت الظروف البيئية إذن إقامة نظام محلى أو مركز إقليمى خاص بأمراض سيبيريا، وعلاج مشكلات ساكنى سيبيريا. وهذا يستدعى تكوين فريق من العلماء الأكفاء والباحثين الجادين من أبناء سيبيريا، لدراسة تلك الظروف والمشكلات من عدة جوانب: تاريخية، وبيئية، واجتماعية، وطبية. . . ومحاولة معالجتها. وكان فى مقدمة الذين فكروا فى ذلك، وكانت لديهم «الجرأة» على السعى لتحقيقه وتنفيذه: فليل كازناتشيف.

ولماذا كان ذلك. . ؟.

إنه من أبناء سيبيريا، أبا عن جد. من مدينة «تومسك»، ومن أسرة متعلمة معلمة: فآباؤه من رجال الجامعة. ومن ناحية الأم، فهو منحدر من تلك الشعوب التى نفاها القيصر ألكسندر الأول من أواسط وجنوب روسيا إلى مناطق الحدود الشمالية النائية. فى عام ١٩٣٣ انتقلت أسرته للإقامة فى مدينة «نوفو سيبيرسك»، حيث كان من أوائل الملتحقين بمعهد الموسيقى (الكونسرفتوار) وتخصص فى الغناء الأوبرالى من طبقة «صادح» تينور. فلما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية، تطوع للخدمة العسكرية بين الفرق الحربية السيبيرية. فى عام ٤١ ـ ١٩٤٢ اشترك فى معركة ستالينجراد الضارية المشهورة، وأصيب فيها بجرح خطير فى جذعه. وبعد فترة علاج بالمستشفى، خرج ليواصل الخدمة بالجيش كمدفعجى، حتى عام ١٩٤٥. وفى ذاك العام، وكان قرب العاصمة النمساوية فيينا، أصيب فى القتال، ونقل، ثم شُفى وعُوفى، لكنه لم يستطع مواصلة الغناء الأوبرالى. ماذا يصنع؟. لقد ذاق آلام الجراح، وتجرع مرارة العجز، وسكن بيت الأمراض، وعاش شهورا طويلة بين المصابين والمعذبين والقتلى. . فاختار أن يصبح طبيبا. . التحق بكلية الطب فى مدينة نوفوسيبيرسك، وقبل أن ينتهى من دراسته الطبية، أدرك، بل وسيطرت عليه فكرة، أن العلاج والشفاء هما مجرد ظاهرة وقتية، أو مؤقتة، وأنه من الأهمية البالغة أن نفهم كيف نغير تماما أسلوبنا فى الحياة وفى المعيشة.

تدرج فى المناصب حتى أصبح أستاذا للعلاج الطبى بالكلية، وفى نفس الوقت طبيبا معالجا، وعميدا للمعهد الطبى فى نوفوسيبيرسك، وأنشأ أكاديمية الطب السيبيرية، وظل رئيسها لعشر سنوات. وفى منهجه الذى التزم به: أن الوقاية أولى بالاهتمام من العلاج. ودفعه هذا المنهج إلى الاشتغال كثيرا، بشئون البيئة، وبالطب التقليدى (المتوارث غير الأكاديمى)، وبالثقافة. وانتقل من الاهتمام بالأمور الطبية إلى الوقاية السكانية الجماعية. ومن هنا نشأت فكرة إقامة معهد التدريب الطبى المختبرى، وهو فى واقع الأمر معهد لدراسة الإنسان بشكل عام، وبالإنسان الواقع تحت أى ضغط (أو ضغوط نفسية) بشكل خاص. فى المعهد مائتا سرير فقط. فى المنهج البحثى، يتوجه الاهتمام نحو الجانب النفسى أولا، وما وراء علم النفس (كالتخاطر مثلا، أى اتصال فكر بفكر عن بعد)[١]، والإدراك فوق الحسى[٢]، والأحياء (بيولوجى). وضعوا أيضا فى منهج الدراسة والبحث، الطب التقليدى الذى تتوارثه المجتمعات أو الشعوب المنغلقة على نفسها، كما فى منغوليا والتبت. وأضيف إلى المعهد مركز اتصال علمى، تتجمع فيه كل نتائج البحوث والدراسات العلمية التى تهتم بهذه الجوانب والفروع المختلفة من مصادر أخرى. إنه معهد فريد فى منهجه وأبحاثه فى روسيا (الاتحاد السوفيتى سابقا).

اهتم المعهد مثلا بأعمال العالم الروسى ألكسندر تشيجيفسكى. تدور تلك الأعمال حول إيقاعات وتأثيرات النشاط الشمسى على صحة وفيزياء الجسم البشرى: فقد بَيَّنَ هذا الرجل أن النشاط الشمسى الزائد يولد ايقاعات عنيفة أو ثورية فى خلايا بعض الأجهزة (ورغم صواب نظرته تلك، فقد أُدخل السجن بسببها).. وقد أثبتت أبحاث تلك المعهد أن النشاط الفيزيائى للجسم، حتى فى الظروف المناخية من مناطق سيبيريا، يتبع بدقة النشاط الشمسى، وكلما زاد اقتراب الإنسان من مناطق الشمال، زاد اعتماد الجسم على هذا النشاط الشمسى واشتد تأثره به. وتوصلوا إلى توضيح العلاقة الوثيقة بين ذروة النشاط الشمسى والأمراض البشرية (دورة النشاط الشمسى تبلغ ذروتها كل ١١ سنة فى المتوسط

---

(١) Parasychologie

(٢) Extrasensoriel

وتظهر علامتها بكثافة البقع الشمسية الداكنة التى يراها الفلكيون على سطح الشمس). واكتشفوا أن الأشخاص الذين يولدون مع ذروة النشاط الشمسى يكونون فى أفضل أحوالهم الصحية والجسمانية مع كل ذروة لنشاط الشمس. وبالعكس: أولئك الذين يولدون مع أضعف وقت للنشاط الشمسى يستمرون بعد ذلك فى أحسن حالاتهم مع كل وقت يبلغ فيه ضَعف النشاط الشمسى غايته. طبقوا هذه النتيجة على آلاف الأشخاص، فوجدوا أنها لم تتغير.

ما فائدة ذلك عمليا؟. انتهوا إلى وضع نظام لاختيار الأشخاص «المناسبين» أو الذين أجسامهم أكثر قابلية للعمل فى فترة الليل القطبى الطويلة (تمتد لبضعة شهور متواصلة) وأولئك الذين يصلحون جسمانيا وبيولوجيا للعمل على نحو افضل فى النهار القطبى الطويل (أيضا يمتد لبضعة شهور). واستعار العلماء الكنديون من هذا المعهد نتائج تلك البحوث والاختيارات ليجعلوها أساسا لمزيد من البحوث لديهم تنفعهم فى إعمار واستثمار مناطق الشمال القطبية الباردة عندهم.

يقول د. كازناتشيف: «إن هذه المناطق الشمالية ـ سواء فى روسيا، أم أوروبا أو كندا ـ مناطق قليلة السكان جدا، والمعيشة فيها صحية جدا، وتساعد على إطالة العمر. وإذا كان القرن الحادى والعشرون سيواجه مشكلة تضخم سكانى سيصل إلى عشرة أو اثنا عشر مليارا من البشر، فإن أحد حلول هذه المشكلة ببساطة هو: تهجير ملايين وملايين (ممن تصلح أجسامهم للتكيف مع ظروف تلك البيئة) وإقامتهم هناك فى الشمال، وهى مناطق غنية بثرواتها الطبيعية الوفيرة من كل شىء (حتى البترول والذهب والماس وكل المعادن). وهذا حل عملى أفضل من ذلك الذى يقترحه عالم الفلك الفيزيائى الأمريكى «برايان أولبرى» من إقامة مستعمرات بشرية فى الفضاء الخارجى للأرض، ويتخيل معيشة عدة ملايين فوق محطات فضائية صناعية.. وأنا لا أوافق مطلقا على تلك الخرافة أو الوهم، وبين أيدينا على الأرض، مساحات شاسعة، فيها الماء، والأوكسجين، والحياة النباتية والحيوانية. ورغم ظروفها المناخية، فهى تتيح إطارا معيشيا رائعا، ومن يسكنها ينعم بحياة هادئة جيدة، وعمرا أطول»..

ولكن، هل يتاح ذلك يا دكتور كازناتشيف لسكان المناطق الحارة، مثل الأفارقة والهنود؟ . . يجيب:

ـ بالتأكيد. لو أن الأفارقة والهنود عاشوا فى تلك المناطق، فسوف يرون أن متوسط أعمارهم زاد عشر سنوات أو أكثر. يجب أن يعرف الناس جميعا أن هذه المناطق الشمالية هى الأفضل على الإطلاق للمعيشة الصحية المريحة والنشيطة والممتدة. إن مجرد الإقامة بها لمدة سنتين أو ثلاث متصلة، يحقق كل هذه النتائج، ولقد درسنا ـ عمليا ـ أسلوب (ميكانيزم) التكيف مع الظروف البيئية بتلك المناطق، ووجدنا أنها تناسب أجسام بعض الناس ولا تناسب بعضا آخر. والسبب: علاقة مباشرة بين نظام الجهاز العصبى فى الجسم وبين الجينات (الورِثْات).

«ودرسنا أيضا حالتين أو نمطين بشريين: «الجمَّازون»[1] أولئك الذين يتحملون المعيشة تحت ضغط ظروف قاسية، ولكن لفترة محدودة. والنمط الثانى: «العداؤون إلى الأعماق» أولئك الذين يتحملون لفترة طويلة ممتدة الضغوط المتوسطة. وبتركيز الدراسة البحثية على سكان المناطق الشمالية وجدنا أنهم جميعا من النمط الثانى. وأما أولئك القادمين (الغرباء) للعمل بمناطق الشمال، فأكثرهم «عدّاؤون إلى الأعماق»، وقليل منهم «جمازون» لا يستطيعون المعيشة بها أكثر من ثلاث سنوات». .

اكتشفوا أيضا أن الأمراض التى تصيب هؤلاء، تختلف عادة عن تلك التى تصيب الآخرين. وبالتالى، فالنمط الأول يحتاج فى الوقاية إلى أساليب تختلف عن احتياجات النمط الثانى. وقد لقيت نتائجهم البحثية قبولا فى كل المناطق الشمالية فى الدول الإسكندنافية وكندا وألاسكا.

ثم . . اكتشاف آخر مثير، وطريف. .

هل الخلية الحية. . تُبصر؟ . . نعم. . ليس بالضرورة إبصارا برؤية، مثل العين ومركز الإبصار بالمخ. ولكنها رؤية من نوع ما، أو إبصار أكيد بطريقة

---

(١) الجَمْز (بفتح الجيم وسكون الميم) لغة: الجرى بسرعة كبيرة لفترة قصيرة.

مازالت لغزا مجهولا.. ثبت هذا من آلاف التجارب؛ وكلها انتهت إلى نفس النتيجة: الخلية الحية لها رؤية بصرية، وهذه الرؤية لها تأثيرها المناظر (أى تأثيرها وتأثرها مع الخلايا الحية الأخرى، وليس فى حالة عزلها منفردة).. وخرجوا من ذلك بافتراض علمى تدعمه حقائق ملموسة، وهو: خارج الخلايا الحية توجد «حياة كونية»، حياة فى «مجال» أو «حقل»، كما أطلقوا عليه هذا المصطلح.

بدأت الاختبارات على الخلايا الحية عام ١٩٦٥ فى أوانٍ (برطمانات)، ثم تتابعت آلاف المرات، وأثبتت ظاهرة جوهرية، وهى الاتّصال والعمل (أو الفعل الإيجابى) من بُعد. إنها تفتح آفاقا جديدة تماما لفهم تبادل المعلومات، وعليها ترتكز علميا الأعمال والبحوث المتعلقة بالتأثيرات اللاحسية (ما وراء الحواس) من مسافات بعيدة.

التجربة فى الأساس بسيطة للغاية: فى وعاءين زجاجيين متماثلين تماما متجاورين، مغلقين بإحكام، وضعوا مزرعة خلايا متطابقة فى كلا الوعائين. وليس بينهما أى اتصال أحيائى (بيولوجى) أو كيميائى أو فيزيائى، وإنما اتصال «بصرى» فقط: أى يرى كل منهما الآخر، ثم أدخلوا فى الوعاء الأول عامل مرضى، أى فيروس من نوع معين، فماتت الخلايا فى هذا الوعاء بعد مرضها. ولكن، وهذا هو العجيب المدهش، أصيبت الخلايا ـ المتطابقة مع خلايا الوعاء الأول، والتى لم يلامسها أى شىء أو فيروس ـ أصيبت بنفس أعراض المرض، ثم ماتت، علما بأن الخلايا فى الوعاء الثانى كانت معزولة بالداخل، والوعاء من الكوارتز. وكرروا التجربة مع ثلاثة أوعية وأربعة، وعشرة بنفس الأسلوب، وكلها منعزلة بعضها عن بعض. وفى كل مرة تموت الخلايا بالتتابع، متأثرة بمرض وموت خلايا الوعاء الأول.

ثم صنعوا جهازا خاصا يضم خمسين بالونا بكل منها مزرعة خلايا حية، وأعادوا التجربة، فانتقلت آثار العدوى إلى كل من البالونات المعزولة المتباعدة؛ وماتت بالتتابع بعد ظهور أعراض نفس المرض عليها جميعها. لابد إذن من وجود «اتصال» ما، كما لو كانت تنظر بعضها إلى بعض. ويمكن تكرار ذلك

إلى ما لا نهاية. ولا يفسر ذلك إلا وجود حقل أو مجال أحيائى (بيولوجى) حول الخلايا..

الأغرب من ذلك.....

جربوا تأثير الإشعاع النشط، وعلى نفس النمط: فتأثرت مزرعة الخلايا الحية فى الوعاء الأول بأعراض مرض الإشعاع، ثم ماتت. وتبعتها خلايا الوعاء الثانى ـ المعزولة والبعيدة عن الأول، والتى لم تتعرض للإشعاع ـ ثم خلايا الوعاء الثالث، وهكذا.. ولما صوروا جميع هذه الخلايا الميتة، لم يُظهر المجهر الالكترونى أى فرق فى صور خلايا الوعاء الذى تعرض للإشعاع، وصور خلايا الأوعية الأخرى التى ماتت بالتبعية.

فى الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٥ استخدموا فى آلاف التجارب أنواعا مختلفة من السموم، والإشعاعات القاتلة، والفيروسات (فى نحو ٢٠ ألف تجربة)، ودائما نفس النتيجة!.

ولكن... من أين جاءت الفكرة؟ هل هو إلهام؟ خاطر عابر؟ موقف عارض؟.. لا هذا ولا ذاك.. وإنما ـ وهذا مدهش ـ نتيجة «أزمة» أو «مشكلة» افتعلها بعض «المهمين» فى مراكز السلطة.. وكما قيل قديما: (رب ضارة نافعة..). يقول كازناتشيف موضحا:

«كنت أبحث ـ كطبيب ـ تأثير المياه المشعة فى منطقة «التاى» جنوب سيبيريا وفيها يكثر علاج الناس. وهى مياه بها غاز مشع بكمية ضئيلة جدا من التركيز الإشعاعى.. وكان من رأينا أن هذه المياه لها تأثير مفيد فى بعض الحالات المَرَضية، بينما بعض كبار الموظفين بوزارة الصحة يؤكدون أنه ليس لها أى أثر علاجى نافع لإن طاقة الإشعاع ضعيفة للغاية. وفى الواقع، كان هؤلاء يبغون إغلاق مركزنا العلاجى، فضمائر البعض لا تسلم من الحقد. ارتكز تفكيرنا على أن تلك المياه المشعة يمكن أن تعمل وتؤثر وفق أشعة «جورفتش». فقد اكتشف هذا العالم أن الخلية الحية عند الانقسام الوراثى تبُث إشعاعا فوق بنفسجى. وهذا الإشعاع عندما يطرق خلية حية أخرى، فإنه يساعدها على

الانقسام. ولذا سميت هذه الأشعة: «أشعة الانقسام الورثى»[1]. استخدمنا إذن هذا الماء المشع وراقبنا تأثيره على انقسام الخلايا الحية، وهذا ما أدى بنا إلى إجراء سلسلة التجارب على أوعية مزارع الخلايا وتأثيرها المباشر على بعضها البعض رغم بعد المسافة فيما بينها وعزلها إلا من حيث الرؤية. كانت المفاجأة المدهشة فى استخدامنا للمياه المشعة، أننا لاحظنا أن عددا كبيرا من الخلايا المجاورة لتلك التى تأثرت بالماء المشع، حدث بها الانقسام بدون اتصالها بالماء المشع.

«وخرجنا بهذه النتيجة المهمة الجديدة: إن الإعلام - أو تبادل المعلومات - داخل الأجسام الحية يتْبع نظاما أو منهجا يختلف تماما عن نظام الإعلام وتبادل المعلومات فى الأجهزة غير الحية (كما فى أنظمة الاتصال المألوفة).. ولما كنا نذكر عن العالم لافوازييه، وتجاربه على المادة الحية، أن بعض العناصر يمكن أن تتحول إلى عناصر أخرى، فقد درسنا بدقة تلك العمليات التحويلية فى المادة الحية. ولم نبدأ بالبحث فى قابلية التحول من مستوى عنصر آخر، (كما حاول ذلك علماء فرنسيون) ولكن تركزت بحوثنا على النظائر المشعة الثابتة أو المستقرة، مثل الكربون ١٢، والكربون ١٣، والكبريت. وتبين لنا أنه فى مسار الحياة، أن جزيْئَات الكبريت الثقيلة، وكذلك الكربون، تتناقص فى الأنسجة (عند المصابين بأمراض مزمنة وبأمراض الشيخوخة).

لم نستطع، بما لدينا من معرفة وأساليب كيمياحيوية وجينيتية أن نحتجز الكربون ١٢ و١٣ فى جسم الإنسان: كان لابد من إيجاد مجال أو حقل. لذا فكرنا وقدرنا أنه يرجِّح وجود اندماج بيولوجى حرارى نووى بارد، وهذه العملية هى أساس تحول العناصر. لم نتوقف داخل نطاق البحث المختبرى وحسب، وإنما تجاوزنا ذلك إلى آفاق أخرى، انطلاقا من يقيننا بأن هذا الاندماج الحرارى النووى البارد ذاته يشكل جوهر أو أساس حياة الحقول (أو المجالات). وعندما وضعنا خلايا حية داخل غرف (هى أجهزة) معزولة مغناطيسيا، بدأ التكوين البنائى لتلك الحقول فى الاختفاء، ثم ماتت البروتينات فى الخلايا..»

إن الأستاذ د. كازناتشيف هو الذى ابتكر غرف (أجهزة) العزل المغناطيسى.

---

(١) rayons mitogénétiques - وهو اصطلاح مركب مشتق أوله من mitose بمعنى: انقسام.

ومن خلال هذا الابتكار الذى يكاد يحجب تماما (أو تقريبا) تأثير الحقل المغناطيسى للأرض نسأل: هل لذلك من فائدة؟ . . . .

يقول:

«ابتكرنا تلك الغرف لإجراء تجارب نستطيع من خلالها فصل هذين الشكلين أو هاتين الصيغتين للحياة. وقد ثبت لدينا بلا أدنى شك، أننا إذا وضعنا خلايا حية فى واحدة من تلك الغرف المعزولة عن مغناطيسية الأرض، فإن الجيل الرابع والخامس أو السادس من تلك الخلايا تختفى منه خصائص المغناطيسية الأرضية تلقائيا، وإن كانت تلك الأجيال بعيدة عن تلك الغرف.

«تلك الظواهر المتعلقة بالتأثير عن بعد تدعم وتوضح نظرية الإدراك فوق الحسى. إنها تبين أن حقيقة طبيعة الأجهزة الحية تظهر فى تأثيرها المناظر المتبادل فى تلك الأجهزة، وأن الزمان والمكان ليس هما فقط اللذان يحكمان أو يتحكمان فى الكون. هناك عامل ثالث وأساسى هو: الإعلام أو العلم أو مستوى المعلومات. ومن المحتمل تماما أن أجسام الكائنات والأجهزة الحية لديها حساسية نحو حقول أو مجالات، ربما تكون فى جوهرها الأساسى إشعاعات موجِّهة أو مرشدة». .

لماذا اقتصرت تلك التجارب المثيرة والمستفيضة ـ ولسنوات طويلة ـ على الخلايا الحية ولم تُجْرَ على حيوانات مثلا أو إنسان؟ .

يجيبنا د. كازناتشيف قائلا:

«جربنا بالفعل. لكنَّ من الميسور ملاحظة الآثار والنتائج على الخلايا إلى الجيل العاشر أو الثانى عشر منها. ولكن ليس من المتاح لنا دراسة ذلك على الانسان فى مثل هذه الظروف إلاَّ فى دقائق لا يمكن أن تتجاوز العشرين أو الثلاثين، لأنه بعد ذلك الوقت تحدث تأثيرات خطيرة على بنية المخ: فتختفى الفروق تماما بين فَصَّى المخ، ولا ندرى حتى الآن لماذا يحدث ذلك. وهى بالنسبة للإنسان محفوفة بالمخاطر الشديدة إذا أُجريت على الارض، بدلا من الفضاء الكونى (كما يحدث لرواد الفضاء). لماذا؟ . لأن المادة الحية موجودة على الأرض منذ أربعة بلايين سنة، ولم تعزل قط طوال هذا الزمن عن الحقول

المغناطيسية، فإذا وُضع الكائن الحى فى داخل مثل هذه الأجهزة (المعزولة عن المغناطيسية الارضية) تكون هذه قفزة مفاجئة هائلة نحو المجهول.

«إن الخلايا التى استُخدمت فى التجارب هلكت جميعها بعد الجيل العاشر من انقساماتها. وكما ذكرتُ آنفا، فإن بِنية المجال أو بنية الحقل الأحيائى (البيولوجى) هى التى تموت أولا وليس البروتينات. وبناء على ذلك، فمن رأينا أنه فى حالات الأمراض الخطيرة يحدث نفس الشىء تماما: تمرض أولا بنية المجالات الأحيائية، ثم تموت أولا وتتبعها الخلايا والأجهزة الحية. ولقد حاولنا أن نثبت ذلك بوضْع حيوانات حية فى الغرف المعزولة مغناطيسيا ثم باشرنا علاقة بعض الأمراض التى بها. وفى أثناء فترة وجودها فى العزل المغناطيسى تعرضت لتعديلات جسمانية على جانب كبير من الأهمية. من المدهش أنها أصبحت أكثر ذكاء. أطفال مرضى بسرطان الدم (لوكيميا) خضعوا للتجربة فى تلك الغرف المعزولة لدقائق محدودة ،تفجرت فيهم طاقات ذهنية مفاجئة وقدرات واضحة. مثلا: أولئك الذين لم يحسنوا الرسم، تحولوا إلى رسامين مبدعين. التفكير المنطقى ظهر واضحا. وكما أن هذه الغرف المعزولة أحدثت تعديلات واضحة، فإنها أيضا أظهرت إسهامًا فعالاً فى الشفاء.

«إنه مجال جديد فى البحث والدراسة، ربما كان أكثر جدوى وأقل تكلفة من بحوث وتجارب الفضاء. إن الفضاء ميدان لمغامرة من أجل التكنولوجيا، وهذا ميدان لمغامرة من أجل الحياة».

إن د. كازناتشيف فى نظرته العلمية الفلسفية الإنسانية يدفعنا إلى الجرأة على السؤال: وهل ـ بصراحة ـ حاولت أنت أن تدخل هذه التجربة، وأن «تغامر» وتجرب بنفسك؟، فيقول:

«بالتأكيد.. إذ كيف أقاوم الرغبة فى خوض تلك التجربة بنفسى؟. ولقد شعرت حقا بتغيرات فى داخلى. مثلا: عندما بدأت أكتب بعدها، تواردتْ على ذهنى صور جديدة تماما، وأفكار ما كانت تخطر أبدا ببالى من قبل. وأصدقائى

الذى تعرضوا للتجربة (فى الغرف المعزولة مغناطيسيا) حدثت لهم نتائج مشابهة. وربما كان هذا أسلوب (ميكانيزم) فريد فى نوعه خاص بمعالجة الأمراض النفسية مستقبلا إذا تحسن وتطور. ولماذا لا يستفاد منه فى أمراض مزعجة مثل السرطان؟. إنه أفق جديد مازال غامضا. وخطواتنا فى اتجاهه مازالت فى البداية رغم اختباراتنا على الخلايا والحيوانات والجينات لفترات زمنية محدودة للغاية. إن نسبة تركيز الحقل (المجال) المغناطيسى فى الغرف التى ابتكرناها قبل أى مكان آخر فى العالم، تبلغ واحد على عشرين ألف من قوة المغناطيسية الأرضية الطبيعية. ولدينا غرف تضعف المغناطيسية فيها إلى أقل من خمسين ومائة ألف نستخدمها فى تجارب أخرى لا يدخل فيها الإنسان على الإطلاق. وللمقارنة: فإن الكهرومغناطيسية فى مجال القمر اضعف ألف مرة فقط عن تلك التى فى مجال الأرض. وفى الاختبارات الأمريكية لتدريب رواد الفضاء الذين نزلوا على سطح القمر، صُممت غرفة تبلغ قوة المغناطيسية فيها مثيلتها على سطح القمر. ومن خلال تجارب تدريب الرواد، لاحظوا شيئا عجبا: اكتشفوا أن الخاضعين للتجربة فى هذه الغرفة أصيبوا بخلل فى الإحساس بالزمن أو إدراك الوقت، وأن نمو النبات فيها اختلف عن الأسلوب المعتاد فى البيئة الطبيعية العادية، إلا أنها اثبتت تحمل الإنسان لجاذبية القمر. أما أبعد من ذلك فى الفضاء الكونى الرحيب، فلن يتحمل الإنسان المخاطرة لأن المجال الإحيائى عنده سيخبو ويموت. وهنا يجب أن نشير إلى أمر يجب أن يوضع فى الحسبان دائما: المحافظة على الإنسان، فهو أهم وأغلى ما فى المجتمع.. أى مجتمع وليس الأشياء، ولا الإنتاج، ولا التكنولوجيا».

منذ سنوات، ينفذ د. كازناتشيف ومساعدوه برنامجا تجريبيا للاتصال عن طريق الإدراك فوق الحسى، أى الاتصال المباشر بين أشخاص فى مدن أو مواقع متباعدة، بدون استخدام الحواس الطبيعية أو أجهزة صناعية. واختاروا عشرة مدن على امتداد روسيا لهذه الاختبارات العلمية المعملية، وذلك كمرحلة أولى، ثم تطور إلى مراحل أخرى للاتصال ـ بنفس الأسلوب ـ بين أشخاص فى دول متباعدة، ثم عبر العالم كله. هذا النوع من الاتصال ـ ويسمى التخاطر ـ يتم فى التجربة على النحو التالى:

يعطَى المشترك فى التجربة رسما أو صورة أو شيئا معينا، وعليه أن يتأمله جيدا بتركيز ثم «يرسل» بالتخاطر (أى انتقال تصوره وفكره) إلى شخص آخر فى مدينة بعيدة مشترك معه فى التجربة، فيتلقى الأخير «الرسالة» ويرسم على لوحة أمامه الصورة أو الرسم أو الشكل الذى تلقاه ذهنه. وتسجَّل هذه الاختبارات بأجهزة الفيديو. وقد نجحت التجارب فى بعض الحالات وفشلت فى أخرى، وأثبتت أن أشخاصا عاديين لديهم هذه المقدرة أكثر من غيرهم، كما تؤكد أن طاقات وقدرات وذكاء الإنسان تفوق إنجازات التكنولوجيا والكمبيوتر وحتى فى الاتصال عن بعد. ونجحت بعض هذه التجارب من داخل الغرف المعزولة مغناطيسيا، وهذا يبرهن على أن طبيعة الاتصال عن بعد (كالتخاطر) لا ترتكز على أساس مغناطيسى.

وتستمر التجربة على نطَاق أوسع بين معهد د. كازناتشيف ومراكز أو معاهد مَعْنية بهذا الأمر فى الولايات المتحدة، وبولندا، والتشيك وألمانيا، وفرنسا وإيطاليا، وإسبانيا، وكندا..... وضعا فى الاعتبار ظروف الأحوال الجوية المناسبة، وأن يكون النشاط الشمسى ضعيفا. والهدف: معرفة إمكانية الاستفادة من هذا الأسلوب فى الاتصال عن بعد بين الإنسان والإنسان، وبين الخلايا والخلايا، والانتفاع بالإدراك فوق الحسى فى الشفاء من المرض، وتحديد مناطق نشوء المرض داخل أجهزة الجسم، وفى علاج الأمراض النفسية، وفى علوم الفضاء والفلك.. برامج العمل البحثى فى هذه المجالات كثيرة ومتنوعة، بعضها يمضى ببطء مقصود، وبعضها بتسارع مرصود، ويشترك فيها أساتذة ومتخصصون من أبرز الكفاءات وأعلى المستويات. من المدهش معرفة أن الإنسان مرتبط وعلى اتصال مباشر بالخلايا: «فهو يستطيع أن يوجه ويؤثر فى نموها.. فى بعض التجارب استطعنا من بُعد (بالتخاطر) وبدون استخدام اجهزة صناعية، استطعنا زيادة وإبطاء سرعة عمل كومبيوتر»....

إن كان حقا ما يقال فى هذا الشأن، فإن النتائج على المدى البعيد تفتح بابين متناقضين: باب من الأمل، وآخر من الخوف. الأمل فى الانتفاع بنتائج تلك البحوث والتجريب فى مجالات إنسانية عديدة، من أهمها الوقاية الصحية

والشفاء من الأمراض الخطيرة جسمية أو نفسية، وتحسين قدرات الإنسان وحسن استثمارها. والخوف من استغلال نفس النتائج في مجالات الشر والأشرار: كالعصابات الدولية، والجريمة المنظمة، والحروب، والتجسس، والإرهاب السياسي.. خاصة أن المعاهد والمراكز التي تبحث في هذه الدراسات لا يخضع معظمها للسيطرة الحكومية. وإن د. كازناتشيف نفسه يقول:

«إننا مازلنا في أول الطريق. وكل عملة لها وجهان. ولكل ميزان كفتان. والمتناقضات كثيرة في الإنسان.. وإذا كنا قد نجحنا في التأثير من بعيد على عمل كومبيوتر فقط باستخدام الإرادة الذاتية للإنسان والذكاء والاتصال المباشر عن طريق الفكر (أو التخيل)، فإنه إذا وُضعت هذه القدرات البشرية التي توصلنا إليها، في أيدي المحاربين وفي أيدي محبي العدوان، فإننا سنتعرض لاعتداءات جديدة شديدة القسوة والعنف. إنها تبلغ من القدرة والسيطرة الحد الذي تستطيع فيه إصابة تفكير وإرادة جماعات من الناس بالشلل، وتحويلهم إلى حالة من الاستسلام والعبودية المطيعة الوديعة. والأخطر من ذلك: أن هذه الاكتشافات الجديدة، إذا ما طُورت تكنولوجيا، فإن أسرار ونظم ومخزون معلومات جهاز مخابرات دولة ما أو خططها وأنظمتها الحربية والدفاعية يمكن سرقتها من بُعد، ومن الممكن أيضا بنفس الأسلوب (ودائما من بعيد) انتزاع الروح القتالية لدى جيش، أو مجموعة جيوش، وتحويل مجموعة من الشعوب إلى الميل نحو السلبية والاسترخاء الشديد....».

من أجل ذلك، ينادي بشدة د. كازناتشيف بالعلانية، بعدم سرية هذه البحوث والتجارب ونتائجها لتكون معروفة متبادلة على الأقل بين المعاهد والمراكز المعنية بها وبين الدول التي توجد فيها، لأن السرية - في رأيه - تعني الإعداد لاستخدامها فيما يضر ويهلك، قبل أن يفيد وينفع.

... ...

إنه حقا أمر مدهش، مثير، مقلق، ومحير.. وأحيانا لا نجد حرجا في أن نقول لأنفسنا: رُب علم كان الجهل به أجْدَى.. وأفضل..

هنا محطة إذاعة المجانين!

هل نذكر الدعابة الكاريكاتورية القديمة عن إخواننا نزلاء مستشفى الأمراض العقلية والعصبية؟. تفكروا وتدبروا، ثم انتهى بهم الرأى إلى الآتى: رفعوا اللافتة المثبتة على باب المدخل بالمصحة، المكتوب عليها« احذر!.. أمراض عقلية»، ثم ثبتوها خلف الباب، بحيث يراها الخارج من المصحة!!.

اليوم، فكروا وتدبروا وانتهى بهم الرأى إلى تنفيذ مشروع طريف: إنشاء محطة إذاعة خاصة بهم، تبث إرسالها على نطاق واسع، وأصبح لها جمهور دائم من المستمعين يقرب من سبعة ملايين حسب إحصاء أُجرى فى ١٢ إبريل ١٩٩٧! إنه نجاح كبير بلا شك، وأسلوب فى العلاج والتثقيف والترويح يستحق الدراسة والتأمل. اسمها «راديو كوليفاتا» من مستشفى الأمراض النفسية فى بوينوس أيرس عاصمة الأرجنتين. المستمعون شغوفون بالاستماع إليها. والدليل: أن برامجها تحملها موجة بعيدة المدى، وتنقلها لإعادة البث ثلاثون محطة إذاعة تغطى كل الأرجنتيين وتصل إلى «أرض النيران» بالطرف الجنوبى للأمريكتين، وإلى القارة القطبية الجنوبية، حيث مراكز البحوث القطبية. وتذاع برامجها أيضا ـ طوال الأسبوع على موجة التردد المعدَّل (FM). وفى تعبير لمدير إحدى المحطات الإذاعية المحلية التى تعيد بث برامج «كوليفاتا» توضيح الدافع إلى سماعها ومتابعتها، قال: «ليس الدافع عاطفى فقط، كالشفقة أو المشاركة الوجدانية لهؤلاء المرضَى المساكين، وإنما أيضا لأن المرء يصغى أحيانا إلى واقع حقيقى صادق، إلى الحقيقة «الخام»، بدون تزيين أو تزييف أو تحسين (رتوش)..».

كانت البداية عام ١٩٩١ : «ألفريدو أوليفيرا» طالب.يدرس الطب النفسى بمستشفى «بوردا» للصحة النفسية بالعاصمة الأرجنتينية. من خلال معايشته للمرضى النزلاء بالمستشفى أدرك متاعب وآثار العزلة القاسية المفروضة عليهم. من هنا جاءته فكرة إنشاء محطة إذاعة صغيرة تكون «نافذة تنفتح بهم على العالم الخارجى، وتصل سكان العالم الخارجى بهم، أيا كان ما يقال أو يذاع من خلال الميكروفون».. يكفى فقط كسْر حدة تلك العزلة، وزحزحة - إن لم تكن إزالة - حاجز الحذر والرعب الذى يقيمه الآخرون بينهم وبين هؤلاء المرضى «الغريبى الأطوار»، وهم فى البداية والنهاية أفراد من الناس.. من البشر.. من سكان العالم الواحد.

كان متهيبا من تنفيذ الفكرة فى البداية: أن يسلِّم الميكروفون لأمثال هؤاء. لكنه كان واثقا أنه عمل يجمع بين التسلية والعلاج. بين الإمتاع والاستمتاع، وبين التآلف والإشباع. يقول: «.. وأردت أيضا أن أوضح للمواطنين الأرجنتينيين أن المختلين عقليا ليسوا جميعا - ودائما - أشخاصا خطرين مضْجِرين مفزِعين، لكن غالبيتهم كثيرا ما يكونون مجرد أشخاص مضطربين خائفين. وهم كذلك قادرون على الحديث بذكاء، وببساطة وتلقائية عن مشكلاتهم العامة والتى يشتركون فيها جميعا».

بعد خمس سنوات من بداية تنفيذ الفكرة الجريئة الطريفة، كان النجاح مدهشا: حصلت «كاليفاتا» فى أبريل ١٩٩٦ على الجائزة الفاخرة الكبرى لأحسن برامج إذاعية على مستوى الدولة كلها، وظهرت كفاءات لفتت إليها الأسماع والأنظار.. «أنْجل فيللا» الذى تجاوز الستين من العمر، ونزيل المستشفى منذ سبعة وثلاثين سنة، والمسئول عن «نادى الموسيقى بمستشفى البوردا» يتحدث عن الموسيقى، ويؤلفها ويلحنها - خاصة التانجو - بطلاقة ومهارة وإبداع، وإن كان ذلك فى طابع حزين مؤثر. لقد حقق - باسم زملائه النزلاء - نجاحا وتفوقا أسعده وأمتَعَهم على نحو لم يعهدوه مطلقا من قبل. وقد حصل على تصريح مؤقت للخروج من المصحة لإجراء حوارات مع

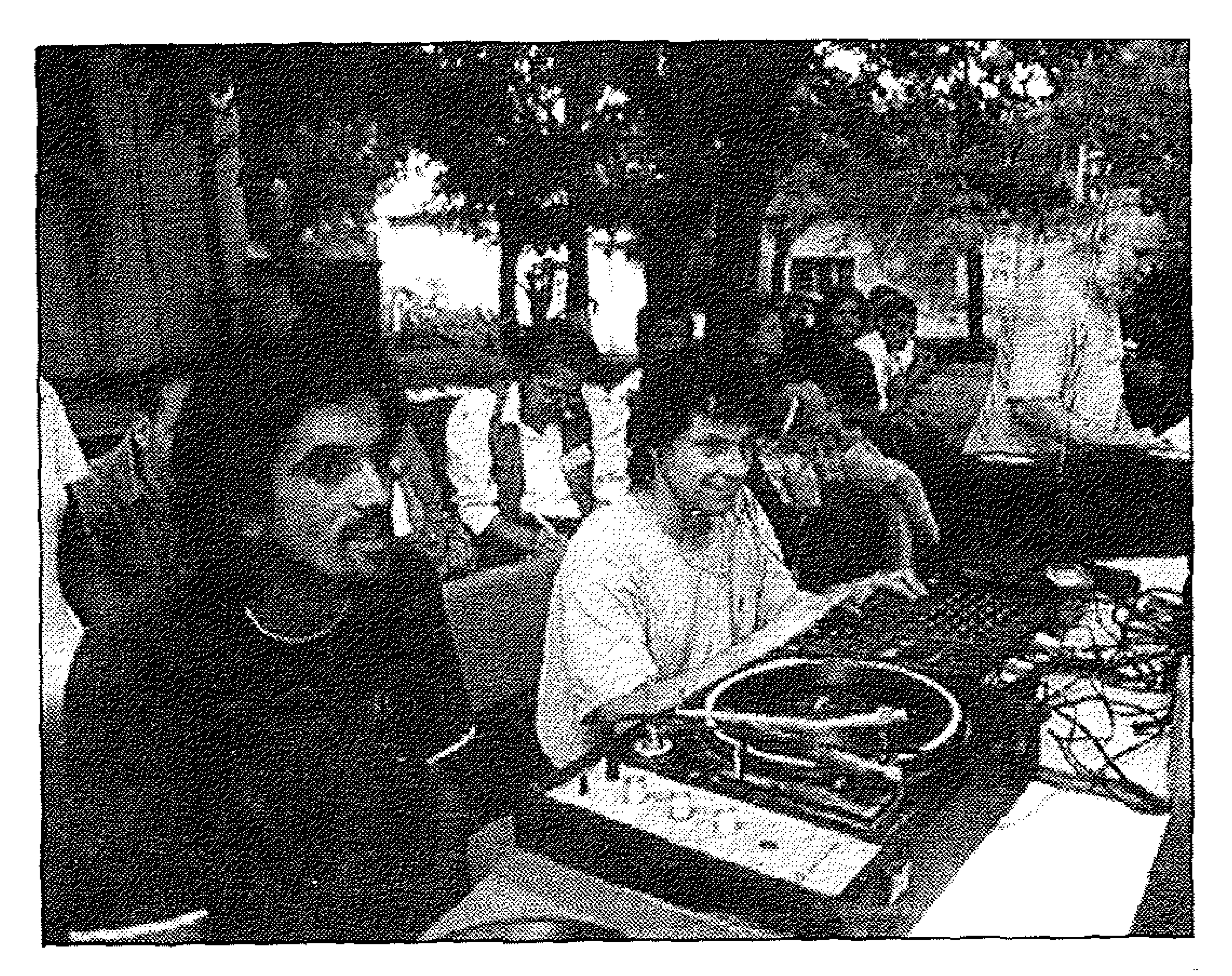
الموسيقيين الكبار، حتى إن أحد هؤلاء المشاهير ـ ويدعى «هوراشيو فرّير» ألّف لحنا من نوع التانجو اختار له عنوانا: «أغنية عاطفية لمجنون»[1] ولما سئل هوراشيو: هل تأليف تانجو منسوب إلى مختل عقليا يحقق نجاحا؟. أجاب: «لست أدرى.. ولكن ابحثو فى الأدب العالمى، وانظروا كم من الأعمال المشهورة كتبها مؤلفون مختلو العقل...»!.

و «جراسيس».. فيلسوف المصحة، أو المستشفى المنعزل: نحيف فارع الطول، بلا أسنان تقريبا، يرتدى بدلة واسعة جدا لا تناسب حجم جسمه، يحمل كمية كبيرة من الأوراق مدون بها كتاباته الحكيمة يقول صراحة: «أعرف أننى مجنون، معقّد، مصاب بالشيزوفرنيا (الانفصام العقلى أى البعد عن الحقيقة وعدم الترابط بين العقل والانفعالات)، والذُّهان (الاستغراق فى الأوهام والشك الشديد، أو الشعور بالاضطهاد، أو بجُنون العظمة)، لكننى لست وغْدا.» وهو صادق فيما يقول. له برنامج ثابت بعنوان: مأثورات جراسيس الحكيمة!. أمام الميكروفون، يقول: «إن الجنون ليس مطلقا التفكير الصائب الراشد الحصيف، لكنه قد يكون تفكيرا منطقيا. وكذلك بعض الأطباء المعالجين. تمامًا مثلما أن بعض رجال الدين ليسوا قديسين. وهل يمتنع أن يصاب أحد أطباء النفس بالاضطراب أو الاكتئاب أو الجنون؟». وبعيدا عن الميكروفون، أثناء إذاعة أغنية بالبرنامج، يقول هامسا بلهجة جادة لصحافى زائر، إنه «امبراطور» المصابين بالذُّهان. ثم يضيف: «ينتابنى الفزع عند حضور نزيل جديد بالمصحة، لعله يكون أشد ذُهانا منّى، فربما ينتزع منى هذا اللقب»!.

إن جراسيس واحد من «نجوم» إذاعة راديو كوليفاتا المستغرقين فى عزلتهم بهذا المأوى المنكود. وهو يسجل برنامجه فى حديقة المستشفى على مدى ثلاث ساعات، ويستقبله داخل المصحة نحو ألف ومائتى مريض بعد عمل المونتاج، وتقصير مدته.

---

(1) Balada parun loco.



الطبيب الشاب الفريدو أوليفيرا (رافعا يده إلى اليمين) أثناء إذاعة راديو كوليفاتا

في تعليق لأحد المستمعين بالعاصمة الأرجنتينية قال: «إن برامج راديو كوليفاتا فى تقديرى أحسن برامج الإذاعات الأرجنتينية.. ربما لأننا جميعا هنا مصابون بقدْر ما من الجنون»!.

وهو تعليق ذو مغزى. كيف؟.

كانت الأرجنتين إلى عهد قريب تتمتع بثراء، وطيب عيش واستقرار، حتى إن بعض الكتاب والمحللين تعجب قائلا: «إن أحوال الأرجنتين من أكبر ألغاز عصرنا»[1]، ثم ظهر أن «اللغز» يستتر فى أدمغة الأرجنتيين أنفسهم.. كيف؟ ولماذا؟.. أصيبت الأرجنتين «بفيروس» الانقلابات العسكرية، والشعارات البراقة الجوفاء، وحكم الديكتاتورية السالبة الناهبة المستندة إلى قوة وبطش الشرطة والجيش بما لم تشهده البلاد ولا أمريكا الجنوبية من قبل، حتى إن المعارضين والمستنيرين والناصحين كانوا يُلقَوْن أحياء من الطائرات إلى البحر أو الصحارى أو أعالى الجبال!، وراح ضحية هذه الوحشية الظالمة مئات..

(١) ف. ينبول فى كتابه «عودة إيفا بيرون The Return of Eva Peron»

وآلاف! فكان «الاختفاء» المفاجئ ظاهرة مؤلمة مفزعة تعرفها البيوت والأسر. ثم كانت حرب جزر «فوكلاند» عام ١٩٨٢ بين الأرجنتين المطالبة بحقها فى امتلاك الجزر وبريطانيا المدعية لنفسها هذا الحق (وفازت بريطانيا باستعمار الجزر بتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية). ويضاف إلى تلك المآسى المتلاحقة كثرة الهجرة المتعددة الجوانب: هجرة النازحين من القرى والريف والجبال إلى العاصمة والمدن، وما يترتب على ذلك من تكدس وتعطل هنا، ودمار ونضوب هناك، وأيضا هجرة القادمين من مناطق ودول فقيرة أو مقهورة مجاورة، فلا عجب إذن - كما قيل - «أن يكون فى دماغ كل أرجنتينى ولو ذرَّة من جنون. الناس هنا - عدا المتسلطين والمنتفعين والنهابين - يعيشون على هامش الحياة. ليسوا أوروبيين ولا أمريكيين، وإنما هامشيين. وانظر إلى مارادونا (لاعب كرة القدم المشهور) إنه فى مسلكه وتصرفاته كالمجنون، وغيره كثيرون من المشاهير»!.

ولا غرابة فى أن «العقلاء» يؤثرون الانطواء، وأن العاصمة - بوينوس أيرس - تختلط فيها الآهات بالضحكات، البؤس بالأُنس، اليأس بالكأس، الرِّجس بالجنس. وهى العاصمة التى توزع فى شوارعها وفى متاجرها ومطاعمها نشرات دعائية عن «علاج نفسى متكامل»، أو عن أماكن التجمعات «من أجل حياة أفضل للتخلص من الكآبة والهموم»!.

فى ميدان «مايو» بالعاصمة، حوَّلت «ديانا كوردون» الطبيبة النفسية عيادتها إلى ورشة عمل، بالمشاركة مع الأمهات، لعلاج ورعاية عدد من أبناء نحو خمسة عشر ألفا من الآباء الذين قُتلوا أو اختفوا إلى الأبد أثناء فترة الحكم العسكرى بين عامى ١٩٧٦ - ١٩٨٢. برنامج العمل الجماعى يشمل مجالين: الآثار النفسية للقهر السياسى، والقصاص القانونى العادل من أولئك الذين أفلتوا من العقاب. وتؤكد ديانا أن المجتمع الأرجنتينى مريض بآثار ماضيه القريب. ورواسب هذا الماضى لا تتلاشى مع مرور الزمن، بل على العكس تتزايد. تقول: «وقد لاحظنا حالات انتكاس كثيرة بعد العلاج، وأصحابها

يلحُّون فى طلب المساعدة. وترْك الجلادين ينعمون بالحرية والثراء يزيد الموقف سوءا. ونتج عن ذلك أمراض اجتماعية، من أعراضها: العنف التلقائى السائد، الذى لم يكن معهودا من قبل».

ويضيف الطبيب النفسى الشاب - صاحب فكرة راديو كوليفاتا - الفريدو أوليفيرا: «إن الجنون مرآة تعكس جانبا من حياة المجتمع». ثم ينصرف إلى «ستوديو» التسجيل بحديقة المستشفى، لإعداد برنامجه الإذاعى. وهو إذ يجيد الغناء والعزف، يسجل بصوته أغنية: «لا تبكى من أجْلى.. يا أرجنتين»!.

التليفزيون اليابانى يصور العفاريت

الأرواح.. الأشباح.. الجن.. العفاريت.. الأسياد.. الخدام.. الأطياف.. الأموات.. القرين.. العين.. وأيضا: المسكون، والمجنون، والمهووس، والملبوس، والموسوس..

إنه عالم فى الخفاء غير ملموس، ولكنه - رغم التطور ومسيرة قرون من العلم والتنوير والحضارات والإنجازات - مازال يشغل خيال وأذهان كثير من الناس، فى كل الدول شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، فقيرها وغنيها، بل إن أصحاب أسماء لامعة، وشخصيات قيادية شهيرة، فى مدن وعواصم دول كبرى، تلجأ إلى الذين يزعمون لأنفسهم دراية وخبرة فى هذا المجال،... وهذا هو التليفزيون اليابانى فى طوكيو، (NTV) ينظم جولة تسجيلية عبر عدد من الدول الأوربية لزيارة الأماكن «المسكونة» وجمْع مادة لبرنامج عن العفاريت والجن والأشباح.... بدافع الثقافة، أو بغرض التسلية، سيان.[1]

ويكفى لمعرفة مدى تأثير هذا الموضوع وانعكاساته على حياة الناس فى الشرق الأقصى أن نشير إلى هذا الأمر الواقع: معروف أن هونج كونج (مستعمرة التاج البريطانى التى عادت إلى الوطن الأم الصين بعد قرن ونصف من الزمان) هى لؤلؤة الشرق الأقصى، ومن أكبر المراكز المالية والتجارية العالمية والصناعية أيضا، وهى الميناء الثالث فى العالم (بعد نيويورك، وروتردام بهولندا) وخزانة الشرق الأقصى بأجمعه.. وبما أن مساحة تلك المدينة محدودة، فإن ثمن المتر المربع فى وسطها يتراوح بين ٥٠ ألف و٢٥٠ ألف دولار، ومع ذلك توجد مساحة مُهْدرة فى قلب المدينة، خالية، تصلح لإقامة ناطحة سحاب

(١) سيان: أى مثلان، أو متماثلان. والمفرد: سِى.

فوقها، ومع ذلك لا تجد من يشتريها أو يستأجرها. لماذا؟ لأنها ـ يقولون «مسكونة» بالعفاريت أو الجن!! وإذا ما سألت أى رجل أعمال (من أصحاب البلايين) فى هونج كونج: هل يعقل هذا: وهل يليق بك أن تظن ذلك؟ فربما أجابك بابتسامة مهذبة صامتة، لكنه لا يتزحزح مطلقا عن التمسك برأيه، لاعتقاده الراسخ بأن الأرض «المسكونة» حتما ملعونة، والبعد عنها غنيمة.. فالشائع بين الناس هناك، أن هذه القطعة تعيسة الحظ من الأرض يُسمع منها أصوات نحيب، وصراخ، وعويل، وحشْرجة، وضوضاء غريبة تمزق سكون الليل خاصة فى الليالى المُقْمرة، تعلو متصاعدة نحو السماء..

إلى هذا المدى يذهب اليابانيون وأهل الشرق الأقصى فى اعتقادهم بالسحر، وعالم الخوافى كالأشباح وما وراء المحسوسات أو ـ الطبيعيات. ولهذا، لم يكن غريبا أو مدهشا أن ترتب إحدى شبكات التليفزيون اليابانية الكبرى لإرسال بعثة إلى بعض الدول الأوربية لتسجيل «مشاهد وألوان» من المواقع والبيوت والقلاع والقصور المشهور عنها أنها «مسكونة» وإجراء أحاديث وحوارات مع العلماء والمتخصصين الأكاديميين المعنيين بهذا الأمر. وهذا بعض ما سجلوه أو عادت به البعثة التليفزيونية. وهو حقا: طريف، ومثير.. سيان!.

من المهم أن نعرف أسماء الشخصيات الرئيسية التى تكون منها فريق العمل بالمواقع، لأن أسماءهم ستتردد كثيرا فى هذا السياق..

أولا، اسم البرنامج التليفزيونى: «البيوت المسكونة بالأشباح فى كل العالم». ثم أعضاء الفريق: نى إيكورا سان، متخصص يابانى فى الظواهر غير الطبيعية وهو رئيس المجموعة ـ سينيشى ميساوا سان مدير الإنتاج ـ توشيهيكو إبينا سان مدير البرامج ـ هاشيبا سان مراقب السيناريو ـ تسونتوشى كاواشيما سن سيناريست ـ ناكاتا سان مساعد إنتاج وحسابات ـ شوك ويلسون مقدم البرامج ومحاور ـ إيكاوا سان المشرف على الإنتاج (أو المنتج المنفذ، وهو عندنا اصطلاح مبهم غير دقيق) ـ سودوسان/ تاناكا سان المصوران، والمساعد سيريل تاداشى شى إيزو. وقع اختيار الفريق ـ بعد البحث والفحص ـ على السيدة الشابة «إنجى» لتكون «الوسيط» لخبرتها وشهرتها فى الاتصال مع الكائنات غير

الطبيعية وصحبهم فى جولتهم «جيمى جويو» مؤلف كتاب «عالم الوسطاء الروحيين العجيب». . وهو الذى يروى لنا عن تجواله مع هذه البعثة الطريفة، وما واجهته من مواقف مخيفة.

فى إنجلترا، كان السيناريو المقترح يدور حول السؤال: هل مطاردة واصطياد أشباح العائدين بعد رحيلهم عن الدنيا تأتى بنتيجة مثمرة؟. .

على بعد نحو مائة كيلو متر من العاصمة لندن، تقع مدينة بدفورد، وبالقرب منها بدفورد شاير، حيث تمتد أراضى وممتلكات (ومن بينها حديقة حيوان) دوق ودوقة بدفورد، وهى عائلة متألقة ترجع شهرتها إلى أكثر من عشرة أجيال.

فى فترة ما بين الحربين العالميتين، كانت والدة دوق بدفور الحالى أول امرأة بريطانية تقود طائرة. وفى سن الخامسة والستين، اختفت وهى تقود طائرتها الخاصة. وبعد فترة عثر على طائرة الدوقة السيئة الحظ وعلى جثتها فى بحيرة.

منذ ذلك الحين، فوجئ خدم القصر والزوار، وفزعوا بظهور شبح السيدة الدوقة، وغالبا ما كانوا يشاهدون الجزء الأعلى من جسمها فقط، سواء فى حجرتها الخاصة، أم فى قاعة الاستقبال. وتكرر ذلك.

بل إن بعض الزوار شعروا أيضا بيد تربت على أكتافهم، فلما استداروا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام هذا «الكيان» أو «الشبح» بكل وضوح. صوَّر الفريق اليابانى ـ بعد ترقب ـ ما لاح أمامه، فظهرت فى بعض اللقطات الدوقة: أعلى جسمها فقط، ولم تظهر القدمان. فى مواقع أخرى، مثل بيوت معروفة فى «كنْت» يظهر ويقال إنها «مسكونة»، لم يظهر التصوير أى اشكال بها غير مألوفة.

فى نفس تلك المقاطعة توقف فريق التليفزيون اليابانى عند «شجرة المشنوقين» فى الموقع الذى كان يعذب فيه المحكوم عليهم بالإعدام فى القرون الغابرة. على مقربة من تلك الشجرة ـ المَشْنقة، مازال قائما بيت قديم متهالك، كان يساق إليه المحكوم عليهم بالإعدام فى انتظار تنفيذ الحكم. أثناء وجود

الفريق بالموقع، ومعهم مترجمة يابانية استعان بها نى إيكورا (رئيس الفريق)، شعرت هذه المترجمة بدوار شديد مفاجئ وانقباض مع رعشة عنيفة عندما قبض «شيء ما» على سمانتيْ قدميها بقوة، وكأنه يمنعها من التقدم والاقتراب من المشنقة.

حدث نفس هذا الموقف فى مصنع فى منطقة مستنقعات «بر ـ Berre» فى جنوب فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. كانت مجموعة من العمال تميل ناظرة إلى خزان ضخم مملوء بالحامض المركز، وفجأة يسقط أحدهم فيه، فلما همَّ الباقون بالإسراع لنجدته، شعروا جميعا بأن «يدا» قوية تقبض على (سمانة) ساق كل منهم تمنعه من التقدم خطوة واحدة، ومات العامل المسكين متحللا من الحامض. وثبت فى التحقيق صدق رواية كل من شهد الحادث.

وروى نى إيكورا أنه سجل فى اليابان موضوعا مشابهًا ضمن تحُقيق (ريبورتاج) تليفزيونى عن شجرة شَنَق شخص نفسه فوقها. وأعلن البرنامج عن حاجته إلى «وسيط» يستطيع الاتصال بالراحل المشنوق. لكن «سوموتورى» وهو عملاق، سمين، ضخم الجسم، يتجاوز طوله المترين، ويمارس المصارعة، اتصل بالمشرف على البرنامج «نى إيكورا»، وأخبره أن هذا محض هراء، وأنه لا يؤمن بصحة ما يدعيه. فلما عرض عليه نى إيكورا أن يحاول بنفسه التجربة، ضحك سوموتورى ساخرا، ثم قَبل.

عند موقع الشجرة وُضعت كاميرا تليفزيونية ثابتة على بعد ثلاثمائة متر فى مواجهة الشجرة، ونُصبت خيمة بعيدا عنها وُضع داخلها جهاز المراقبة (مونيتور). وأجلسوا سوموتورى أمام الشجرة فى مواجهة الكاميرا فوق صخرة. وعلى مقربة منه جلست «الوسيط» (مثل إنجى التى تصحب الفريق اليابانى فى أوربا وتفعل مثلها) جلست تتمتم بعبارات، وتنثر فى الهواء أشكالا نجمية ذات خمسة أذرع (نجمات خماسية) من أجل «الحماية» من الأضرار وطرد التأثيرات السلبية.

فى داخل الخيمة جلس فى انتباه شديد أمام شاشة جهاز المراقبة: نى إيكورا

والمساعدون الفنيون: سرعان ما بدأ المصارع السمين الضخم يُظهر استياء وعصبية. وأخذ يكلم نفسه. كأنه لا يدرى ما حوله. إذ وقفت ذبابة على يده اليمنى، ثم راحت تتجول فوقها بحرية ولم يهشها عنه، ثم تبعتها دودة، ثم طائر صغير ظل يحوم حوله فترة. وهو مستمر فى الكلام غير المترابط أو المنطقى مثل: «اليوم الطقس حار. أختى عندها قروح بقدميها. سوف أخزن كمية من الأرز. الزهور كانت جميلة. وفى التليفزيون شاهدت برنامجا رياضيا، لكن يلزمنى شراء زوج من الأحذية. الكمان؟. إنها أفضل من الفلُوت، وثمار الكريز أفضل مذاقا. . . .».

بعد التسجيل سئل سوموتورى فأجاب أنه كان بطريقة ما واقعا تحت تأثير قاهر «لكيان أو جوهر» ما، كان يمنعه تماما من التفكير السلس أو النطق السليم فى جمل مترابطة. واعترف بأنه فى كثير من الفترات، شعر بوجود هذا الكيان وسمع صوتا يناديه: «إيه.. يا أنت.» «إيه.. يا أنت».. كما أحس بوخز شديد فى ذراعه لم يستطع أن يدفعه (بالهرش). وظل لفترة بعد هذه التجربة يهذى بكلام مستمر غير مترابط وبلا توقف، وكأنه بهذا يدفع عنه الخوف الذى استولى عليه.

بعد هذه التجربة التى استغرقت نحو خمس ساعات، طلبت الوسيط من كل الحاضرين والمشتركين فى التسجيل أن يرشوا على أجسامهم - عند عودتهم إلى بيوتهم - الملح ثم الاستحمام جيدا للتخلص من التأثيرات المؤذية «للمجاورين» لشجرة المشنوقين. وفى غمرة انشغال ذهن نى إيكورا بما جرى وشاهد أثناء التسجيل، نسى بعض نصائح الوسيط، ولكنه تذكر على الفور وهو يعبر عتبة مسكنه أنها قالت له: «بمجرد أن تتخطى عتبة دارك، ستشعر فجأة أن حرارة الجو ارتفعت بشدة، وأنك ستصاب بغُصة تكاد تخنقك»، وقد كان.

وفى المساء ارتفعت درجة حرارته إلى ٣٩ مئوية. وفى خلال عشرة أيام نقص وزنه سبعة كيلو جرامات، ولم يستطع عدد من الأطباء بالتتابع أن يجدوا سببا مرضيا لحالته.

فلما طال به الإرهاق والسأم، لجأ «نى إيكورا» إلى زيارة «وسيط» قديم

يعرفه، ولم يكن لديه أى علم بما جرى له. وما أن لقيه حتى قال له قبل الترحيب به: «ما كان يجب عليك أن تذهب إلى هذا المكان الملعون. إن اشباح المشانيق عبثت بصحتك ولو لم تأت الزيارتى اليوم بالذات، لكانت نهايتك محتمة بعد أسبوع..». وبدأ الوسيط يمارس عمله، وشيئا فشيئا أخذت صحة نى إيكورا فى التحسن.

فى فرنسا، اختار لهم «جيمى جويو» بعض البيوت «المسكونة» ومنها شقة المؤلف الموسيقى «ماريوس فانسان»، بشارع روما فى مدينة مارسيليا، والتى زارها جيمى منذ بضع سنوات زيارة تحقيقية بحثية.

كان الجو حارا، فى ذروة الصيف: يوم الخامس عشر من يوليو. نزل أعضاء الفريق التليفزيونى ضيوفا على ماريوس فانسان الذى تحول من التأليف الموسيقى إلى الاشتغال بإدارة سلسلة من المطاعم. كان اللقاء الأول فى أحد مطاعم ماريوس المطل على الميناء القديم، وبحضور الوسيط إنجى وصديقتها (وسيط أيضا) مهندسة الديكور «جانى آشار» التى مارست لفترة طويلة البحث عن الآثار فى منطقة «حمامات جيرو» المشهورة بوجود أشباح فيها، وحضر طعام الغداء أيضا مع المجموعة صديقة حميمة لها: الفلكية «مونيك زانا» التى تهتم كثيرا بالوسطاء النفسيين والتخاطر (الاتصال عن بعد).

بعد الغداء، اعتذر ماريوس عن مصاحبة الفريق التليفزيونى إلى شقته لانشغاله تماما فى شئون المطعم، وأعطاهم مفتاح الشقة المهجورة على وعد باللحاق بهم فى الحادية عشر مساء. إنها شقة تخلو من نصف الأثاث تقريبا، لكن بها مئات التحف واللوحات القديمة ومختلف الأشياء الغريبة غير المتجانسة، تعطى انطباعا بعدم الارتياح. وماذا يفعل هنا فى هذا المكان غير المنسق؟ لا شىء منذ عام ١٩٥٤ حين كان مؤلفا موسيقيا متزوجا. إنها شقة فسيحة أمكن تقسيمها إلى شقتين منفصلتين: إحداهما للعمة لويز، والأخرى للعروسين الشابين. قضى الزوجان ليلة الزفاف فى شقتهما على أمل السفر فى اليوم التالى لقضاء شهر العسل، لكنها فى واقع الأمر كانت ليلة من الجحيم: أصوات صراخ وضوضاء مفزعة، صدامات حادة، أشياء من الأثاث والأدوات تتطاير فى الهواء، ثم تسقط محطمة أو مهشمة بفرقعة مخيفة، حتى إن الكلب

«الكانيش» ظل يعوى ويئن، كأنه يعانى من ألم شديد، أو رعب قاتل.

أسرعا فى الصباح بالهروب إلى إيطاليا وفقا لبرنامج قضاء عطلة الزواج السعيد.. مضى كل شىء فى الرحلة على أحسن حال، ثم كانت العودة إلى بيت الأسرة تغمرهما السعادة والبهجة. فى نفس الليلة للعودة، استيقظ الزوجان على صوت ضوضاء صاخبة ومفاجئة تأتى من ناحية المطبخ: أدوات الطعام والأكواب تتصادم، أطباق توضع برفق على امتداد المائدة، قطع من الأثاث تتحرك وتنتقل من أماكنها. تساءل الزوجان، وهما فى ذعر وانكماش بالسرير: هل العمة لويز تجهز طعاما وتعد المائدة فى الثالثة صباحا؟. تشجعا وتوجها معًا فى حذر شديد إلى المطبخ. كل شىء مرتب فى مكانه. المائدة نظيفة وخالية من الأطباق والأدوات. تسللا إلى شقة العمة لويز. إنها مستغرقة فى النوم ولعلها تستمتع بأحلام لذيذة. هل كانا يحلمان؟. لا. وهل يشتركان فى حلم واحد؟ والدليل: الكلب الكانيش يرتعد من الفزع. هل هى إيحاءات ذكريات فيلم عن الرعب شاهداه من قبل معا؟ أبدا.. فهما لم يذهبا معًا من قبل للسينما.

فى الليالى التالية حدث نفس الشىء، ونفس الهلع الذى أصاب الكلب.. طرقات عنيفة على باب الحجرة. والكلب يهمهم ويتجه نحو الباب، ثم يتراجع بسرعة فى اضطراب. يفتح ماريوس الباب: لا يجد أحدا.. فى الصباح يخبر ماريوس عمته بما حدث، لكنها لا تفهم شيئا. مازال الكلب مضطربا فزعا، يحاول ماريوس تهدئته، فيربْت برفق على رأسه وظهره مع الحذر من أن يعضه. لكن يبدو أن الكلب لم يعد يعرف صاحبه..

لم يكن هناك شك فى أن البيت «مسكون». وذات مساء، رفض الكلب بإصرار أن يدخل حجرة لويز، نظر إليها من بعيد فى خوف وهو يرتعش.. فى الصباح وجدا العمة ميتة فى غرفة المعيشة. ما الذى جعله يرفض أن يتبع لويز إلى حجرتها؟ هل «شاهد» المسكين شبح الموت؟..

تتابعت الأيام والشهور، وتلك الظواهر تتكرر وتزداد كثافة وسوءا. فى

بعض الأيام كان يستقبل ماريوس وزوجته جانين زوجين من أصدقائهما المقربين، فيتناول الجميع طعام الغداء عنه الظهيرة. فى أثناء تناول الوجيه ـ وأحيانا فى بدايتها تغشَى الأربعة معا سِنة من النوم، فيضع كل منهم رأسه على ذراعه المنبسط على المائدة، ثم يستيقَظون بالتتابع، واحدا بعد الآخر، بعد ربع أو ثلث ساعة.. فلما تكرر ذلك ثلاث مرات انقطع الزوجان الصديقان عن الزيارة.. ولم يكن النوم المفاجئ للجميع معا هو السبب الوحيد: فقد شاهد الصديقان وسمعا مرآة الحائط الكبيرة تهتز بعنف، وباب غرفة الطعام يُفتح ويُقفل وحده بشدة. ثم سمعا صوت العمة الراحلة تنادى بصوت خفيض ابن أخيها وزوجته..

فى ليلة أخرى، حضر لزيارة ماريوس بعض الأصدقاء وفى أثناء محادثتهم، سمعوا طرقا بالباب. ذهب ماريوس ليفتح، وفى تلك اللحظة هبت ريح شديدة مزمجرة من داخل الشقة وانطلقت نحو الباب، وكأنها تحول دون فتحه.. وتبع ذلك دقات عنيفة على الحوائط أثارت فزع الحاضرين، ثم طارت صورة كبيرة للمؤلف الموسيقى وهى داخل إطارها الثمين معلقة على الحائط، وتدحرجت كالعجلة حتى اصطدمت بركن الغرفة وتهشم إطارها.

فى مساء يوم آخر، حضر والد جانين لزيارة الأسرة وقضاء العطلة الأسبوعية معها، إلا أنه خرج مهرولا مفزوعا: كان مستلقيا باسترخاء على سرير فى غرفته، وإذا به فجأة يرى أغطية السرير ترتفع وتتكور، ثم تندفع مصطدمة بالباب فى فرقعة مكتومة..

وإبراهيم، السنغالى المسلم صديق ماريوس، جاء للزيارة ضيفا ليومين قبل سفره من مارسيليا ـ التى وصل إليها لتوه ـ إلى باريس. فى مساء يوم وصوله، وكان وحده فى غرفته، قام يؤدى الصلاة متجها نحو قبلة المسلمين إلى مكة (المكرمة). وبينما هو ساجد، سمع صريرا ينبعث من مفرش السرير خلفه. فلما أتم صلاته التفت مندهشا ناحية الصوت، فرأى على حافة السرير سيدة جالسة نظرت إليه بُرهة، ثم قامت تمشى فى اتجاه الحائط.. ثم اختفت، واختفى أيضا ابراهيم.. عن الوعى.

فى الليلة ذاتها، شعر إبراهيم وهو يحاول أن يستجلب النوم، أن يدا باردة

كالثلج تتحسس وجهه وصدره، مما عجل بسفره فى الصباح الباكر.

ورأى ماريوس فيما يرى النائم عمته وهى حزينة قلقة للغاية، لأنها ماتت ولم تُدهن بالزيت المقدس... فاستيقظ من نومه مهموما متحيرا لا يدرى ماذا يفعل. توجه إلى الكنيسة وأخبر القس بما يلاقيه من عذاب فى مسكنه، لكن القس رفض بإصرار قاطع أن يذهب معه لطرد «الشياطين»... فى نهاية المطاف، لم يجد ماريوس وزوجته بديلا عن مغادرة البيت بلا رجعة، وترك به غالبية الأشياء.

لذا.. توجه فريق التليفزيون اليابانى إلى بيت ماريوس بشارع روما، لكنه لم يستطع أن يصور شيئا ذا قيمة، سوى أن جميع الحاضرين - عدا إبينا سان - شعروا فى جلسة الانتظار الصامتة التى تخللتها تمتمات متكررة من «الوسيط» إنجى، شعروا بتنمل كل أطرافهم (الأيدى والأرجل) من حين لآخر، وبتيار شديد من الهواء، فى الغرفة القائمة المغلقة، يندفع من الحائط خلف ظهورهم، ثم يتراجع، وبذبذبات قوية تهز أجسامهم للحظات، ثم تتوقف، وبعدها يسمعون صوت طنين يعلو ويهبط ثم يسكت فجأة. وفى حجرة بالمنزل نوافذها مغلقة، صوروا سريرا هزازا لطفل صغير، يتأرجح تلقائيا - وليس به طفل - لفترة، ثم يتوقف فجأة كأن به فرملة، مع تكرار ذلك..

أثنان فى المجموعة، أو فريق العمل، يستحقان الوقوف عندهما قليلا. أولهما: نى إيكورا سان. إنه شخص متزن، ليس خياليا ولا متطرفا فى إيمانه بغير المحسوسات، على الرغم من معايشته - من خلال البرنامج التليفزيونى الذى يعده ويشرف عليه فى اليابان لفترة زمنية طويلة - لتجارب متعددة فى المواقع، ومشاهداته واتصاله المستمر بالوسطاء. إنه لا يحاور ولا يناقش فى موضوعات الظواهر غير الطبيعية، ولا فيما يفعله الوسطاء، خاصة فى اليابان. إنه يتأمل ويشاهد ما يجرى بتركيز وانتباه، ومهما بدا من تأثيرات أو مؤثرات فى الموقع وعلى الوسيط والحاضرين، فإنه لا يعلّق بشىء، ولا يرفض الاهتمام بأبسط شىء.

أما إبينا سان، فهو يقول صراحة:

ـ لم أشعر بشيء مما حدث للآخرين (من أعضاء الفريق فى المواقع)، لكنى أعترف بإعجابى الشديد بردود الأفعال على «نى إيكورا» واتزانه. ويبدو لى أنه متأثر حقا ومدرك لوجود أشياء «غير طبيعية». إننى على يقين من أن الأشخاص الذين قابلتهم واشتركوا فى العمل، هم جميعا مخلصون أمناء ولا «يمثلون سينمائيا»، لكنى بصراحة نصف مصدق لأقوالهم. ربما لأننى أميل بشدة نحو التفكير العقلى والملاحظة العلمية، ولا أتردد فى أن أضع نفسى تحت التجربة العملية إذا تطلب الأمر ذلك. إننى باختصار لست منحازا، ولا رافضا.

أما عن اليابان ذاتها، فإن الشائع هناك: نزول أرواح الموتى يوم ١٥ أغسطس لمخالطة الأهل والأصدقاء الذين يحتفظون جيدا بذكراهم ويفعلون الخيرات من أجلهم، سواء أكانوا فقراء، أم أغنياء. وفى اليوم التالى ـ ١٦ أغسطس ـ تعود الأرواح إلى عالمها السماوى سعيدة بما لقيت وتلقت من مشاعر الحب فى يوم الزيارة السنوية للأحياء. ومن أجل ذلك اختارت القناة التليفزيونية اليابانية المنتجة لهذا البرنامج، أن يذاع ـ لمدة ساعتين ـ يوم السادس عشر من أغسطس. ومن بين فقراته: إشارة ـ من خلال تحقيق (ريبورتاج) مصور ـ إلى ما حدث فى بريطانيا منذ ثلاثين سنة.

قرر التليفزيون البريطانى إعداد برنامج ـ فى شكل ريبورتاج ـ عن قصر قديم «مسكون» تجرى فيه ظواهر غير طبيعية. وضع فريق العمل الأجهزة فى مواقعها، ومنها كاميرات السينما (لم تكن أجهزة الفيديو مستخدمة بكثرة حينذاك) وجاهزة لالتقاط ما يظهر من «أشباح» أو تأثيراتها. أمام واجهة القصر، آلة تصوير موجهة نحو النوافذ ومتصلة ببقية الأجهزة بالداخل عن طريق دائرة مغلقة، وفى الطابق الثانى بالتحديد، مجموعة من الكاميرات الكبيرة الثقيلة الوزن مركبة على قواعد متحركة. فى نهاية الاستعدادات وقبيل بدء التشغيل، إذا بكاميرا تزن بمحتوياتها، أكثر من مائة كيلو جرام تطير فى الهواء نحو النافذة، فتهشمها، وتندفع إلى الخارج ثم تسقط فى فناء القصر على بعد خطوتين اثنتين من الفنيين. وأثناء عرض البرنامج على الهواء، وأمام

الملايين من المشاهدين: ينشق «فستان» مقدمة البرنامج من أعلى إلى أسفل.. ومن حسن حظها أنه كان من الظهر، وهى واقفة وحدها أمام الكاميرا. بعد قطع سريع على البرنامج ومرور لحظات، عادت المقدمة بفستان آخر تستكمل عرض البرنامج. وفجأة وهى واقفة وحدها بالاستوديو، ينشق الرداء مرة أخرى من أعلى إلى أسفل، وأيضا من الخلف، كأن «أحدا» يستخدم فى شقِّه شفرة (موس) حادة وبدقة بالغة.. وتكرر نفس الشىء للمرة الثالثة.. هل هى مداعبة من «شبح» ظريف؟...

إذن.. يكون مناسبا فى النهاية أن نقول: سايونارا.. أى (وداعًا)، كما يقال فى اليابان..!!.

تحــــدّى اليـــأس

قد نحتفظ جميعا فى الذاكرة بكلمة الزعيم المناضل مصطفى كامل، التى جرت مجرى المثل « لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس». .

فاليأس فعلا قاتل، أو على الأقل يثبط الهمة، يضيع فرصا متاحة قد نغفل عنها فى ساعات الضيق والألم. . والاكتئاب. وما الحياة إلا مزيج من الرضا والغضب، من الراحة والنصَب، من التحدى المستمر، والكدح المستقر. ولم يخطئ شاعر الأندلس صالح بن شريف الرندى حيث قال: «من سَره زمن؛ ساءته أزمان»!.[1]

وهل كان تاريخ الحكمة الإنسانية يتوقع أن تنطلق شرارة الوعى عند بوذا الفيلسوف فيتوهج ذهنه ويتألق، انطلاقا من كلمة جرت على لسان حوذى (سائق عربة أو «عربجى»)؟!.

كان أميرا من بيت أسرة ملكية فى الهند، فخرج يوما من قصره راكبا عربته الفاخرة تجرها الجياد المطهَّمة، فمر فى طريقه بعجوز يائس مبتئس، ثم اعترضته جنازة يشيعها جماعة من العامة حفاة شبه عراة يبكون ويولولون، ثم وقع بصره بعد قليل على مريض بالجذام، متكور على قارعة الطريق تخلت عنه الإنسانية، وما عاد فى سمْت الإنسان، فسأل الأمير سائق العربة:

«لماذا يتألم هؤلاء الناس كل هذا الألم؟». فقال السائق فى عفوية مبهرة «لأن هذه هى الحياة أيها الأمير»!.

---

(١) من قصيدة يرثى فيها ضياع الأندلس مطلعها:

لكـل شىء إذا ما تم نُقصـان ... فلا يُغر بطيب العيش إنسانُ

هى الأمور كما شاهدتها دول ... مَـن سَـرَّه زمن؛ ساءته أزمـان

من تلك اللحظة المضيئة، كان بوذا وكانت البوذية التى يعتنقها اليوم أكثر من ثلاثمائة مليون من سكان الهند والصين واليابان وسيلان وتايلاند وكمبوديا وبورما والتبت ومنغوليا وسيبيريا، بعد ألفين وستمائة سنة من وفاته!.

لا يأس إذن مع الحياة.. حتى لو بدت فى بعض مراحلها قاسية، مؤلمة عاتية قاهرة..

هذه قصة، أو بالاحرى واقعة حدثَت فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، نسوقها إلى كل أم، وأيضا إلى كل أب وكل أسرة تحنو على أبنائها، وتَدْرأ عنهم الأخطار والأشرار ما استطاعت.. فماذا لو كان المرض، وعز الدواء، وخرج الأطباء المتخصصون بأنه.. لا أمل فى شفاء أو نجاة من الموت المقترب؟؟..

إنهما اثنان معاً يصارعان المأساة فى إصرار عجيب عظيم.. قالت الأم «ناديج»: إن ابنتى «أورور» (أى : الفَجر القطبى) أثبتت أن المعجزة قائمة، وأن رحمة السماء فوق قدرات البشر. قالت ذلك بعد أربع سنوات كاملة من المعاناة ونضال التحدى.

عندما وُلدت أورور، كان وزنها نحو ثلاثة كيلو جرامات. طفلة جميلة، أضاءت حياة أمها المظلمة، بالبهجة والأمل، حتى أنها عبَّرت عن شعورها بالفرحة فقالت للممرضة بالمستشفى. «إن أورور سوف تتألق مع بداية القرن القادم، الحادى والعشرين». بدأت الطفلة تنمو فى حيوية وتنطق فى وقت مبكر، فلما انفصل الأب عن الأم، زاد تعلق الطفلة بأمها وأصبحت لصيقة بها. وما أن تجاوزت عامها الأول بقليل، حتى لاحت بوادر الخلل فى مسار الحياة: إن الطفلة تعانى من التهاب فى الغشاء المخاطى بالأنف والحلق: "Rhinapharynigitis" وتكرر ذلك. ولما كانت درجة حرارتها عادية، غير مرتفعة، فإن الطبيب طمأن الأم ولم ير خطرا على صحة الطفلة. لكن الأم لم تهدأ بالا، خاصة وهى تعمل ـ مضطرة ـ فى مطعم طوال النهار، وعندما تغادره فى المساء وتعود إلى ابنتها تراها شاحبة واهنة. أدى قلق الأم إلى اضطرابها فى

النوم والتعود على المعاناة من الكابوس المزعج. بعد فترة من التصبر والتدبر، دفعتها غريزة الأمومة إلى التوجه بابنتها إلى المستشفى وطلبت فحصا شاملا لها، وتقريرا وافيا عن حالتها. اكتشف الأطباء لأول مرة آثار مرض فى القلب. وزيادة فى الحيطة، أرسلوا ناديج وابنتها إلى مستشفى تخصصى للأطفال المرضى، فهناك يكون الفحص أدق والتشخيص أضبط. أحست الأم وهى تتابع الفحص وكأنها تشاهد فيلما دراميا مرعبا يمس جوهر حياتها وحياة «أورور». وعندما فرغت من تهيئة ابنتها للخروج، قال لها الأستاذ كبير الأطباء: «دعى ابنتك تستريح قليلا، وأرجو أن تتبعينى إلى مكتبى».

تركتْ الطفلة فى قاعة بالمستشفى مجهزة للعب الاطفال، بعد أن احتضنتها مهدئة، ثم توجهت وجلة إلى مكتب الأستاذ الطبيب. خلع نظارته، فأدْركت من ملامحه عدم الارتياح، وبدأ يشرح لها باستفاضة لا تخلو من تعبيرات طبية فنية حالة المرض. لم تُطق صبرا، فقاطعته فى لهفة: «يا دكتور هل أنت على وشك أن تقول لى أننى سأفقد ابنتى...؟» فوجئ الأستاذ بالسؤال. لاذ بالصمت.

تحكى ناديج ـ فيما بعد ـ وهى تستعيد الذكريات: «كنت أتعجل أن يخبرنى بشيء مطمئن، أى شيء... ولكن عبثا.. بعد فترة من الصمت القاتل، صارحنى بأن فرصة أورور فى الحياة قصيرة، وفى الظروف الراهنة يعجز الطب عن إجراء عملية جراحية لها. لم استطع أن أمنع نفسى من البكاء. قلت له إن هذه أول مرة أبكى فيها أمام أحد من الناس. جففتُ دموعى وتوجهت نحو ابنتى. كانت تلعب مع بقية الأطفال. لم أرها من قبل بهذه البهجة وتلك الثرثرة. لقد أخبرنى الطبيب أننى فى مواجهة تلك الكارثة لابد من التحمل والصبر. أن أساعدها على الاستمتاع بما تبقى من حياتها قدر ما أستطيع. ها هى أمامى تضحك وتلعب. ولكنى من تلك اللحظة، أدركت أننا معا سوف نبدأ رحلة من الصراع».

عندما رجعَتْ إلى البيت، أخذتْ تفكر فى المعلومات التى تلقتْها من الأستاذ لطبيب وتعيش فى إطارها. إن الضغط المرتفع فى الأوعية الدموية الناتج عن

عيب خِلْقى فى القلب، يسبب لأورور خللا فى التزود بالأكسجين. إن جو باريس ـ التى تسكنها ـ ملوث وينقصه الهواء النقى.

بعد ثلاثة أيام، كانت الأم وابنتها المسكينة فى القطار المتجه إلى الجنوب. وبمساعدة من صاحب المطعم التى كانت تعمل به الأم، التحقت بمصنع للحلوى فى ضواحى مدينة مارسيليا، واستقدمت ناديج والدتها ليقيم ثلاثتهم فى شقة صغيرة بالدور الأرضى ببيت قرب المصنع به حديقة محدودة المساحة، لكنها على أية حال حديقة مشمسة، بها أُرجوحه. إنه سباق مع الزمن. وهو لا يخلو من أمل: فهنا فى مارسيليا وغير بعيد من هذا المسكن الجديد، تعيش «فيتريا» منذ نحو عشرين سنة بقلب نُقل إليها، بدلا من قلبها الذى تلف تماما. إنها حالة إيجابية يعرفها الجميع، وفيها بريق من رجاء! وفى مارسيليا ذاتها الطبيب الأستاذ «مونتى» الشهير ببحوثه فى نقل أو زراعة الأعضاء. لم تتردد الأم. أمام البروفوسير مونتى جلست صامتة تستمع لقراره الصارم: فى هذه المرحلة من الدراسات والبحوث، مازال نقل القلب والرئتين معا فى مجال التجربة، خاصة بالنسبة لسن أورور، ثم قال الطبيب: «عليكِ وحدك يقع عبء تدعيم حياتها. أنت الان أفضل طبيب بالنسبة لها...». يا له من قرار حاسم يقصم الظهر!

زودها الأستاذ الطبيب بقائمة من التعليمات: لابد أن تتجنب أورور تلوث الهواء، والأماكن المرتفعة، واجتناب الاتصال بالأطفال، حتى لا تصاب بعدوى، وحمايتها من أى انفعال شديد أو صدمة نفسية. باستطاعة الأم أن تلتزم بتنفيذ كل هذه التعليمات.. إلا أنها اختارت أن تمارس «مباراة» التحدى مع الحياة بكل أوراقها مكشوفة: بإحساسها فقط ـ إحساس الأم ـ وهو الذى سيوجهها، وليكن ما يكون: إذنْ لتحيا ابنتها مثل كل الأطفال.

لم ترسلها إلى مدرسة: لكنها تشارك الأطفال ألعابهم. الدليل الوحيد على مرضها: أطراف يديها .ورجليها زرقاء اللون، وشفتاها تميلان إلى السواد، فالدورة الدموية فى جسمها مضطربة. برعاية الأم الشديدة اليقظة، لم تُصب أورور بمرض أو عدوى طوال عامين مما يُصاب به الأطفال عادة.

ظلت الأُم متقدة الذهن مفتحة العين على ابنتها، فهى تدرك تماما أن أورور يمكن أن يَدْهمها الاختناق فى أية لحظة. راحت تكتب وتتوسل إلى كل من تسمع عنه من مشاهير الأطباء فى العالم: فمثلا، سافر ملف أوراق وتقارير وفحوص أورور إلى البروفيسور «شونواى» بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو أحد الرواد فى جراحات نقل القلب. وفى كل مرة يأتى الرد إلى ناديج قاسيا لا يرحم: إن حالة أورور ميئوس منها، ويستحيل إجراء جراحة لها.

تقول الأم: «كان الموقف أشبه بمباراة فى الملاكمة. أتلقى ضربات، ثم انتبه واقف لأتلقى ضربات جديدة. قلت لنفسى: لا يجب أن أترنح أو أنهار، فحياة البُنية تعتمد على: إذا ما سقطْتُ سقطَتْ معى. كنت أعلم أننى قد أفقدها فى أية لحظة فى ساعة ما، اليوم أو غدا. وفى كل مرة كنت أجد عندى بعض القوة تتركز حول فكرة وحيدة: إنقاذها....».

كبرت الآن أورور. أدركت خطورة حالتها، وهذا الإدراك عجَّل بنضجها مبكرا... ففى زيارة ذات يوم للتأمين الصحى علمت المسكينة بالحكم الصادر عليها. فقد تكلم موظف أحمق بالتأمين الصحى أمام الطفلة بكلمات غبية بشعة فوجئَتْ بها. قال على مسمع منها: ماذا تنتظرين يا سيدتى لإنجاب طفل آخر؟ إن ابنتك على وشك الموت......!

رفعتْ أورور عينها نحو أمها فى تساؤل وحيرة وأخذت تبكى. تقول الأم: «لم أستطع أن أقول لها إن هذا غير صحيح، لكننى حاولت أن أطمئنها. قلت لها فى هدوء وثقة: سوف نجد طبيبا حاذقا يا أورور. إننى أعدك بذلك. لسوف نجده. وهكذا علمت أورور بتفاصيل مرضها. بذلتُ جهدا بعد ذلك لكى أُخفى عنها حيرتى وقلقى حتى تمضى الحياة بصورة طبيعية».

انتقلت ناديج مع أورور إلى قرية تسطع فيها الشمس وتحيط بها شجيرات الكروم (العنب) وأشجار الصنوبر القصيرة، ويتجدد هواؤها برياح الشمس المنعشة. إنهما يسكنان حجرة واحدة. وعين الأم لا تغفل كل ليلة ولا تنام إلا إذا اطمأنت على تنفس ابنتها. بعد فترة لاحظت أن أنفاس أورور المتثاقلة

تحولتْ إلى لهثات متسارعة، لكنها ليست قوية، وبها صفير خافت. إن هواء التنفس لا يدخل بسهولة فى رئتى أورور. إن المسكينة الصغيرة تختنق. جزعت ناديج. أسرعت تطلب الإسعاف الذى رفض نقل الطفلة إلى المستشفى لخطورة حالتها التى لا تتحمل النقل. كادت الأم أن تُجن. وجدت النجدة فى التأمين الصحى الذى أسرع بنقلها إلى المستشفى. الحالة خطيرة. إن كل سنة مرت بها كانت بمثابة نجاح وانتصار على الموت. أما الآن، فلابد من عمل سريع.

عندما أفلحت أورور فى إطفاء الشمعة الخامسة فى عيد ميلادها، كان النبأ السعيد يغمر الأم بالأمل والفرحة: تَمَّت أول عملية جراحية فى إنجلترا، لنقل قلب ورئتين معا لفتاة صغيرة أسترالية فى نفس سن أورور تقريبا، ومصابة بنفس حالتها المرضِية. والطبيب البارع الذى نجح فى ذلك هو الجراح المصرى «مجدى يعقوب» المتخصص الشهير فى هذا المجال، والذى أجرى بنجاح عشرات الجراحات الصعبة. لم تضيع ناديج لحظة.

اتصلت بالأستاذ الطبيب فى لندن، وطمأنها. لكن ظهرت مشكلة: فتكاليف الجراحة والعلاج فى بريطانيا باهظة، لا قُدرة للأم عليها. ورفض التأمين الصحى تحمل الإنفاق، لأن الجراحة ستتم فى لندن بمستشفى خاص غير حكومى، وقانون التأمين الصحى لا يسمح بذلك. لم تعجز الأم. كتبت رسالة مفتوحة نشرتها عدة صحف تستصرخ فيها ضمائر القادرين على مساعدة أورور فى محنتها. ولم تنتظر. أخذت تنتقل من قرية إلى قرية ومعها مقعد صغير من القماش ومنضدة صغيرة مطوية، فتجلس وبجوارها صورة كبيرة لابنتها أورور، وكلمات موجزة بخط كبير تناشد أهل المروءة والنجدة. إنها لا تتورع عن عمل أى شىء، حتى ولو كان الاستجداء، لإنقاذ حياة طفلتها التى يطاردها الموت. اتصل بها بعض كبار الفنانين يبدون استعدادهم للإسهام، والأمير رنيه، أمير موناكو... بعد أيام، كانت ناديج وأورور فى القطار المتجه إلى لندن (بعد عبور بحر المانش) وتكفل تجار من القرية التى تسكنانها بنفقات السفر. مازال الناس بخير!.

على رصيف المحطة فى لندن سألت أورور أمها، وهى تشير إلى الكلب

الصغير ـ اللعبة ـ الذى بيدها «ماذا نسميه يا أمى؟». «النصر». نعم النصر، لأننا على وشك الفوز.

تقول ناديج: منذ اللقاء الأول مع الدكتور يعقوب شعرتُ أخيراً بالراحة والاطمئنان، وتضاعفت شجاعتى. قال لى فى ثقة: «ليست توجد حالة ميئوس منها. هناك دائما أمل». . . . .

أول كلماته مبشرة متفائلة. كنت أتلهف على سماعه من سنوات. ترددت أورور مع أمها على لندن ثلاث مرات لإجراء فحوص واختبارات. إن الأموال التى تجمعت من الخيرين لتوضع تحت تصرف أورور كانت كافية لتغطية نفقات تلك المرحلة، بما فيها طائرة صغيرة طبية خاصة مجهزة وبها طبيب طوارئ للمراقبة أثناء الرحلة. الأمر الآن يتوقف على فترة انتظار الحصول على قلب ورئتين من شخص حديث الوفاة لنقلها إلى جسم أورور ولا يرفضها. وليس هذا متعذرا فى إنجلترا. . فحوادث السيارات فى الأسفار يروح ضحيتها الكثيرون. ونتيجة لحملات صحافية مكثفة، أصبح شائعا فى أوروبا أن يَحمل عدد كبير من سائقى السيارات طواعية مع ترخيص القيادة موافقة على منح أعضاء سليمة من أجسامهم، إذا أدركتهم الوفاة نتيجة حادث بالسيارة، إلى من يحتاجون إلى تلك الأعضاء من المرض ذوى الحالات الحرجة المسجلين على قائمة الانتظار. ولكن لحسن الحظ، الأطفال الذين يتوفون فى حوادث السيارات، قليل عددهم.

ثم تحدد موعد إجراء العملية الجراحية عند وصول قلب ورئة ملائمين من إيطاليا، لكن إجراءات الجمارك العقيمة فى لندن استغرقت وقتا أطول مما يجب بالنسبة لسلامة القلب والرئة (فهى لا يجب أن تطول أكثر من ساعات معدودة) فألغى إجراء الجراحة.

بعد أسبوع جاء الفرج. فى كلمات بسيطة، شرحت الأم لابنتها ما سوف يحدث، وأن الأمر ليس سهلا، ولا يخلو من خطر، ولكنها (الأم) راضية تماما لسببين: أن الحب المتبادل بينهما تفوّق على كل الآلام والأحزان والصعاب واليأس. والأمر الثانى: أنها فعلت كل ما تستطيع من أجل المحبوبة الغالية

أورور. استأذنت الطفلة من الطبيب أن تحمل معها إلى غرفة الجراحة الكلب اللعبة الصغير «النصر» وكانت لفتة بارعة من الأستاذ الطبيب البارع «مجدى يعقوب» أن يأمر بوضع قناع واقٍ للكلب إرضاء لأورور، وزيادة فى طمأنتها. وظلت الأم بجوارها.

فى الرابعة والنصف عصرا انتهت العملية الجراحية، ثم نُقلت الطفلة إلى قسم العناية الخاصة أو المركَّزة. وعندما فَتحت عينيها بعد ذلك، وجدتْ أمامها وجه أمها الواجلة عليها. أمسكت الأم بيديها وضغطت برفق، حانية عليها. ورغم أن أورور مازالت تحت تأثير المخدر وموصولة بأنابيب التنفس المساعدة، إلا أن الأم لم تتوقف عن مخاطبتها بعبارات ودودة مشجعة. وعندما أفاقت الابنة تماما قالت لها الأم، وعينها تدمع: «إننا على وشك الفوز يا حبيبتى»، فردت أورور: «لا ياأمى، إننا فزنا بالفعل»!.

فى اليوم التالى، عندما نُزعت عنها الأنابيب وأصبحت تتنفس تنفسا طبيعيا، نظرتْ إلى يديها وقدميها. لقد زال عنها اللون القاتم الكئيب إلى غير رجعة. وبعد نحو أسبوعين كانت فى طريقها إلى مسكنها فى فرنسا، وألحقتها مثل بقية الاطفال بالمدرسة.

«لقد عشتُ أقسَى وأحلىَ أيام حياتى» هكذا قالت الأم. ولم تتوقف عند هذا الحد وتكتفى. كوَّنت جمعية لرعاية الأطفال الذين يصابون بمثل الحالة التى عانت منها ابنتها وتقديم المساعدة الممكنة لهؤلاء وأسرهم. قالت: «إننى على استعداد لأن أنزل إلى الطرقات - إذا ما دعت الحاجة - لكى أستجدى الناس وأجمع الأموال من أجل هؤلاء، لأننى عشت المأساة فى مثل تلك الحالة....».

نعم يا سيدتى!، فقديما قال أهل الصفاء والنقاء: من ذاق عرف!.

عمر طويل، وشـــباب دائـــم

ألا ليت الشباب يعود يوما......!؟.

موضوع قديم سقيم عقيم متجدد!..

أن يعيش المرء مائة، مائتين، ثلاثمائة عام.. ، لا يضعف ولا يهرم ولا يشيخ، بل يظل فى قوة الشباب، وعزم الفتوة، وتدفق الفحولة، وإنجاب الصبايا، ونضارة العذارى، وصمود الجُزر (الإبل).

حلم عند البعض قديم، أو قل: وهْم يروِّج له ماكر لئيم، لأن الإنسان العاقل المدرك الرشيد، يرى الكون والمخلوقات من حوله تمضى على نهج واضح صارم مكرور: ميلاد بضَعف، ثم نماء بلطف، فاكتمال مع شدة، وصلابة فى قوة، ثم انحدار عن الذروة إلى الغثاثة والهشاشة والوهنَ.. فالموت..

وحتى فى الظواهر الطبيعية: الشمس مثلا، نراها كل يوم تشرق غيرها فى الضحى، غيرها عند الظهيرة، غيرها مع العصر، غيرها حين تغرب وهى هى الشمس، فى ذاتها لم تتغير ولم تتحور، لكنها تذكرنا على الدوام بأن البداية ضَعف، يُفضى إلى قَصْف (شدة)، يؤول إلى حذْف. سُنة الله فى الخلق، ولن تجد لسنته تبديلا.

فى ديسمبر ١٩٩٦، نشرت مجلة «تايم Time» الأمريكية العالمية موضوعا رئيسيا فى عدة صفحات، تحت عنوان كبير، خُصصت له صورة الغلاف: «هل باستطاعتنا أن نطيل شبابنا؟!. وتحت هذا العنوان الكبير تفسير يمهد لعرض الموضوع يقول: بدأ العلماء بالفعل فى كشف منغلق أسرار الشيخوخة، وفضلا عن ذلك.. اكتشاف كيفية مدى احتمال قدرتنا على تجنبها». وخلاصة التحقيق

الصحفى، أن العلماء البيولوجيين وهم يبحثون فى مجاهيل الجينات بجامعات ومختبرات الشمال الأمريكى، قدروا أن الإنسان يمكن أن يمتد به العمر ويعيش إلى ٤٥٠ سنة!، وأن معدلات طول العمر تمضى متصاعدة منذ بداية القرن العشرين حتى آخره، بالنسبة للمواطن الأمريكى، باستثناء فترة بسيطة بين عامى ١٩١٨ و ١٩١٩ حين انتشر مرض الإنفلونزا عالميا، وأهلك فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها نحو نصف مليون مواطن. ففى عام ١٩٠٠ كان الطفل الأمريكى يُتوقع له أن يعيش إلى سن السابعة والأربعين. فى سنة ١٩٠٦ بدأ انتشار تطبيق نظرية استخدام الفيتامينات؛ وزاد متوسط العمر، وفى عام ١٩٢٨ اكتشف (ألكسندر فلمنج) البنيسيلين أول مضاد حيوى، فارتفعت كثيرا معدلات السن، وفى عام ١٩٥٥ بدأ فى أمريكا تطعيم الأطفال بمصل ضد شلل الأطفال الذى ابتكره د. سولك. وفى عام ١٩٦٤ بدأت الحملات الإعلامية المكثفة للتعريف بمضار التدخين.

ونصل فى النهاية إلى أن الطفل الأمريكى المولود فى العقد الأخير من القرن العشرين يُتوقع له أن يعيش إلى سن السادسة والسبعين، وأن البحث المعملى فى فك ألغاز الجينات والكروموسومات والخلايا وما تحوى من مكونات (خاصة البرَوتين وحامض DNA) سيؤدى إلى اكتشاف وسائل (وقائية ودوائية) تجعل من الميسور أن يمتد عُمر المرء إلى مائة وخمسين سنة.. على الأقل!، وأيضا: فى الولايات المتحدة ـ ولابد أن يكون فيها، لا فى غيرها! ـ يوجد الآن بالفعل ستون جثة، اختار أصحابها أن تحفظ كل منها فى خزان معبأ بالنيتروجين المبرد إلى درجة ٢٧٠ تحت الصفر، حتى إذا تقدم البحث العلمى وتوصل العلماء إلى وسيلة «لبعث الحياة» فى الخلية الميتة، قاموا هم من خزانتهم الباردة وعادوا إلى ممارسة الحياة! وهذا «التخزين البارد» يتكلف نحو نصف مليون دولارا. ونسى هؤلاء الأموات أن يسألوا قبل تخزينهم: وإلى متى سيعيشون بعد عودتهم إلى الحياة إن عادوا!. وهل ستستمر عملية «التخزين الباردة» هذه إلى ما لا نهاية؟؟!.

وتخرج من الموضوع، كما دخلت، باقتناعك ـ إن تدبرت وفطنت ـ بأن

الشطط أحيانا ينزلق إلى المخاتلة (الخداع) والزيف، ويا حسرة على العباد الذين يضيعون الجهود والأموال فيما يبدو ضرره أكثر من نفعه على الإطلاق، فى وقت يئن فيه العالم كله من المظالم والآلام والضغوط والمجاعات والحروب. . .

الطريف والحصيف معا، أنه بعد أسبوعين من بسط هذا الموضوع، نشرت المجلة نخبة من رسائل القراء ـ كعادتها ـ تعليقا على ما جاء فيه. وهذا هو المهم، أو الأهم: فالمعروف أن رسائل القراء إلى الصحف تتنوع بين مؤيد ومعارض، بين محبِّذ أو رافض، ويشكر لهذه المجلة أنها غالبا ما تنشر لهؤلاء وهؤلاء، إلا أنه فى هذا الموضوع بالذات، نلاحظ أن ما نشر للقراء جميعا يكاد يتفق فى الرأى أو وجهة النظر، وهم من بلاد شتى وقارات متباعدة. والغالب أن المجلة لم يصلها ما يناقض رأى هؤلاء. ومن بينهم شاب حرص أن يذكر مع اسمه أنه فى سن الثامنة عشرة، فجاء بتعليقٌ موجز طريف حصيف. وهذه نماذج من تعلقاتهم.

* أى إنسان سليم العقل يتمنى أن تتضاعف فترة امتداد عمره إلى مائة وخمسين سنة؟. لماذا نضاعف وجود الناس فى فترة زمنية بينما الأرض تئن بشدة من مضاعفة أعداد المتعطلين، والفقراء والحروب؟ لا! شكرا!. دعونا نعمل على تحسين الحياة، فذلك أفضل من الاستغراق فى البحث عن مقدار الحياة المستقبلية. إننى واحدة من أولئك الذين ينظرون إلى حياة أخرى بعد هذه ،والتى من المؤكد أنها أفضل.

جلندا فلوويك ـ ألمانيا. . .

* أنا أحب العلماء. إنهم حقا بعض النجوم الزاهرة. وبدونهم قد تصبح الحياة أقرب إلى الجحيم. . . لقد أفزعنى أن أرى العلماء سلكوا طريقا آخر يتيح للمتخم بالثراء أن يرث ما تبقى من الأرض. . لذا. . أقول للأغنياء والمشاهير. . حظ سعيد!. استمتعوا بحياة شابة طويلة وبما يمكن أن تشتريه أموالكم. واجتهدوا أن تصيروا مثل أثاثكم ومفروشاتكم وتحفكم العتيقة، وغيروا من أعضاء أجسامكم التالفة مثلما تغيرون سياراتكم الفارهة. اجمعوا ما

تركه غيركم من ثروات الأرض، حتى ولو كانت الأبقار المريضة بالجنون أو إفرازات مختبرات البحث العلمى فى الجينات، وما أنتجته من ضفادع ذات ثلاثة عيون وتسعة أرجل ، وأشجار بلا أوراق!. .

كورا ديكسون ـ مدينة نيويورك

* إن مقالكم غير مجْد. فكل إنسان منا سيظل عرضة لموت محتوم فى يوم ما. إننا فى أمريكا تحيطنا تشويهات الموت. نحن بحاجة إلى النِضال المثمر فى مواجهة تلك الحقيقة. . . يمكننا أن نعيش ونموت معبِّرين عن أفضل صفاتنا الإنسانية. أما البحث عن الشباب الدائم، فإنه لا يثمر تلك النتيجة.

كين سيس ـ مدير نظام سابق

سان جوزيف الصحى ـ كاليفورنيا

* على الرغم من أن فترة العمر الإنسانية امتطَّت مأساويا خلال القرن الماضى، إلا أن الذى لم يتحقق بالنسبة لمعظم الناس هو تحسين نوعية الحياة. وبالرغم من أن ملايين البشر استغاثت من النتائج الطبية (وغيرها) التكنولوجية، فإن الاهتمام الأكبر تركز على التطبيقات العلمية والعملية أكثر من العناية بالقيم الأخلاقية وأبعادها مع الاستخدام التكنولوجى. لقد حاول الإنسان بطريقة أو أخرى المراوغة والخداع مع الموت.

إن البحث عن نبع الشباب باستخدام شد الوجه، ومساحيق التجميل، وسدس الدهون، ووجبات التخسيس، كلها تشترك فى الهدف وهو تجنب الشيخوخة، وبالنهاية: الموت. وبدلا من تعلم كيفية إثراء الحياة فى اتجاه ذى معنى، نُصر على إطالتها كما هى، وهذا يؤدى إلى النرجسية. لعل من الأفضل أن نجد وقتا لقراءة قصة أوسكار وايلد «دوريان جراى»

ستفن واتكنز ـ الفلبين. .

* «شباب إلى الأبد»؟ لابد أنكم تريدون إغاظتنا. إنه عنوان جيد يجذب الأنظار، إلا أن الحقيقة هى: بعد إثارة المشاعر والخيال فإن المصير المحترم واقع

لا محالة. من فضلكم فكروا فى ملايين شخصيات قصة «دوريان جراى» الذين يسيرون فى الأرض على حافة الموت بحثا عن خبرات أو مهارات جديدة.

فكروا فى خلود شباب كلينتون (الرئيس الأمريكى الحالى)، وخلود شباب كاسترو (الرئيس الكوبى الاشتراكى)! ومع ذلك فلابد لى أن أسلِّم بأن خلود شباب كلوديا شيفر (من أشهر عارضات الأزياء) أكثر بهجة وإثارة!. إن هذا عبث وهراء. دعونا نمضى قدما لكى نجعل المسنين أفضل وأبهج، وأن نترك مكانا كافيا للقادمين بعدنا. إن «سلسلة الحياة» لا يجب أن تتلاحم، وإنما: عِشْ ودع غيرك يموت!، أو مُت ودع غيرك يعيش!.

وليام بولن ـ سنتياجو (شيلى)

* إن مشكلة العالم الكبرى هى عدم تسامح المرء إزاء الآخر. عندما هزمنا الوضع الاجتماعى، استطعنا أن نبرر أخلاقيا ترف العبث بطبيعة الموت، وهو عملية طبيعية تماما مثل الميلاد.. إننا على وشك انفجار سكانى. انظروا حولكم.

س. هاميلتون ـ كندا..

* إن الشيخوخة يستحيل تجنبها. لا يوجد نبع دائم للشباب.. فلْندع ما يكون لما هو كائن. لست أريد لأبنائى أن يعيشوا لمائة وعشرين سنة أو أكثر، فحينئذ سوف يعانون ثلاثة أو أربعة أضعاف الآلام. لماذا يبحث العلم عن وسائل تجعلنا فى شباب دائم؟.

جون بيتون ـ كندا

* إن أكبر السلبيات وضوحا، المترتبة على مأساة إطالة فترة الحياة هى زيادة مشكلة التضخم السكانى سوءا. وماذا عن الصراعات بين الشباب والمسنين حين يرغب الشباب فى الحصول على أعمال؟... وبما أن محاولات التغلب على الشيخوخة هى فى معظمها باهظة التكاليف، إذن فالفجوة سوف تتسع أكثر بين الأثرياء القادرين طويلى العمر، وبين الفقراء الهالكين.

وأخيرا.. فإن الذى سيعيش إلى سن المائة والعشرين، سيجد لزاما عليه أن يكد ويعمل معظم هذه السنين، لكى يحافظ على حياته.. فهل تريد حقا أن تجد عملا يرحب بك وأنت فى سن المائة وخمس عشرة سنة؟.

بوب شامبرز ـ سان ديجيو (الولايات المتحدة)

* بدلا من إنفاق الوقت، والجهد، وصُرة من الأموال فى اللعب ـ بالمختبرات ـ مع الحشرات والفئران، بحثا عن نبع فياض لا ينضب من الشباب والفتوة، لماذا لا يكون التفكير فى استئصال ما بالعالم من مرض ومجاعة، تلك التى تقصِّر لأعمار الملايين من البشر؟. يا هؤلاء! دعونا نمضى إلى ما هو أبعد من ذلك.. لماذا لا نُوجه من جديد كل هذه الجهود العلمية نحو إطالة حياة كوكبنا (الأرضى)؟، وبغير ذلك لا يأمل فى البقاء على قيد الحياة ـ على المدى البعيد ـ لا المواليد الجدد، ولا أى إنسان آخر. إن الموت ليس مأساة، لأنه جزء من الحياة، ومحاولة منعه، هى مقاومة (عابثة) للقوى الطبيعية التى لا تُقهر.

زوى فون نوستيتز ـ تات. السن ١٨ سنة

ليمو ـ فرنسا

تأملات فى الفصل الأخير من الحياة

«تختلف حياة كل إنسان عن أى حياة أخرى لإنسان سبقه. وهكذا يكون الموت. وإن تفرد كل منا يمتد أيضا إلى الحالة التى عليها نموت.

ومع أن معظم الناس يعلمون أن مختلف الأمراض تحملنا إلى ساعاتنا الأخيرة عبر مسالك متنوعة، إلا أن القليلين جدا منهم يفهمون تماما، وبكل دقة وتحديد، تلك الأساليب التى لا تُحصى عددا، وبها تُنتزع الروح الإنسانية، وتنفصل عن الجسم.. فمظاهر اختلاف موت كل فرد تتميز تماما مثلما تتميز ملامح وجه كل منا، كما تبدو فى حياتنا اليومية.

لسوف يُذْعن كل رجل ويُسْلم الروح بطريقة لم تكررها السماء من قبل، وكل امرأة سوف تسْلك سبيلها الأخير بأسلوبها الخاص».

بهذا الاستهلال البليغ الحصيف المثير، يبدأ مؤلف الكتاب القيم «كيف نموت»، الفصل الأول من فصوله التى تتتابع شيقة مبهرة فى أكثر من مائتين وخمسين صفحة كبيرة[1]. والمؤلف ليس مغمورا، ولا بسيطا هينا: فهو فى تخصصه الطبى بلغ الذروة على المستوى العالمى، لأنه أستاذ الجراحة وتاريخ الطب بجامعة ييل، وهى من أفضل وأشهر الجامعات الأمريكية، وقضى نحو نصف قرن فى تخصصه.. وهو على المستوى الفكرى من القمة، لأنه رئيس مجلس إدارة صحف ومجلات علمية رصينة متخصصة مثل: «تاريخ الطب»، «اتحاد العلوم».. وله من المؤلفات كثير، من أبرزها «أصول التخدير» ويحتل مكانا متميزا فى المكتبة الطبية الكلاسيكية، وهذا الكتاب. إنه دكتور (أو بروفيسور) ـ شروين نولاند.

(١) تعريب الكتاب تحت الطبع، وسيظهر قريبا ـ بإذن الله ـ بين منشورات الدار.

«كيف نموت» كتاب علمى أدبى رفيع المستوى، يضيف جديدا إلى المعنىّ بشئون الطب، ويفيد كثيرا الباحث عن المعرفة والثقافة الراقية، ويفتح القلوب والأذهان - لكل قارىء - على حقائق وإيحاءات ربما يطالعها لأول مرة، وربما سمع شيئا مهما عنها، وربما كان يخشى أن يواجهها ويقترب منها. لكن دكتور «نولاند» يعرض بدقة وحصافة ووضوح - وبأسلوب فى لغته بليغ - ولا يخفى إيمانه بربه واحترامه لعقيدته، وهذه إضافة تُذكر فتُشكر.

والموضوع الذى يتناوله قد يبدو «مخيفا» «مفزعا»! فمن منا يطرب أو يبتهج ويفرح عندما سماع كلمة «الموت»؟ فما بالنا إذا كان الكتاب كله يبحث وينقب ويتحسس ويتفحص أحوال وبواعث وظواهر وأفاعيل الموت؟! من عجب أن الإنسان سواء فى جده، أم لهوه، فى مشغلته أو فراغه، يتحاشى أن يفكر بعمق، ويتجنب أن يتأمل باستفاضة فى أخطر ساعة فى حياته كلها التى لا مفر له من مواجهتها: ساعة الموت. وفرق بين الموت ذاته كحالة أو كظاهرة، وبين ساعة (أو لحظة) الموت كمباشرة عملية «طبيعية» واقعة.

نقول «طبيعية»، لأن الغالب الشائع بين الناس، أن للموت أسباباً ومبررات، مرَضية أو عضوية أو بيولوجية: فتوقف القلب عن الأوامر، والمخ عن العمل، والكبد عن النشاط، والخلايا عن الانقسام والغدد عن الإفراز، والكليتين عن الوظيفة.. كل ذلك يُفضى حقا إلى الهلاك إلى موت الجسم كله. ولكن، وهذا ما يجب أن يوضع فى الاعتبار، قد يأتى الموت «فعلا طبيعيا»، ذاتيا لا نتيجة، فتحدث كل هذه «الأعطال» والاضطرابات المدمرة فى الجسم، فتنسحب الروح متحررة إلى خالقها، تماما كما ينقطع التيار الكهربى فجأة، فيسحب على الفور النور والدفء. لذا: لا ضمان ولا رهان.. فالممتلئ صحة يموت، وكذلك المريض. والشاب الفتى يموت، وكذلك الشيخ العجوز، والطفل السليم يموت، وكذلك الطفل العليل. وقد يذهب الصحيح الشديد، ويبقى المريض الضعيف، ويهلك القوى الفتىّ، ويعمر الواهن الخلىّ.

ومن خلال التناول والعرض، يصرح د. نولند بعدم ارتياحه إلى المحاولات البائسة اليائسة فى «غرف الإنعاش» أو العناية المركزة عندما يدخل المرء فى

مرحلة الاحتضار الواضحة المعالم، ويَعتبر (د. نولند) ذلك إهانه وموتا بلا كرامة: لأن الإنسان فى هذا الموقف أو فى تلك الظروف يكون فى أيدى غرباء عنه، لا يعرفهم ولا يعرفونه. هم حقا أمناء مخلصون فى أداء عملهم أو وظيفتهم، لكنهم منصرفون إلى التعامل مع «الحالة» التى بين أيديهم، وليس إلى «الإنسان» الفريد الشخصية والماضى والتاريخ والفكر والقيمة. ولا لوم عليهم فى ذلك ولا تثريب ـ ثم إنه فى ساعة الوداع الأخير، فى لحظات الخروج من دنيا الناس والأحباب والأهل والأصدقاء الذين عاش معهم وبهم عمرا أو سنوات، يفتقد هؤلاء جميعا بعزلته عنهم، وانقطاعه عن الاتصال بهم والإحساس بدفء مشاعرهم. وهم بدورهم يزدادون ألما وحسرة وغما، لاصطدامهم بهذا الجدار القاتم القاسى الذى يحول بينهم وبين الإفضاء إليه بصدق مشاعرهم ونبل مؤازرتهم، فى ساعة المحنة والاستسلام.

من بين سطور الكتاب، نستشف آراء مبتكرة، وإيحاءات طريفة تلفت النظر، منها مثلا: أن الخلية المخصَّبة الأولى التى سيتكون منها الانسان الجديد، تحمل فى ثناياها قبل الانقسام ما يشبه شريط التسجيل، يبدأ فى الدوران (أو التشغيل) مع بداية الإخصاب، ومع انقسام الخلية الأولى إلى اثنتين، ثم فى كل انقسام بعد ذلك تحمل كل خلية جديدة نسخة من هذا الشريط، الذى يستمر فى التشغيل حتى آخر لحظة أو آخر نَفَس، فإذا توقف الشريط، وقفت فى الخلايا الحياة، وكان الموت! ونحن من جانبنا مع الذين يؤمنون بقول خالق الموت والحياة: «قل يتوفاكم مَلَك الموت الذى وُكِّل بكم ثم إلى ربكم تُرجعون»[١].

وهنا، نشير إلى ما يبديه د. شروين نولاند، إلى أهمية الجانب العقائدى الروحى فى كيان الإنسان وتأثيره الإيجابى فى صحته ومرضه وعند استقبال الموت، لأنه لا يعتبر «الموت» ذاته كارثة طارئة، أو خطأ مدمرا، ولا «عُطلاً فى التشغيل»، وإنما هو يأتى فعلا طبيعيا عاديا، تماما كالميلاد، والنمو، والتكاثر، والهضم والتنفسى... فلماذا يكون الجزع إذن والفزع؟!...

(١) سورة السجدة ـ الآية ١١.

عند فقد عزيز أو حبيب صديق، يحق لنا أن نَحْزن وندمَع، ولكن لا يجب أن نجْزع ونسخط، فالموت حق وحقيقة، والرحيل الأخير حتم ولا حيلة، وقدوتنا فى ذلك خاتم الأنبياء صلوات الله عليه حين مات ابنه إبراهيم قال: «إن العين تدْمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

هذه مقتطفات من مقدمة الكتاب وخاتمته، وقد نقلناها إلى قراء العربية:

يريد كل امرئ أن يعرف تفاصيل حالة الموت. ومع ذلك فقليلون أولئك الذين يرغبون فى الحديث عنها. وسواء أكنا نتوقع الأحداث المرتبطة بمرضنا النهائى، أم كنا نفضل معرفة ما يَحدث لشخص عزيز علينا دهمه مرض قاتل، أو بعيدا عن ذلك كله بدافع الحساسية المفرطة والمثيرة التى نشترك فيها جميعا تجاه الموت، فإننا لا نقاوم الإصغاء إلى الأفكار والأخبار المتعلقة بنهاية الحياة. ويظل الموت بالنسبة لمعظم الناس سرا خافيا، محركا للمشاعر، للعاطفة والجنس، وأيضا للخشية والفزع.

إننا نميل بشدة لا تُقاوم نحو الأمور المخيفة التى تُثيرنا بقوة، فننجذب نحوها بغريزة فطرية تَصدر عن بواعث الإحساس بالرعب عند الخطر.. فالفرق حقا بسيط بين حشرات العثة ولهيب الحرائق، بين الكائن البشرى والموت.

نفسيا، ليس بمقدور أحد منا أن يُساير فكره فى تصور حالته عند الموت، فى تخيل مرحلة اللاوعى الأبدى، حيث لا شعور ولا نفَس، وإنما ببساطة شديدة: جَدْب وخواء. . لا شىء - ويبدو أنه أمر يختلف عن «اللاشىء» الذى يسبق الحياة.

وكما هو الشأن فى كل ما يلوح من خوف مغاير، وكل ما يظهر من إغراء مُناظر، فإننا نجهد فى البحث عن وسائل لانكار سطوة الموت وقبضته الباردة التى يُحكم بها السيطرة على فكر المرء، مثل ما يفعل بجسده. إن إحكامه الصارم الدقيق، واقترابه الدائم مع وطْأته الثقيلة، كل ذلك كان ملهما لاتخاذ أساليب تقليدية نحاول بها - عن وعى، أو دون أن نعى - إخفاء حقيقته، كما

نفعل فى الحكايات الشعبية، فى الاستعارات الأدبية، فى الأحلام، وحتى أيضا فى المزاح والنكات. ثم أضفنا شيئا جديدا فى أجيالنا المعاصرة: لقد ابتكرنا طريقة الموت الحديث.

إن الموت الحديث يتخذ مكانه المفضل فى المستشفى الحديث، حيث يمكن إخفاؤه، ويُطَهَّر سريعا من آفته العضوية (المسببة للمرض) ثم فى النهاية يغلَّف وفقا للدفن الحديث. ونزعم بعد ذلك أن باستطاعتنا ليس فقط إنكار سلطان الموت، بل والطبيعة أيضا!. إننا فى واقع الأمر نخفى وجوهنا عن وجهها. غير أننا مازلنا نبسط أيدى الاستسلام بعض الشيء، إذ إن هناك شيئا فى داخلنا يعجز عن مقاومة نظرة مختلسة.

إننا فى حياتنا اليومية نتقمص مشاهد درامية نؤدى بها دور المشفق من رؤية شخص محبوب مريض على حافة الموت. وننجح فى أداء تلك الأدوار، لدرجة أنها غالبا ما تكون كافية لتدعيم توقعاتنا. وأصبح الإيمان بالقدرة على أداء مثل هذه المشاهد تقليدا متبعا لدى علماء الغرب، الذين قدروا منذ قرون مضت قيمة الموت الحسن، باعتباره منجاة للروح، وأنه ارتقاء لخبرة الأسرة والأصدقاء، ومجدوا هذا فى الأعمال الأدبية، وفى المصورات والرسوم والتماثيل التى تدور موضوعاتها حول «فن الموت».

فى الأصل، كان «فن الموت» دينيا خالصا، ومحاولة روحية. وقد وصفه فى القرن الخامس عشر الميلادى رجل الطباعة «ويليام كاكستون» بأنه: «أداة بارعة لتقبل الموت على أنه صحيح لنفس الإنسان». ومع الوقت، تطور هذا الفن داخل مضمون «الموت الجميل»، وكأنه بحق الطريقة الصحيحة للموت، لكن «فن الموت» فى وقتنا الحاضر لم يعد سهلا ميسورا، بسبب محاولاتنا فى الإخفاء والمعالجة الصحيحة ـ وخاصة الوقائية ـ والتى نتج عنها أمثال ما نشاهده من «سرير الموت» الذى يوجد متواريا فى بعض الأماكن المتخصصة كأقسام العناية المركزة، وغرف الطوارئ، ومعاهد بحوث طب الأورام.

لقد أصبح الموت الجميل أسطورة متعاظمة. وجانب منه فى واقع الأمر كان

دائما أسطورة، إلا إنها لم تبلغ مطلقا ما بلغته اليوم. إن العنصر الرئيسى فيها متعلق باستثارة الرغبة فى مثالية: «الموت فى كرامة».

منذ وقت غير بعيد، رأيت فى مكتبى بالعيادة الطبية محامية تبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما، كنت أجريت لها من ثلاث سنوات مضت جراحة متعلقة بسرطان مبكر فى الصدر. على الرغم من أنها تخلصت من المرض، ويتوفر لها كل مقومات الشفاء الدائم، إلا أنها بدت - فى ذلك اليوم - شديدة الاكتئاب. فى نهاية الزيارة سألتنى عما إذا كان الوقت يسمح بالحديث قليلا معى. ثم شرعَت فى وصف حالة وفاة أمها مؤخرا فى مدينة غير بعيدة، بسبب نفس المرض الذى شُفيت منه يقينا أو ما يقرب من اليقين، قالت:

«إن أمى ماتت بعد طول احتضار. ورغم أن الأطباء بذلوا جهدا كبيرا فى محاولاتهم معها، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا الأمور سلسلة بالنسبة لها. لم يحدث شيء مما كنت أتوقعه لها من نهاية هادئة. لقد فكرتُ أنه كان من الأفضل لو تكلمنا معا - هى وأنا - فى حديث روحى من أحاديث النفس عن حياتها. لكن هذا لم يحدث مطلقا، لأنهم احتجزوها فى عزلة تحت العناية المكثفة، ومسكنات مخدِّرة». ثم انفجرت ثائرة باكية، وهى تقول:

«دكتور نولاند، إن موت أمى كان خاليا من الكرامة»!

بذلتُ جهدا كبيرا مع زائرتى تلك لكى أُقنعها بأنه لم يحدث شيء غير عادى بالنسبة للحالة التى ماتت عليها أمها. كما أنها لم ترتكب خطأ أو تقصيرا، حال دون أن تجرب أمها ذاك الموت «الروحى» أو «النفسى» بالكرامة التى كانت تريدها لأمها. حاولتُ أن أخفف عنها حالة الاكتئاب التى تعقب اليأس، بعد أن فشلت جهودها وتوقعاتها فى تحقيق تلك الرغبة قبل رحيل أمها. واجتهدت أن أوضح لها أن الاعتقاد فى احتمال وقوع الموت فى كرامة هو واجبنا نحن (الأطباء)، والأسرة، والمجتمع أيضا، وذلك بمحاولة التعامل مع الحقيقة التى مؤداها أننا، جميعا، عرضة لتكرار سلسلة من الأحداث المهلكة تستلزم بالضرورة وبحكم طبيعتها تمزق إنسانية المرء عند الوفاة. وفى حالات

كثيرة ـ وبصراحة وصدق ـ لم أر قدرا كبيرا من الكرامة فى الطريقة التى نستقبل بها الموت فى غرف العناية المركزة.

إن الفشل فى توفير الكرامة الحقيقية يأتى عندما تنهار أجسامنا وتُخفق فى التماسك والاتزان، أحيانا ـ وأحيانا فقط، يوهب واحد من الناس «فريد» فى شخصيته، حالة «فريدة» من الموت تكون له منحة. وبهذا التوافق السعيد، تثمر تلك المنحة، إلا أن هذا التلاقى الموفق ليس شائعا. وعلى أية حال، ليس متوقعا إلا لأقل القليل من الناس.

لقد كتبت هذا الكتاب لكى أفند الوهم أو الأسطورة التى تغلف حالة الموت. لست عازما على شرحها أو تصويرها كمسلسل ملىء بالرعب والآلام تُفضى إلى تحليل يثير الاشمئزاز والغثيان، وإنما أقدمها فى حقيقتها الطبية البيولوجية، كما رآها أولئك الذين هم شهود عليها، ومثلما أَحس بها أولئك الذين خاضوا تجربتها. إن المناقشة الصريحة وحدها حول كل التفاصِيل وأدقها عن تداعيات الموت، هى التى ستتيح لنا أفضل تعامل مع تلك الظاهرة والسمات التى تفزعنا أكثر من غيرها.

بمعرفة الحقيقة، وبالاستعداد الدائم لها، نخلِّص أنفسنا من ذلك الخوف المنبعث من أرضية الموت الخفية، والذى يقودنا إلى خداع النفس، وحينئذ نتحرر من الأوهام ، وننزع قناع الخرافة.

يوجد إنتاج ضخم من المؤلفات الأدبية عن الموت والاحتضار. إنها فى واقع الأمر تبغى تقديم عون للناس وتشجيعهم على مقاومة العواطف والنزعات المؤذية للجسم والنفس حين تصاحب تلك الحالة. إنها لا تركز كما يجب على الجانب الأخطر والأهم: ألا وهو تفاصيل التدمير الطبيعى أو الفساد الذى ينْتاب جسم الإنسان عندما تقترب النهاية. قد لا نجد ذلك إلا فى بضع صفحات من مجلة متخصصة، حين تتناول بالشرح وصفا لحقيقة ما تفعله الأمراض المختلفة عندما تستنزف حيوتنا ثم تَمضى إلى إزهاق أرواحنا.

إن مسيرتى الطويلة فى ممارسة مهنتى الطبية، وخبرة سنوات العمر المديدة مع

الموت، تؤكدان الملاحظة التى أبداها «جون وبستر» إذ يقول: «من المؤكد أن الناس أمامهم على الأقل عشرة آلاف باب مختلف للخروج»، أى من الحياة الدنيا. وإنى لأرجو أن أمد يد العون لاستكمال دعاء الشاعر «رينر ماريا ريلْك»: يا إلهى! اعط كلا منا موتتَه..».

لقد اخترتُ ستة من قائمة الأمراض الشائعة فى عصرنا[1]، ليس فقط لأنها تتضمن العلل المهلكة التى تدهم الغالبية العظمى من بيننا، ولكن لسبب آخر لا يقل أهمية: أن هذه الستة لها خصائص مميزة، تظهر سلسلة آثارها وملامحها على المستوى العالمى، ونتعرض لها جميعا عندما ندخل فى سكرات الموت.

إن توقف الدورة الدموية، وعدم دخول الأكسجين إلى الأنسجة بالقدر الكافى، وارتجاف ومضات المخ العاملة على أداء وظائفه، وفشل أجهزة الجسم، ودمار المراكز الحيوية فيه. تلك هى الأسلحة التى يحملها بكفاءة واقتدار كل فارس من فرسان الموت. وإن التآلف معها سوف يفسر كيف نموت.... إن الأمراض التى وقع اختيارى عليها ليست هى السبل الشائعة المؤدية إلى الموت وحسب، بل إنها أيضا طرق ممهدة لكى يطأها كل إنسان دون نظر إلى علته الأخيرة، حتى ولو كانت نادرة..

ينصبُّ معظم اهتمامى على الكون الدقيق أكثر من الكون الرحيب. كيف يحيا الإنسان على الأرض، هو ما يثير تفكيرى أكثر من كيف يموت النجم فى السماء. كيف تشق سيدة طريقها عبر العالم بسلام أفضل عندى من كيف يندفع المذنَّب فى مساره بين الكواكب.. إن كان هناك إله، فإن قدرته وعظمته تظهران فى خلق كل منا متفردا، أكثر من ظهورهما فى خلق الأرض. إن الحالة أو الكيفية الإنسانية هى فى صيغتها سر غامض يستْولى على مشاعرى وكل إعجابى، أكثر من الكيفية أو الأحوال الكونية.

ولفهم الحالة الإنسانية، كان عملى المتواصل طوال حياتى. وأثناء تلك الحياة، التى هى الآن فى عقدها السابع، حصلت على نصيبى من الإخفاقات

(١) هى على التوالى: أمراض القلب/ أمراض الشيخوخة/ مرض الزهيْمر أى فقدان وتلف الذاكرة والمخ/ نتائج القتل والإصابات المهلكة والانتحار/ الإيدز أو فقدان المناعة/ السرطان.

ومن النجاحات. وأقدِّر أحيانا أنني نلتُ ما يفوق نصيبي منها بكثير. إلا أن هذا التقدير ربما نشأ عن الميل أو الرغبة التي نتقاسمها جميعا، تلك التي تجعل كلا منا يعتبر أن وجوده هو النموذج الأسمى للتجربة الكونية، وأن حياته على نحو ما أكبر وأبعد مدى من حياة الآخرين، وفي الشعور أشد عمقا.

وعبثا أن نلتمس وسيلة تنبئ بما إذا كان هذا هو عِقْدي الأخير، أم أن هناك المزيد من بعده، لأن الصحة الجيدة لا تضمن شيئا. الشيء الوحيد المؤكد عندي فيما يتعلق بموتي، هو ما أرجوه أن يكون بلا معاناة أو ألم - هناك من يرغبون في الرحيل عن الدنيا مع نهاية مرض قصير من غير ألم مرير، يحوطهم مَن وما يحبون من الأشخاص والأشياء، وأنا واحد من هؤلاء، وأحسبني واحدا من بين الأغلبية.. فهناك من يتمنون الموت السريع، وربما بالفجاءة العاجلة.

لكن للأسف، إن ما أرجوه ليس هو ما أتوقعه. لقد شاهدتُ عديداً من حالات الموت المفرطة في التفرد (فكل موت حالة فريدة لا تتشابه) لا ينتج عنها ما نريده. ومثل معظم الناس: من المحتمل أن أُعاني من أوجاع جسدية ونفسية، من تلك التي تصحب الكثير من الأمراض المُهلكة. ومثل معظم الناس، ربما جمعْتُ بين الريبة المؤلمة في شهوري الأخيرة وبين عذاب التردد في اتخاذ القرار: المواصلة أو الاستسلام، أو أعامَل بقسوة ومهانة (يقصد باستخدام أجهزة أقسام الإنعاش والعناية المركزة، خاصة في الأحوال الميئوس من شفائها)، أم أنتهي إلى الراحة والسكون إلى الأبد.. المفاضلة من أجل الحصول على وقت أطول حتى ولو كان هامشيا، أو استدعاء النهاية والاستسلام عندما يستوي اليوم بالعمر كله. هذان هما وجه المرآة التي ننظر إليها حين تدهمنا تلك الأمراض التي تملك القوة لقتلنا..

ليس بنا حاجة إلى النظر نحو الطابور الطويل من الفرسان القتلة في عالمنا، ومن حولنا، الذين يتربصون بنا محاولين التدمير وإهلاك الحرث والنسل، فهناك «فرسان» أكثر عددا وأوفر مددا لا يستطيع أحدنا مغالبتهم. إنها (أي الجراثيم والميكروبات) تستخدم أسلحة أشد فتكا مما قد نتصور.

عندما تضبح هذه مألوفة لدينا بعض الشيء، من خلال معرفتها وفهم

آثارها، فربما تصير أيضا أقل إفزاعا، ولربما يتهيأ لنا المناخ السليم لاتخاذ القرار السديد والواجب، متحررين من مغبَّة نصف المعرفة والتوتر والقلق والتوقعات غير المحسوبة بدقة.

بالنسبة لمعظمنا، هناك الموت الصحيح، ولزام علينا أن نحرص ونجتهد فى العثور عليه. وبينما ندرك ذلك، يبدو جوهريا فى النهاية أنه خارج عن نطاق سيطرتنا أو التمكن الواثق منه.. فالمرض الأخير الذى يصيبنا، مع الحالة الختامية للجسم والنفس معا، هو الذى يحدد سمات الجو الذى ستسقط فيه الورقة الأخيرة من شجرة حياتنا. كتب «ريلْك» يقول:

«يا إلهى! امنح كلا منا موتَته.

الموتة التى تنبثق مُصعِّدة من الحياة.

التى فيها أحَبَّ، واعتَبَر، ويئِس»

لقد صاغ الشاعر رغبته فى شكل رجاء أو دعاء. وليس كل رجاء أو دعاء مستجاب، حتى من الله. إن سمة الموت عند الكثيرين منا، هى بالتأكيد خارج نطاق السيطرة، ويستحيل أن تغيرها حكمة أو معرفة. ومما له قيمة، أن نعرف، أثناء موت من نحب أو موتنا نحن، أنه مازالت توجد أشياء كثيرة بعيدة عن متناولنا، تحُول بين اختياراتنا، حتى مع إتاحة أَدَق وأجدَى المساعدات الطبية ومستحدثات علم الطب الأحيائى. ومع ذلك، فليس قضاء محتما مفروضا على الكثيرين أن تكون نهاية مصيرهم الموت على نحو سيئ.. فالمسألة ببساطة: أن طبائع الأشياء هى التى تهيؤهم للوفاة. إن الغالبية العظمى من الناس لا تغادر الحياة بطريقة تتوافق مع اختياراتها.

فى القرون السابقة كان الناس يؤمنون بفكرة «فن استقبال الموت». فى تلك العصور كان السلوك الوحيد لمواجهة استقبال الموت هو أن يتركوه يأتى بلا عوائق: فما أن تظهر عوارضه ـ أو طلائعه ـ المؤكدة، فإن كل اختيار ينقطع، ولا يبقى إلا تلقى سكرات الموت بأفضل سبيل مستطاع، أى فى سلام مع الله. ولكن مع ذلك، عَبَر كثير من الناس مرحلة من العذاب قبل بلوغ النهاية. وقلما كانت مواساة ودعوات الأهل تخفف من وقع اللحظات الأخيرة.

أما اليوم، فنحن لا نعيش عصر فن استقبال الموت، بل فن إنقاذ الحياة. وفى هذا الفن يكمن حشد من المشكلات والمعضلات. اليوم، ومنذ نحو نصف قرن، يزهو فن الطب بقدرته على التعامل مع عملية الموت، فيجعلها هادئة ساكنة على أفضل ما يستطيعه الاحتراف المتخصص، فيما عدا أمور مهمة قليلة لم يضعها فى حسبانه: تهيئة المناخ الدينى الذى يعيش فيه المحتضر ويصحبه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. وهذا الجانب يكاد يُفتقَد فى الغرب بعد ما استُبدل بوسائل «الإنقَاذ» المعقدة. وأمر آخر للأسف: ما أصبح شائعا من تخلى الأحباء والأصدقاء والمقربين عن المحتضِر عندما تعجز وسائل الإنقاذ (عند حجز المريض فى أقسام علاجية وعَزْله).

إن الموت متعلق بالشخص المحتضر، وأيضا بأولئك الذين يحبهم. إنها علاقة مزدوجة يلطِّخها غزو المرض المدمر، فلا يجب السماح فوق ذلك بتمزيقها باستخدام المحاولات الصادرة بلا شك عن حسن النية، لكنها تعجز فى الحالات الميئوس من إنقاذها. إن اتخاذ القرارات بشأن استمرار العلاج يخضع لتأثير الأطباء المعالجين، ومدى حماسهم، أو إصرارهم، لأنهم هم الذين يقترحون ويقررون. وعادة ما يكون أفضل المتخصصين علما وخبرة هم الأكثر اقتناعا بأن الإمكانيات الطبية الأحيائية تستطيع أن تواجه التحدى الذى تُظهره الحالات المَرضية التى تبغى إهلاك ضحاياها. وتقع الأسرة فى وهم تُفصح عنه الإحصاءات.

لا أقصد بهذا أن أتهم كبار الأطباء المتخصصين.. فأنا واحد منهم، وشاركت فى لذة القتال حتى الخندق الأخير من أجل الحفاظ على الحياة، وكنت أشعر بذروة الرضا والابتهاج عندما كان ينجم عن ذلك فوز أو انتصار، إلا أن عددا غير قليل من الانتصارات كان باهظ الثمن للغاية: فأحيانا كان عذاب الآلام أفدح ولا يساوى قيمة النجاح المؤقت، وأعتقد كذلك أننى لو استطعت أن أضع نفسى مكان الأسرة، أو مكان المريض، فإننى سأكون أقل يقينا بأن الدخول فى معركة يائسة يجب أن يستمر.

عندما ينْتابنى مرض خطير يتطلب علاجا متخصصا رفيع المستوى، فإننى

سوف أبحث عن طبيب ماهر فى مجاله، لكننى لا أتوقع منه أن يضع فى اعتباره مبادئى وقيمى، وتوقعاتى بالنسبة لنفسى ولمن أحب، وممارساتى الروحية وفلسفتى فى الحياة. . فهذا كله لم يدخل فيما حصّله من علم وتدريب وفن، ولا يُقاس به مدى إجادته وتفوقه. إن هذا كله ـ وهو أمر أساسى وحيوى عندى ـ لا يمس محركات وبواعث الإثارة عنده التى تدفعه فى مهنته إلى الترقى والتميز.

لهذه الأسباب، فإننى لن أسمح لطبيب متخصص أن يقرر متى تُسدل على حياتى الستار. حقيقة لا وهْما سوف أختار طريقى بنفسى، أو على الأقل أجعل عناصر ومكونات طريقى الخاص واضحة، حتى يكون الاختيار ـ إذا ما عجزت عنه ـ هو الأصوب من جانب أولئك الذين يفهموننى جيدا، ويعرفوننى على نحو أفضل. ربما تكون ظروف مرضى لا تسمح لى «بالموت الحسن»، أو بالموت فى أى صورة من صور الكرامة التى نحرص عليها متفائلين، ولكن فى إطار قدرتى المحدودة على الضبط والسيطرة، فإننى لن أُغالب الموت المحتوم، وذلك لسبب بسيط: أن الطبيب الماهر الرفيع المستوى لا يفهم حقيقة من أكون. . .

بين سطور كتابى هذا إشارة غير معلنة عن إحياء فكرة **طبيب الأسرة** أو العائلة. إن كلا منا فى حاجة إلى مرشد يعرفنا «نحن» جيدا، مثلما يجيد معرفة المسالك الملائمة التى نستطيع أن نعبرها عند اقتراب الموت. وحتى فى ختام المرحلة الاخيرة، فإننا فى حاجة إلى صحبة أولئك الذين نحبهم ويحبوننا، وفى حاجة إلى اختيار الحكمة الراشدة، إلى اختيار الملائم لنا وحدنا. . إن الموضوعية الطبية التى لابد وأن تدخل فى هذا الاختيار، يجب أن تأتى من طبيب متآلف مع قيمنا وأسلوب حياتنا التى ارتضيناها لأنفسنا، وليس من مجرد غريب عنا لا نخاطبه إلا من خلال كفاءته الطبية وحسب. فى بعض الأحيان، لا تكون بنا حاجة إلى نُبل وإشفاق الغرباء، بقدر حاجتنا إلى فهم طبيب صديق قضينا معه فترة طويلة من العمر. وأيا كان المنهج الذى يُتخذ نظاما للعناية بصحتنا، فإن التقدير السليم الصحيح يتطلب أن نضع هذه الحقيقة البسيطة فى اعتبارنا.

وحتى مع وجود أمهر الأطباء وأحدث الأجهزة، فإن السيطرة على الحالة أو

الموقف، والمباشرة المنضبطة الحقيقية، يتطلبان المعرفة الذاتية لطرائق المرض والوفاة. تماما مثلما رأيتُ أشخاصا يكافحون المرض لزمن طويل، شاهدتُ آخرين يستسلمون مبكرا وبسرعة، فى حين كان باستطاعتهم على الأقل أن يفعلوا شيئا للمحافظة ليس فقط على بقية من حياة، بل والاستمتاع بها أيضا. وبقدر المعلومات المتوفرة لدينا عن حقائق المرض المهلك، بقدر ما نستغل الوقت المتاح لنا لمقاومته، وبقدر ما نقلل من نوع الوفاة المهين الذى لا يرضى عنه معظمنا. وبالنسبة للذين يموتون وأولئك الذين يحبونهم، فإن الاستعداد الطبيعى لتقبُّل الواقع هو أضمن سبيل لهدوء النفس عندما نحزن حزنا حقيقيا على فقد إنسان. إن فقدان الحب هو الذى يُحزننا، وليس الشعور بالذنب، أننا أخطأنا فى عمل شىء.

والاستعداد الطبيعى لتقبل الواقع يتطلب أيضا التسليم بأن الفترة الزمنية المقدرة لحياة أحدنا على الأض، لابد أن تكون محدودة فى نطاق التساوق والانسجام مع استمرارية وجود النوع البشرى.. فالجنس البشرى، بكل ما مُنح من مميزات فريدة، هو فى واقع الأمر جزء من النظام البيئى مثل غيره من الأشكال الحيوانية والنباتية. وقوانين الحياة الطبيعية لا تُحابى ولا تفرق بين العناصر والأجناس والأنواع.. فنحن نموت لكى يستمر العالم فى الحياة. لقد وُهبنا معجزة الحياة، لأن بلايين وبلايين الكائنات الحية مهدت لنا الطريق، ثم ماتت ـ على نحو ما ـ من أجلنا. ونحن نموت بدورنا لإحداث التوازن بين الأحياء، فيتحقق انتصار استمرارية الحياة.

هذا جميعه، يجعل كل ساعة مُنحت لنا فى الحياة ثمينة، بل وأكثر قيمة وبُعدا مما نظن. يتطلب ذلك أن تكون الحياة نافعة ومثمرة. فإذا كنا فى أعمالنا الجادة وملاهينا، فى نجاحاتنا وإخفاقاتنا، يسهم كل منا فى عملية الاستمرارية المتطورة، ليس فقط بالنسبة لجنسنا البشرى، وإنما من أجل التوازن البيئى الطبيعى الشامل، إذا كنا كذلك، يصير نُبل ما نبدع فى الفترة الزمنية الممنوحة لنا متوافقا مع جلال ما ننجزه ونتقبل معه ـ عن ـ رضا حتمية الموت...

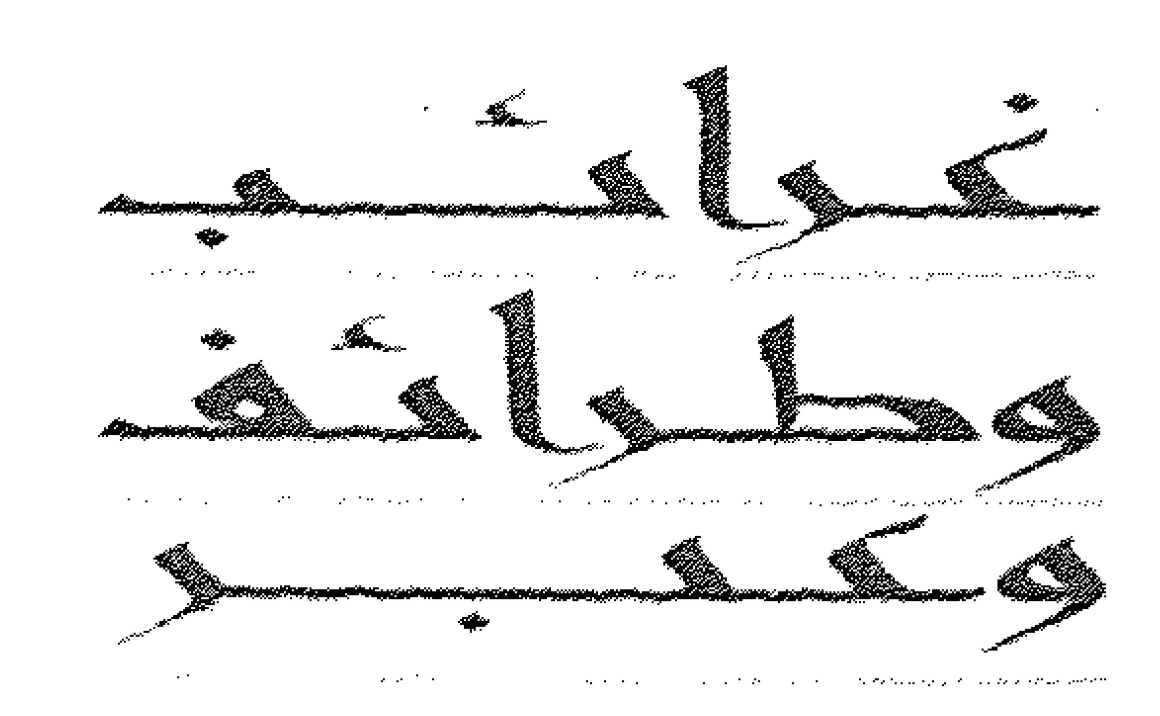
من خلال فهم صحيح للآلية (للميكانيزم) التى تتمكن بها الأمراض المهلكة

الشائعة من قتل الحياة، ومن خلال التفكير السديد المنبثق من التوقعات الطبيعية الواقعية، ومن خلال إدراك جديد مع أطبائنا يجعلنا لا نطلب منهم ما لا يستطيعون إعطاءه، يأتى التدبير على أعلى درجة من النجاح، فيما هو متاح: من التنظيم والسيطرة على الأمراض القاتلة. . . .

إن الحياة تتخللها فترات من الألم، وعند البعض منا هى غارقة فيه، لكن المسار العادى للمعيشة مزيج من المعاناة والسكينة، والحزن والبهجة. أما فى استقبال الموت، لا يكون إلا الحزن والألم. وإن فن استقبال الموت هو ذاته فن استقبال الحياة.

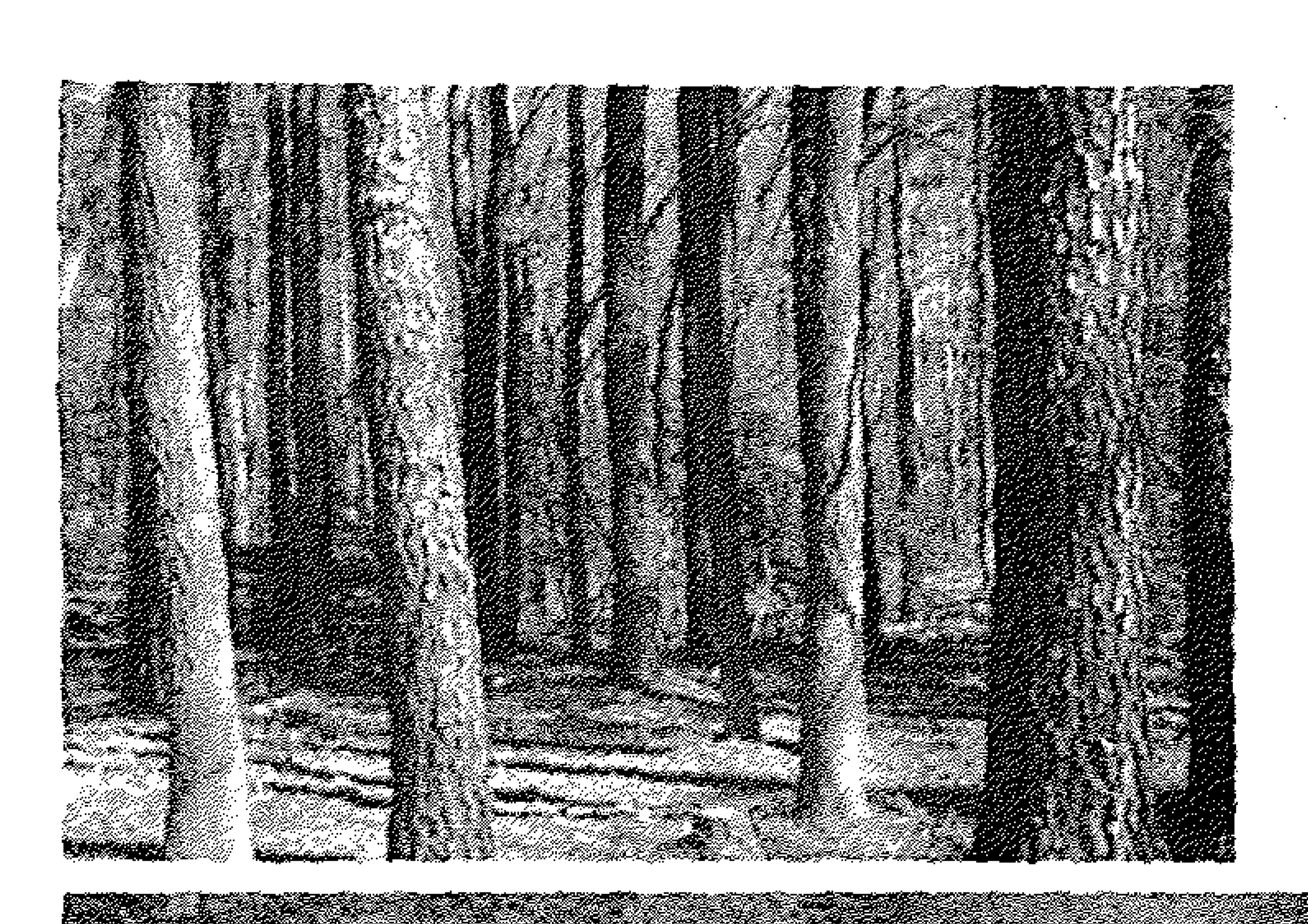
إن سنوات العمر فى حياة شريفة جليلة جميلة تُخْتَتَم، هى المقياس الحقيقى لتقييم «كيف نموت».. فالأيام والأسابيع الأخيرة من العمر ليست هى التى تصيغ الرسالة التى نتركها لذكرانا، بل إن هذه الرسالة كتبتْها كل العقود والسنوات الماضية.

فمن عاش فى شرف وكرامة، لسوف يموت شريفا مكرّما..!.



فى حياة كل منا مواقف ، وفى ذاكرته مشاهد ، وفى كيانه عزائم وقُدرات ، لاتخلو من طرائف ، ولا تَنْضب من غرائب ، فلا تَعْجز عن انبعاث الأمل عند الشِّدة ، ومغالبة الألم عند البلاء .

وفى حياة الناس من حولنا ـ رجال ونساء ـ مَن عرفوا قدراتهم ، ومَدى طاقاتهم ، فاختبروها بإرادة وعزيمة ، فى مواقف صعبة ، واستثمروها بذكاء وحيلة فى مواجهات اليأس والتحدى ، فأصاب وفاز بعضهم ، وفشل وخاب آخرون . . حتى فى ساعات الوداع الأخيرة التى قَلما نفكر فيها ، أو نتخيل بدقة جوانب من أحوالها وتداعياتها وصورها . .





وهذا الكتاب يضم مو
إنجازات وتجارب هؤلاء
جميعًا ـ على تنوعها وتباين
فحواه : أن العُمر ينقضى
إبداعات وإخفاقات . .
تقاصرت ـ حفل حافل .

الدار المصرية اللبنانية